نور التحقيق في صحة أعمال الطريق

تأليف

حامد ابراهيم محمد صقر

الشاذلي

تلميذ العارف بالله مربي المريدين ومرشد السالكين
وإمام الواصلين الشيخ عبد العليم ابراهيم القناوي صقر
شيخ الطريقة الشاذلية رضي الله عنه

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

مطبعة دار التأليف بالمالية بمصر
تليفون ٢١٨٢٥

مقدمة الطبعة الثانية

تقديم خاص

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل الرسل والأنبياء والأولياء أبوابه

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى كرّم الله به أحبابه .

وعلى آله وصحابته والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــــد :

فلما شرفت بمبايعة سيدى الشيخ رضوان حسن بكار شيخ الطريقة الشاذلية اليوسفية عام ١٩٣٧ م على تقوى الله وذكره فى أخوة الله ، ومتابعته على السير فى طريق القوم ؛ أحسست حلاوة الطاعة وطعم الإيمان ويقظة الروح ، وأحببت أن يشاركنى الناس ما أنا فيه من الخير ، فلا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . عزمت على أن أقيم الأدلة الساطعة والبراهين الناصعة على صحة أعمال أهل الطريق من كتاب الله والسنة الصحيحة عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فصرت أقيد فى ذاكرتى كل آية وحديث صحيح فيهما ما أبتغيه . . . فلما توفى الشيخ رضى الله عنه وأقام الله مكانه فى الدعوة إليه سيدى الشيخ عبد العليم إبراهيم القناوى صقر نفعنا الله به والمسلمين ، وكسنة الرسالات والدعوة اهتز الإخوان والأحباب عند وفاة الشيخ ، فزاد ذلك من عزمى على

وعندما اكتملت فى ذهنى أبوابه وأفكاره وبراهينه ... زارنى فى حوش عيسى : بحيرة ـ وكثيراً ما كان يزورنى ـ أحد إخواننا فى طريق الله المشهود لهم بالعلم والزهد ، والذى كشف الله لنا عن سر خصوصيته ، وأخبرنى سيادة الشيخ بولايته ، وهو فضيلة المرحوم الشيخ حسنين محمد دياب وكان منشرح الصدر مبتهج الفؤاد ، وقال : يا سيدى حامد ـ كما كان يحلو له أن يناديني ـ إن الكتاب الذى ألفته أهل الله جميعاً موافقون عليه ، فقلت : أى كتاب !!!

قال : لقد رأيت السيدة زينب رضى الله عنها فى جمع كبير من الأولياء تمسك بكتابك وتقول فى سرور : (هذا نور . . . ! ! !) فأزف إليك هذه البشرى ، فعقدت العزم على إخراجه من حيز الفكر إلى التنفيذ ، وبدأت فى تدوينه فى غرة رجب عام ١٣٦٨ وانتهيت من إعداده للطبع فى ليلة القدر ليلة السابع والعشرين من رمضان من نفس هذا العام وسميته « نور التحقيق فى صحة أعمال الطريق » .

والله أسأل أن يجعله لى نوراً فى دنياى ونوراً فى قبرى ونوراً فى ظله يوم لا ظل إلا ظله وأن ينفع به المسلمين على اختلاف مناهجهم ومناهلهم ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . وصلاة الله وسلامه وتحياته ورحمته وبركاته على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم يبعثون .

المؤلف

حامد إبراهيم محمد صقر

عفا الله عنه

المناى — منوفية

فى أول يوليو سنة ١٩٦٩

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى كرم بنى آدم فجعل الخلافة فى الأرض لآدم عليه السلام وأشهد أن لا إله إلا الله جعل أمة الإسلام خير أمة أخرجت للأنام والصلاة والسلام على من هو أول الخلق للعالمين رحمة وإمام سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

أشكرك يا مولاى على نعمائك ومن تمام الشكر أن يشكر المرء والديه ـ وإنى لعاجز فقونى ـ ومن كمال الشكر أن يشكر من جرت النعمة على يديه فجزى الله رسوله وصحابته أحسن الجزاء وكل من دعا إلى الله وتسبب فى التوجه إليه ورضى الله عن شيخى ووالدى وإخوانى وجعلنا ممن يظلهم بظل عرشه المكين .

وبعد :

فإلى الذين يريدون التخلص من ضلال الأوهام وظلمات الشكوك إلى الذين يريدون الكمال والارتقاء فى مدارج أنوار السلوك إلى الذين لم تحجبهم المادة وظواهر الكون عن السير إلى مالك الملوك إلى الذين يحبون الله ورسوله والمؤمنين . أهدى هذا الكتاب الثمين .

* * *

اعلم أيها الأخ ـ وفقنى الله وإياك ـ إلى ما يوصل للعزة والنعيم المقيم اعلم أن طلب الهداية دائم للسير فى الطريق ـ وفوق كل ذى علم عليم فقد طلبها سيد الخلق كما طلبها الجميع فقال : اهدنا الصراط المستقيم فالكمال لا يحد وليس له نهاية ـ فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين .

* * *

إننى ما أردت بهذا الكتاب الطعن ولا التجنى فما ابتغيتهما قصداً ولا أملا وما أردت به الجدال ففى معرض الذم وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ولكن وضعته بين يدى كل عادل منصف ليحكم بأيكم أحسن عملا فتأمل ـ هدانى الله وإياك إلى سبيل الرشاد والحق المبين .

* * *

وقد توخيت الإجمال مخاطباً العقول السليمة التى عن الحق لا تميل (فليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل) وستجد الحق واضحاً مؤيداً بالسنة الغراء وبآيات محكم التنزيل وما أنت بهادى العمى ـ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين .

* * *

إلهى أردت به وجهك فاجعلنى من الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً وتقبله منى بقبول حسن واحشرنى فى القائلين واجعلنا للمتقين إماماً أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وذلك الفوز المبين .

المؤلف

حامد إبراهيم محمد صقر

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس كمثله شىء وهو السميع البصير

قال الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق البخارى فى كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف أجمعت الصوفية على أن الله تعالى واحد أحد فرد صمد قديم عالم قادر حق سميع بصير باق عزيز عظيم جليل كبير جواد رءوف متكبر جبار أول إله سيد مالك رب رحمن رحيم مريد حكيم متكلم خالق رازق موصوف بكل ما وصف به نفسه مسمى بكل ما سمى به نفسه لم يزل قديماً بأسمائه وصفاته غير مشبه بالخلق بوجه من الوجوه لا تشبه ذاته الذوات ولا صفته الصفات ولا يجرى عليه شىء من سمات المخلوقين لم يزل سابقاً متقدماً المحدثات موجوداً قبل كل شىء لا قديم غيره ليس بجسم ولا شبح ولا يتحرك ولا يسكن ولا يزداد ولا ينقص ليس بذى أبعاض ولا أجزاء ولا جوارح ولا أعضاء ولا بذى جهات لا تجرى عليه الآفات ولا تأخذه السنات ولا تداوله الأوقات ولا تعينه الإشارات لا يحويه مكان ولا يجرى عليه زمان لا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول لا تحيط به الأفكار ولا تحجبه الأستار ولا تدركه الأبصار لم يسبقه قبل ولم يقطعه بعد ولا يغادره من ولا يوافقه عن ولا يلاصقه إلى ولا يحله فى ولا يوافقه إذ ولا تؤامره إن ولا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله حد ولا يزاحمه عند ولا يأخذه خلف ولا يحده أمام ولا يظهره قبل ولا يفنيه بعد ولا يحمعه كل ولا يوجده كان ولا يفقده ليس ولا يستره خفاء تقدم الحدوث قدمه والقدم وجوده والغاية أزله ، إن قلت متى فقد سبق الوقت كونه وإن قلت قبل فالقبل بعده وإن قلت هو فالهاء والواو خلقه ،

وإن قلت كيف ، فقد احتجب عن الوصف ذاته ، وإن قلت أين فقد تقدم المكان وجوده ، وإن قلت ما هو فقد باين الأشياء هويته ، لا يجتمع صفتان لغيره فى وقت ولا يكون بهما على التضاد فهو باطن فى ظهوره ظاهر فى استتاره فهو الظاهر والباطن القريب البعيد امتناعاً بذلك من الخلق أن يشبهوه فعله من غير مباشرة وتفهيمه من غير ملاقاة وهدايته من غير إيماء لا تنازعه الهمم ولا تخالطه الأفكار ليس لذاته تكييف ولا لفعله تكليف ، أجمعوا على أنه لا تدركه العيون ولا تهجم عليه الظنون ، لا تتغير صفاته ولا تتبدل أسماؤه لم يزل كذلك ولا يزال ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

التوحيـــد

قال الإمام الغزالى رحمه الله تعالى : التوحيد أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط فلا يرى الخير والشر إلا منه ومن ثمرة ذلك التوكل وترك شكاية الخلق وترك الغضب عليهم والرضاء والتسليم لحكم الله تعالى ، وكأن التوحيد جوهر نفيس له قشران أحدهما أبعد عن اللب من الآخر ؛ فخصص الناس الإسم بالقشر وأهملوا اللب : القشر الأول أن تقول بلسانك لا إله إلا الله وهذا يسمى توحيداً لأنه مناقض للتثليث الذى تصرح به النصارى وقد يصدر عن المنافق الذى يخالف سره جهره .

القشر الثانى : ألا يكون فى القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل

يشتمل ظاهر القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به وهو توحيد عوام الخلق والمتكلمون حراس هذا القشر من تشويش المبتدعة .

الثالث: وهو اللباب أن يرى الأمور كلها من الله رؤية تقطع التفاته عن الوسائط وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى وكل متبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه . قال الله تعالى : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » وعنه صلى الله عليه وسلم « أبغض إله عبد فى الأرض عند الله هو الهوى » اهـ .

وقال أبو سعيد الخراز : التوحيد يقع فى الذات والصفات والأفعال ففى الذات نفى الصفات بالإجراء ، وفى الصفات نفى التشبيه بالأسماء ، وفى الأفعال نفى الشريك فى شىء من الأشياء .

قال الجنيد : أشرف كلمة فى التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضى الله عنه سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته ، إلا بالعجز عن معرفته .

إن الدين عند الله الإسلام

نعم إن الدين عند الله الإسلام ، والمسلمون أفضل الأمم لقوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله تعالى « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وقد أخبرنا القرآن أن الله أخذ العهد والميثاق على جميع الرسل والأنبياء بأن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وينصروه وأممهم تابعة لهم حيث قال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم

رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

ونحن نرى أن كل نبي دعا قومه للاسلام وأخبرنا الله سبحانه وتعالى بذلك فى كتابه فقال تعالى على لسان نوح عليه السلام :

« فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » وقال تعالى :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » وقال تعالى :

« ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وقال تعالى على لسان سليمان عليه السلام :

« ألا تعلوا على وائتونى مسلمين » . « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » .

وجاء فى قوم لوط « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » وقال تعالى :

« وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين »

وقال تعالى « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » صدق الله العظيم .

إذن : فما أنزل على سيدنا موسى من الشرائع والأحكام هو ما يناسب قومه من الإسلام وسمى التوراة .

وما أنزل على سيدنا عيسى من الشرائع والأحكام هو ما يناسب قومه من الإسلام وسمى الإنجيل .

وكذلك جميع الكتب السماوية والصحف وما تحتويه من شرائع وأحكام هى ما يناسب الأقوام التى أنزلت عليهم من الإسلام .

ثم أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على سيد خلقه وخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه وممحصاً لجميع الشرائع والأديان متمماً لها بما يصلح الناس إلى يوم يبعثون .

وقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال . فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين .

هذا : وقد طرأ التبديل والتغيير على التوراة والإنجيل وغيرها لأن الله سبحانه وتعالى استودع علماء تلك الأمم كتبهم ووكل إليهم أمر حفظها فبدلوا وغيروا وحرفوا تبعاً لأهوائهم حيث قال تعالى « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » وقال تعالى : « وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

ولكن القرآن الكريم تولى الله سبحانه وتعالى حفظه فلم يتمكن أحد

من العبث به حيث قال « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وذلك لأن الإسلام أكمل الأديان وصالح لكل زمان ومكان قال تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » وقال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

الإسلام دين المساواة والتسامح دين العقل والمنطق والعلم دين التفكير والحرية ، الإسلام روح فهو حياة وعقيدة فهو قوة ومحبة فهو سلم ووئام « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

وأن هذه أمتكم أمة واحدة

« إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وخير الأخوة ما كانت لله فى الله بالله . « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

والطريق طريق الله « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلىّ شبراً تقربت منه ذراعاً وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا ذر : جدد السفينة فإن البحر عميق ، وخذ الزاد كاملا فإن السفر بعيد ، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » .

وليس بين العبد وربه مسافة حتى تقطعها وصلته ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال : « إهدنا الصراط المستقيم »

« وانك لتهدى إلى صراط مستقيم » ، « ولو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » ، « قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » ، « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وسبيل الله وصراطه وطريقته « هو الدين الاسلامى بمقاماته » ولن يضل المسلمون ما زالوا معتصمين بحبل الله ، متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكل عمل يؤيده الكتاب والسنة صراحة أو بتأويل صحيح :

١ — يصدقه العقل . ٢ — ولا يعارضه نقل .

٣ — ويكون فيه نفع المسلمين أفراداً وجماعة ، فهو من دين الله يوصل إلى الله . .

والحقيقة التى لاشك فيها ، أن كلمة الطريقة هذه يجب أن تمحى من وجودنا حساً ومعنى ، وأن تلغى من قاموسنا ولا تجرى على ألسنتنا ، لأنها شعار التفرقة ، وعنوان اتباع الهوى ، كما يجب أن يقوم إعوجاج الناس بالحكمة ، ويتغلب على أهوائهم بساطع الحجة ، لا بالدس والخديعة والمداهنة والوقيعة ، فالعاجز من يهدم بناء الغير حقداً وحسداً من غير أن يبنى هو شيئاً .

وكل عبد شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، قد لمست أنوار الشهادتين قلبه وهو بالتالى يريد المزيد من الخير على قدر اعتقاده ، وعلى المصلحين والداعين إلى الله أن يصححوا هذه العقائد بما أوتوا من علم وحكمة ونور . « أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » فتحقير أعمال الناس وخاصة العوام ، وتسفيه أحلامهم ومعتقداتهم وسبهم من غير أن توضح لهم صحيح الأعمال ونبين لهم خالص

العقائد ، ليس من الحكمة فى شىء ، وإنما يزيد النفوس المريضة مرضاً ، بل ربما يورث الكفر لتحكم العناد فيهم ، « ولكم فى رسول الله أسوة حسنة » ، « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن »

والطريق إلى الله هو العمل الصحيح مع الإخلاص ، بما جاء فى دين الله : علماً ، وفقهاً ، ومعرفة ، ومقامات الدين : إسلام — إيمان — إحسان .

فمن علم بعلمه كان عالماً فى مقام الإسلام ، فالعلم للعقول « فاتقوا الله ماستطعتم » .

ومن تأدب مع الله بقلبه بعد عمله بعلمه كان فقيهاً فى مقام الإيمان فالفقه للقلوب « فاتقوا الله يا أولى الألباب » .

ومن كان مع الله بروحه وسره ، بعد علمه وفقهه كان عارفاً فى مقام الإحسان فالمعرفة للأرواح والأسرار « اتقوا الله حق تقاته » — . « يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » .

من هذا يتضح أن طريق الله واحد ولكنها مسافات وميادين ومقامات وكل قائد أو داع أو إمام ، يسير بالناس على قدر همته وما سبق له من توفيق وفضل فى علم الله .

١ — فالعالم حكمته تصحيح الأعمال وهو سائر إلى الله بمن استمعوا له على قدر همته وتوفيق الله له .

٢ — والفقيه همته تخليص الأحوال وهو سائر إلى الله بمن اتبعوه على قدر همته وتوفيق الله له .

٣ — والعارف قدرته تثبيت قلوب من أحبوه فى مقامات الإحسان بعد

تخليص الأحوال وتصحيح الأعمال مع رؤية الله فى جميع الأحوال . . : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

فالعالم ، والفقيه ، والعارف ، كلهم سائرون فى طريق الله ماداموا يرجون وجه الله ، ووسع العبد يختلف باتساع قدراته ، وبتغير خطابه وتكليفه باتساع أفقه واستنارة قلبه ، وزيادة إمداد الله له .

ولذلك نجد العالم يعترض على الفقيه أحياناً ، وربما يعترض الفقيه على العارف ، والعارف يسلم لكل منهما ، عاذراً لهما لتحققه بما فيهما ، لأن الأعلى يعرف الأدنى ، والأدنى لا يعرف الأعلى ، لهذا نرى العالم بعد فقهه يسلم بما كان ينكره سابقاً ، والفقيه بعد معرفته يتوب مما كان يعتقده كالا فى أيامه الخوالى « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

وهكذا جميع المسلمين سائرون إلى الله بتحرير قصدهم ، وتوحيد هدفهم ، مهما اختلفت أعمالهم فى غير الفرائض والواجبات ، على شرط أن يكون عمل كل منهم يؤيده الكتاب وتزكيه السنة ، والمنكر الذى يجب تغييره هو ما ابتدع فى الدين من غير دليل أو تأويل صحيح على الشروط المتقدمة .

« وذكر الله الجهرى ، السرى ، الخفى ، يطهر قلوب المبتدئين ، وينير الطريق للسائرين ، ويعين الموقنين على دوام الأدب فى حضرة الله » .

« وإن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وكان فضل الله عليك عظيما

إن فضل الله لا يحد وأفضاله لا تعد فكيف به إذا وصفه الله بالعظم ، وأفاضه على أفضل العرب والعجم . قال تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا » وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » (١) .

وعن ميسرة الفجر قال : قلت يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال « وآدم بين الروح والجسد » (٢) .

والنبوة عند المحققين صفة لمعلوم علم الله سبحانه وتعالى بالذات المحمدية إسماً وروحاً وجسداً فى حال عدمها ووجودها وجميع أحوالها .

فكان فضل الله عظيما على سيد أنبيائه وصفوته من خلقه صلى الله عليه وسلم قبل خلق الموجودات بأن جعله صلى الله عليه وسلم أولها الفاتح لها ، لأن إفاضة النبوة عليه صلى الله عليه وسلم وآدم بين الروح والجسد يفيد ذلك . قال الشهاب الخفاجى فى نسيم الرياض فى تفسير البيضاوى : الظاهر أن المراد بها عدم الطرفين الروح والجسد أى لا روح ولا جسد كما فى رواية « ولا آدم ولا ماء ولا طين » لأنك إذا قلت مسكنى بين البصرة والكوفة دل على أنه ليس بهما فأريد لازم معناه بطريق الكناية وليس المراد أنه قريب منهما . . الخ » اهـ

وقد زعم بعض العلماء فى قوله صلى الله عليه وسلم « كنت نبياً وآدم بين

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح غريب .
(٢) رواه الإمام أحمد والبخارى فى التاريخ والطبرانى والحاكم وصححه .

بين الماء والطين » أن هذا الحديث لا أصل له معللا بأنه لم يكن بين الماء والطين إذ الطين ماء وتراب . ولكن الشهاب الخفاجى حمله على وجه المجاز فى لفظ الطين فقال : إنه صلى الله عليه وسلم كان نبياً وآدم تراب بلا ماء يعجن به ليصير بعد ذلك طيناً على مجاز الأول وقد جاء فى علم البيان بأبواب المجاز أن من المجاز تسمية الشيء باسم ما سيؤول إليه كما قال تعالى « إنى أرانى أعصر خمراً » يعنى عنباً سيؤول خمراً فزالت هذه الشبهة ، يؤيد هذا ما رواه أبو موسى الأشعرى قال :

قال صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب ثم بلت طينته حتى صارت طيناً لازباً ثم تركت حتى صارت حمأ مسنوناً ثم تركت حتى صارت صلصالا كما قال الله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » (١) فانظر قوله صلى الله عليه وسلم « بلت طينته » .

وزعم هذا البعض أيضاً أن المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « كنت نبياً . . » الحديث أى فى تقدير علم الله ، ولكن المحدث الكبير والإمام الجليل عبد الله محمد الصديق الغمارى أبطل هذا الزعم بعدة وجوه ذكرها فى كتاب الأحاديث المنتقاه وسأذكرها هنا لنفاستها وتعميم فائدتها : —

الأول : أن نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ثابتة فى علم الله وتقديره منذ

(١) ذكره الحافظ السيوطى فى الجامع الصغير وقال رواه أحمد وصححه فى مسنده وأبو داود فى سننه والترمذى والحاكم والبيهقى كلهم عن أبى موسى .

الأزل فتخصيصها بوقت كون آدم بين الروح والجسد لغو يجب تنزيه الحديث عنه .

الثاني : أن نبوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل الموجودات كلها ثابتة في علم الله وتقديره فلم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا خصوصية على غيره والحديث إنما أتى لبيان الخصوصية فلا بد أن يكون فيه معنى زائد لا يشاركه فيه غيره وإلا كان الحديث من قبيل العبث وذلك باطل .

الثالث : أن الصحابة الذين سألوه بقولهم : متى كنت نبياً ؟ كانوا يعلمون أن نبوته ثابتة في علم الله وتقديره ، بل كانوا يعلمون أن الأشياء كلها ثابتة في علم الله وتقديره فهم بالضرورة إنما أرادوا بسؤالهم قدراً زائد على ما كانوا يعلمون .

الرابع : أن عمر رضي الله عنه سأله : متى جعلت نبياً ؟ وهذا اللفظ صريح في التصيير أي متى صيرت نبياً وذلك لا يتأتى إلا في موجود يصح اتصافه بالصفة التي صير إليها كما تقول جعلت قطعة الذهب خاتماً أي صيرتها كذلك ، وقد كانت القطعة قبل ذلك موجودة غير أنها لم توصف بالخاتمية إلا بعد الجعل والتصيير .

الخامس : أن وجود الأشياء في علم الله وتقديره لا يتصور فيها أسبقية بعضها على بعض فلا يصح أن يقال كنت أول النبيين في الخلق لما يلزم عليه مما لا يليق بالله سبحانه وتعالى وإنما تصح الأولية في الخلق بمعنى الإيجاد لأنه صفة فعل يتصور معه أسبقية بعض الحوادث على بعض كما دل عليه القرآن

والسنة ، فتبين من هذا بطلان ما ذكره البعض وتعين ما ذكرناه وهو أن الله أفاض على روح نبيه الشريفة أو على حقيقته المحمدية وصف النبوة وخلع عليها خلعة القرب وآدم بين الروح والجسد تمييزاً له على سائر المخلوقات ، واصطفاه من بين أنواع الموجودات ؛ فهو خلاصة النوع الإنساني ، وسيد الثقلين وأبو الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، وإلى هذا أشار ابن الفارض على لسان الحضرة المصطفوية :

وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

يقصد بالمعنى الشاهد النور الذي كان على جبين آدم عليه الصلاة والسلام ؛ ثم انتقل إلى شيث من بعده وهكذا على ما ثبت في كتب السيرة النبوية والله أعلم اهـ .

وقال أيضاً : جاء من طرق عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم » الآية قال : كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث ، فبدأ به قبلهم . رواه ابن أبي حاتم وغيره ورواه ابن سعد عن قتادة مرسلا بلفظ : كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث ؛ قال المناوي في شرح الجامع الصغير ما نصه : جعله الله حقيقة تقصر عقولنا عن معرفتها وأفاض عليها وصف النبوة من ذلك الوقت ثم لما انتهى الزمان بالاسم الباطن إلى الظاهر ظهر بكليته جسماً وروحاً اهـ .

وفي حديث الإسراء من رواية أبي هريرة : وجعلني فاتحاً وخاتماً أي فاتحاً لخلق الموجودات خاتماً لظهور النبوات ولذا كان من أسمائه صلى الله عليه وسلم

الفاتح الخاتم . وقد أجاد فى تقرير هذا المعنى وإيضاحه الإمام الحافظ تقى الدين السبكى فى رسالة التعظيم والمنة فى « لتؤمنن به ولتنصرنه » وهى مطبوعة فى فتاويه ونقل كلامه الحافظ السيوطى فى الخصائص الكبرى والقسطلانى فى المواهب اللدنية وغيرهما . اهـ

مما قدمناه يثبت لكل عاقل أنه صلى الله عليه وسلم أول المخلوقات .

وكان فضل الله عظيما على إمام أنبيائه صلى الله عليه وسلم بأن جعل إمامته عامة ورسالته شاملة لجميع العوالم ، فكان بنبوة نورانيته صلى الله عليه وسلم إماماً وقدوة للملائكة يوم أن كان نوراً بين يدى ربه . فعن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كانت روحه نوراً بين يدى الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفى عام يسبح ذلك النور فتسبح الملائكة بتسبيحه . (ذكره القاضى عياض فى الشفا) ، فتسبيح الملائكة بتسبيحه اقتداء تشريف وإقرار بالإمامة وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم مرسل للملائكة كغيرهم وأن نبوته ظهرت فى الوجود العينى قبل نبوة آدم وغيره وأن الملائكة لم تعرف نبياً قبله ، وقد ثبت أنهم ناصروه فى دار التكليف وقاتلوا معه فى غزواته .

قال الضمارى : وألف الحافظ السيوطى فى الانتصار لهذا القول رسالة سماها تزيين الأرائك فى إرسال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الملائك ، استدل فيها بعشرة أدلة أقواها كما قال قوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون » يعنى الملائكة ـ إلى أن قال « ومن يقل منهم ـ أى الملائكة ـ إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين » قال : فهذه الآية إنذار للملائكة على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن الذى

أنزل عليه وقد قال تعالى « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » فثبت بذلك إرساله إليهم اهـ (ورجح التقى السبكى والبارزى أنه أرسل إليهم).

وكان إماماً لجميع الأنبياء ورسولا إليهم بدليل أن الله أخذ عليهم المواثيق الغليظة بأن يؤمنوا به وينصروه ويبشروا أقوامهم به صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

وكان فضل الله عظيما على خاتم رسله صلى الله عليه وسلم حيث جعل رسالته للناس كافة وجعله بشيراً ونذيراً لجميع الناس وأرسل كل رسول بلسان قومه وذلك لعموم رسالته صلى الله عليه وسلم ولأنه هو النبى المطلق وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خلفاؤه والشرائع شريعته ظهرت على لسان كل نبى بقدر استعداد قومه فكانت العقيدة محل إجماع الرسل جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم ـ ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ـ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . واختلفوا فى شرعة العبادات ومنهاج المعاملات كل بما يتفق وعقلية أهل زمانه من القوانين الإلهية التى يكلفهم الله بها إصلاحاً لمجتمعهم ، وكانت كل شريعة تنسخ ماقبلها فى هذه الفروع « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » واستمر الحال كذلك إلى أن بعثه الله بشراً رسولا وأوحى إليه القرآن ومثله معه فهو صلى الله عليه وسلم أول الأنبياء وآخرهم ولا يمكن أن يسرى على شريعته قلم النسخ فأهل الكتاب كانوا يعرفون النبى محمداً صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم وما من كتاب أنزله الله على رسول سبق

إلا وقد بسط فيه القول عن حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ومبعثه وخلقه ، وفضله وعظمته ، وسيادته ، وزعامته ورحمة الله به ؛ إذا فما من أمة سبقت سيد الوجود صلى الله عليه وسلم إلا وقد عرفته من كتابها أو على لسان رسولها .

هـذا وقد أخرج البخارى قوله صلى الله عليه وسلم « أنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر » وذكر البدر العينى فى شرحه فى عمدة القارى : أى عموم الكفرة من سيدنا آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . وأخرج الترمذى وغيره قوله صلى الله عليه وسلم « أنا المقفى ونبى الرحمة ونبى التوبة ونبى الملاحم » أى جميع الملاحم إلى أن تقوم الساعة . وجاء فى أهل النار على اختلاف مللهم « يالينا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » وقال تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » تفيد هـذه الآية حكماً قائماً شاملا كل من تمسك بما بقى من الربا إلى قيام الساعة ، ولا يجوز أن تحمل هذه الآية وأمثالها على وقت معين دون غيره من الأوقات .

وقد تمت به صلى الله عليه وسلم نبوة التشريع فلا وحى بتشريع بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وأما رسالته فممتدة إلى حياته البرزخية مستمرة حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لقوله صلى الله عليه وسلم « أنا رسول من أدركت حياً ومن يولد بعدى » .

وعلى هذا فالناس جميعاً أمته وما وقى إيمان ولا مؤمن إلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب وقايته ولا محى كفر ولا كافر إلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلطاً على محوه بإذن ربه وقد ورد فى الحديث الشريف

« أن مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه » .

وقد آمنت الجن برسالته صلى الله عليه وسلم وابتغت النور الذى أنزل معه فقال تعالى حاكياً عنهم « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً » .

كما شهدت برسالته صلى الله عليه وسلم الجمادات وغيرها طائعة لما رواه الحاكم وصححه عن عائشه رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما استقبلنى جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله » (١) .

وكان فضل الله عظيما على حبيبه ومصطفاه من خلقه صلى الله عليه وسلم بما اختصه من معجزات وعلى رأسها القرآن والإسراء والمعراج « إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى » .

وكان فضل الله عظيما على أكمل خلقه صلى الله عليه وسلم بأن جعل طاعته من طاعته ومحبته من محبته وقرن ثواب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بذكره فكما أنه تعالى قال « فاذكرونى أذكركم » كذلك قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه عشراً » .

وكان فضل الله عظيما على سيد خلقه وأكرمهم عليه حيث جعل له يوم

---

(١) ورواه البزار وأبو نعيم والدارمى ومثله للترمذى عن على كرم الله وجهه .

القيامه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود ، فعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر » رواه الترمذى وقال : حسن غريب .

وبعد :

فمن الناس من يرى أن فضل الله عليه مال وصحة ، ومن الناس من يرى أن فضل الله عليه جاه وجمال ، ومن الناس من يرى أن فضل الله عليه طاعة وجنة . ألا وإن أحسن الفضل علينا وأعظمه هو سيدنا ومولانا وملاذنا وشفيعنا صلى الله عليه وسلم مَن مَنّ الله علينا بإرساله رحمة للعالمين وجعله بالمؤمنين رءوفاً رحيما .

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

العالمون : هم الملائكة والجن والإنس وغيرهم من أصناف الخلق وقد نال كلا منهم نصيب من رحمة الله بسبب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة وسنذكر آثار رحمة الله تبعاً لتطوره فى الخلق والإيجاد صلى الله عليه وسلم وتطورات إيجاده صلى الله عليه وسلم هى : نورانيته ، روحانيته ، بشريته .

فرحمة الله بنورانيته صلى الله عليه وسلم ظهرت فى العالم النورانى عالم الملائكة بأن اهتدوا بتسبيح نوره فسبحوا ومن أعظم رحمة الله إلهام الذكر والتسبيح .

وقد روى القاضى عياض فى الشفا فى باب ثناء الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم وحكى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام هل أصابك من هذه الرحمة شىء ؟ قال : نعم كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عز وجل علىّ بقوله « ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين » ومتى أصابت الرحمة الأعلى شملت الأدنى .

ورحمة الله بروحانيته صلى الله عليه وسلم ظهرت فى الوجود بمظهرين :

الأول : فى استشفاع آدم عليه السلام به ففغر الله له .

أخرج المنذر فى تفسيره عن الحسين بن على عليهما السلام قال لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه فجاءه جبريل عليه السلام ، فقال يا آدم هل أدلك على باب توبتك الذى يتوب الله عليك منه ، قال بلى يا جبريل ، قال قم فى مقامك الذى تناجى فيه ربك فمجده وامدح فليس شىء أحب إلى الله من المدح . قال فأقول ماذا يا جبريل ؟ قال فقل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ـ له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير كله وهو على كل شىء قدير ثم تبوء بخطيئتك فتقول سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت . رب إنى ظلمت نفسى وعملت السوء فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . اللهم إنى أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لى خطيئتى . قال ففعل آدم ، فقال الله يا آدم من علمك هذا ؟ فقال يا رب إنك لما نفخت فى الروح فقمت بشراً سوياً أسمع وأبصر وأعقل وأنظر رأيت على ساق عرشك مكتوباً بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله ، فلما لم أر على أثر اسمك اسم ملك مقرب ولا نبى مرسل غير اسمه

علمت أنه أكرم خلقك عليك ، قال صدقت وقد تبت عليك وغفرت لك » اهـ .
قال الحافظ الهيثمى رجاله ثقات .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أذنب آدم عليه السلام الذنب الذى أذنبه رفع رأسه إلى العرش فقال أسألك بحق محمد إلا غفرت لى فأوحى الله إليه ومن محمد ؟ فقال تبارك اسمك لما خلقتنى رفعت رأسى إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى الله عز وجل إليه يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك وإن أمته آخر الأمم من ذريتك ولولاه يا آدم ما خلقتك » (١) .

وعن ميسرة الفجر قال : قلت يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب إسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى إسمى ، فأخبره الله تعالى أنه سيد ولدك ، فلما غرها الشيطان تابا واستشفعا بإسمى إليه (٢) .

المظهر الثانى : فى إمامته للرسل جميعاً وأممهم بالهداية فكان سبباً فى نجاة المؤمنين من أنواع العذاب التى أنزلها الله بالكفار من هذه الأمم من غرق ومسخ وخسف واستئصال وغير ذلك .

(١) رواه الطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى دلائل النبوة .
(٢) رواه ابن الجوزى فى كتابه الوفا وقال الحافظ الهيثمى إسناد هذا الحديث قوى .

وظهرت فى استفتاح أهل الكتاب بحقه فكانوا ينصرون على المشركين وذلك فى قوله تعالى « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » وقد ذكر الألوسى فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن اليهود كانوا إذا اشتد الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذى وعدتنا أن تبعثه فى آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون (١) .

وهذا هو رأى غالبية المفسرين وعظمائهم الذين يوثق بهم ويعتمد على رواياتهم ؛ وها أنا أذكر ما قاله البغوى فى تفسيره (الذى يعتقد فيه الملك ابن السعود أنه من أصح التفاسير ولذا أمر صاحب المنار بطبعه على نفقته الخاصة) وإليك نصه :

(وكانوا) يعنى اليهود (من قبل) مبعث محمد صلى الله عليه وسلم (يستفتحون) يستنصرون (على الذين كفروا) على مشركى العرب وذلك أنهم كانوا يقولون إذا حزبهم أمر ودهمهم عدو : اللهم انصرنا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته فى التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم (فلما جاءهم ما عرفوا) يعنى محمد صلى الله عليه وسلم من غير بنى إسرائيل وعرفوا نعته وصفته (كفروا به) بغياً وحسداً . اهـ .

(١) وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية والبيهقى فى دلائل النبوة والحافظ السيوطى فى لباب النقول فى أسباب النزول وكلهم عن ابن عباس بألفاظ متقاربة .

ورحمة الله بظهور بشريته وإظهار رسالته صلى الله عليه وسلم ظهرت إكراماً للبشرية فى الكفار فمنع عنهم المسخ والخسف والاستئصال وأجل لهم العذاب قال تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » وذلك بعد أن طلبوا العذاب بنفوسهم وظهرت إكراماً لرسالته فى المؤمنين : بتزكيتهم وهدايتهم وتعليمهم ومغفرة الله لهم وقضاء حوائجهم .

فهدايتهم بقوله تعالى « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ومغفرة الله لهم بقوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيماً » وقوله تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

وأما قضاء حوائجهم فحدث ولا حرج فكتب السنة مليئة بمعجزاته فكم أنزل به غيثاً وكم كثر به قليلا ، وكم شفى به مريضاً وكم أغنى به فقيراً وكم وكم إلى ما لا يحصى من مآثره صلى الله عليه وسلم .

وعن عثمان بن حنيف أن رجلا أعمى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أصبت فى بصرى فادع الله تعالى لى . قال « اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه اليك بنبيى محمد نبى الرحمة يامحمد إنى استشفع بك على ربى فى بصرى اللهم فشفعنى فى نفسى وشفع نبيى فى رد بصرى وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك فرد الله عليه بصره [1] .

---

(١) أخرجه أبو خيثمة فى تاريخه) وروى الطبرانى مثله فى معجميه والحاكم ورواه الترمذى بلفظ مقارب وقال صحيح حسن غريب .

وظهرت إكراماً للجن فى هدايتهم به ومتابعتهم له صلى الله عليه وسلم وفى توسعة أرزاقهم كما روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يحمل مع النبى صلى الله عليه وسلم إداوة لوضوئه وحاجته فبينما هو يتبعه بها فقال من هذا فقال أنا أبو هريرة فقال أبغنى أحجاراً استنفض بها ولا تأتنى بعظم ولا بروثة فأتيته بأحجار أحملها فى طرف ثوبى حتى وضعت إلى جنبه ثم انصرفت حتى إذا فرغ مشيت فقلت ما بال العظم والروثة قال هما من طعام الجن وأنه أتانى وفد جن نصيبين ونعم الجن فسألونى الزاد فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاماً .

ثم اختار الله حبيبه صلى الله عليه وسلم إلى جواره فاستمرت رحمة الله ببشريته ورسالته فهاهم الكفار لم يمسخوا ولم يخسف بهم ولم يستأصلوا ، وهاهى الهداية والتزكية والعلم والحكمة فى المؤمنين ولم يزل عزيزاً عليه ما أعنتهم ، ولم يزل بهم رءوفاً رحيما يحمد الله لخيرهم ويستغفره من شرهم ، وما زالت مغفرة الله لهم بسببه صلى الله عليه وسلم ، فكل فضائل الرسالة وخصوصياتها دائمة بدوام هذه الرسالة، ولا يمكن القول بأن رسالته صلى الله عليه وسلم انتهت بوفاته ، يؤيد ذلك ما ذكره القرطبى فى تفسيره عن أبى صالح عن على كرم الله وجهه قال : قدم علينا أعرابى بعد مادفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحثا على رأسه من ترابه فقال: قلت يارسول الله فسمعنا قولك ، ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك . . » الآية . وقد ظلمت نفسى وجئتك تستغفر لى . فنودى من القبر أنه قد غفر لك .

وما رواه ابن أبى شيبة عن مالك الدار وكان خازن عمر رضى الله عنه قال: أصاب الناس قحط فى زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم

الرجل فى المنام فقال ائت عمر فاقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون ؛ وقل له عليك الكيس الكيس ، فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر رضى الله عنه وقال: يا رب ما آلو إلا ماعجزت عنه (١) .

وعن أوس بن عبد الله قال قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت : انظروا قبر النبى صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لايكون بينه وبين السماء سقف ، قال : ففعلوا فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق (٢) . وعن عثمان ابن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان ابن عفان رضى الله عنه فى حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته فلقى ابن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ، ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبينا محمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك فيقضى حاجتى ! وتذكر حاجتك ، ورح حتى أروح معك ، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة ، فقال : ما حاجتك ؟ فذكر حاجته وقضاها له ، ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة . وقال : ما كان لك من حاجة فاذكرها ، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيراً ، ما كان

(١) قال الحافظ فى الفتح إسناده صحيح وأخرجه البيهقى فى الدلائل بإسناد صحيح .

(٢) رواه الدارمى فى باب ما أكرمه الله تعالى نبيه بعد موته من كتاب السنن وإسناده لا بأس به كما ذكره الحافظ الغمارى فى اتحاف الأذكياء .

ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حتى كلمته فى . فقال عثمان بن حنيف : والله ماكلمته ، ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير . . . وذكر الحديث السابق (١) .

وهكذا تستمر رحمة الله للعالمين بنورانيته صلى الله عليه وسلم وبروحانيته وببشريته فى الدنيا حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ثم تظهر فى الآخرة عكسية فيكرم الكفار ببشريته والمؤمنون بروحانيته وأهل الجنة جميعاً بنورانيته « كما بدأكم تعودون » .

يؤيد هذا حديث الشفاعة حيث يكون صلى الله عليه وسلم سبباً فى تعجيل الحساب للكفار لظنهم أن ما بعد الموقف ربما يكون أخف مما هم فيه ، ويكرم المؤمنون بشفاعته صلى الله عليه وسلم على اختلاف درجاتها ، وأهل الجنة بما يفاض عليهم من التجليات الإلهية التى جعله الله سبباً فى حصولها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال الجلال السيوطى وغيره : وله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ثمانى شفاعات أولها وأعظمها شفاعته صلى الله عليه وسلم فى تعجيل حساب الخلائق وإراحتهم من طول ذلك الموقف وهى مختصة به صلى الله عليه وسلم اه يعادلها اختصاصه بتأجيل العذاب عن الكفار فى الدنيا .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال : أنا سيد الناس يوم

(١) رواه الطبرانى فى معجميه وصححه وأقره الحافظان المنذرى والهيثمى

القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الناس الأولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام ، فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟

فيقول آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله . وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى نفسى نفسى ! إذهبوا إلى غيرى ، إذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض . وقد سماك الله عبداً شكوراً ، إشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه .

فيقول : إن ربى عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله . وأنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى . نفسى نفسى نفسى ، إذهبوا إلى غيرى . إذهبوا إلى إبراهيم . فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض إشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟

فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . وإنى كنت قد كذبت ثلاث كذبات ـ فذكرهن أبو حيان

فى الحديث ـ نفسى نفسى نفسى ! إذهبوا إلى غيرى إذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك . ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟

فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها ، نفسى نفسى نفسى ! ! إذهبوا إلى غيرى إذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكلمت الناس فى المهد صبياً اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولم يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً ، نفسى نفسى نفسى ! ! إذهبوا إلى غيرى ، إذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم ، فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ، فانطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى عز وجل ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم يقال : يا محمد إرفع رأسك ، سل تعط ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : أمتى يارب ! أمتى يارب ! ، فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال : والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى » اهـ .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ذكر الحديث إلى أن قال صلى الله

عليه وسلم : « فيقال : يا محمد إرفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : ربى أمتى أمتى ! ! فيقال : انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ، ثم أرجع إلى ربى فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً ، فيقال لى : يا محمد قل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يارب ، أمتى أمتى ! ! فيقال : انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود إلى ربى ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً فيقال لى : يا محمد : ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه واشفع تشفع فأقول : يارب أمتى أمتى ! ! فيقال لى : انطلق فمن كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من الإيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل » وذكر فى المرة الرابعة « فيقال لى : إرفع رأسك ، وقل يسمع لك ، واشفع تشفع ، وسل تعطه ، فأقول : يارب إئذن لى فيمن قال لا إله إلا الله ، قال : ليس ذلك إليك ، ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى ، لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله » ومن رواية قتادة عنه قال : فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة ، فأقول : يارب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن . أى من وجب عليه الخلود .

فانظر — رحمك الله — فخامة قدره صلى الله عليه وسلم وجلالة أمره ، وأن أكابر الرسل والأولياء لم يصلوا إلى هذه الرتبة التى هى مختصة به ، وهى ظهور رحمة الله بشفاعته العامة فى كل من ضمه المحشر .

مما قدمناه يثبت لك ما نعلم من هذه الرحمة ، فما بالك بالعوالم التى لانهاية

لها — والعالم كل موجود سوى الله وقد رحمها الله برسالته صلى الله عليه وسلم ، فما من شىء إلا وناله من هذه الرحمة نصيب وما يعقلها إلا العالمون .

ورفعنا لك ذكرك

إن الله سبحانه وتعالى واحد فى عظمته ، عظيم فى وحدانيته ، لاتحد فضله الحدود ولاتقيد عطاءه القيود ، فإذا تفضل فعلى قدر عظمته ، وإذا أنعم فعلى سعة رحمته فما بالك ومن رفع الله ذكره هو أحب خلقه إليه وأكرم مخلوقاته عليه قال تعالى :

« ورفعنا لك ذكرك » حيث جعلناك أول مذكور فى حضرتنا فبدأنا بخلقك عندما أردنا إيجاد عوالم الأرض والسماء .

« ورفعنا لك ذكرك » عندما كتبنا لا إله إلا الله محمد رسول الله على ساق العرش وأبواب الجنة والقباب والخيام يتلألأ نورها على أشد ما يكون من الضياء

« ورفعنا لك ذكرك » فيما أوجدناه من العوالم ومنها عالم الجن وجميع الملائكة فى مختلف الأنحاء .

« ورفعنا لك ذكرك » فى كل كتاب أنزلناه بما سبق من مظهر نبوتك على جميع الرسل والأنبياء .

« ورفعنا لك ذكرك » بأن جعلناك إمام الخلق وخاتم الرسل فلا تنسخ شريعتك ولا يعلو على اسمك اسم غيرك من الأسماء .

« ورفعنا لك ذكرك » فارتفعت به أصوات المؤذنين مدى الدهر مقروناً بإسمنا فى جميع الأوقات مخترقاً جميع الطبقات والأجواء .

« ورفعنا لك ذكرك » يوم القيامة عندما تخلى جميع الرسل عن الشفاعة — اعترافاً بأفضليتك — حتى لجأ الخلق إليك فسجدت وعلمناك عظيم الحمد وجميل الثناء .

« ورفعنا لك ذكرك » فى مقام القرب بأعلى درجات الجنان محفوفاً بما أفضنا عليك من ألوية الهيبة وما ألبسناك من حلل البهاء .

* * *

صلى عليك الله يا من أفاض عليك سبحانه عظيم فضله فرفع ذكرك وأرسلك رحمة للعالمين ، صلاة تليق بجلال عزته لعظيم جنابك وتتوارد بتوارد الفيض المديد والخلق الجديد من أعدائك وأحبابك وسلم عليك سلاماً يجارى هذه الصلاة فيضه وفضله كما أنت أهله يا سيدى يا رسول الله .

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً »

علمت بعض فضل الله على سيد الخلق وما علمت سوى الشذرات ، فالحقيقة أبهر ، ورأيت بعض رحمة الله به فى العالمين على وسع علم البشر . ولكن علم الله أقوى وأقهر ، ووقفت على أبواب منازل ارتفاع ذكره ، ولكن ماتوارى عن عقولنا أعلى وأكبر . فانظر إلى بعض ماأتحف الله به حبيبه من التعظيم واللطف وأسمى غايات المحبين .

* * *

ذكر القاضى عياض فى (الشفا) نقلا عن الفقيه القاضى :

يجب على المسلم المجاهد نفسه الرائض بزمام الشريعة خلقه ، أن يتأدب بآداب القرآن فى قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته ، فهو عنصر المعارف الحقيقية وروضة الآداب الدينية والدنيوية ، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة

ويستثير مافيها من الفوائد ، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب ، وآنس بالعفو قبل الذنب إن كان ثمة ذنب وذلك فى قوله تعالى « عفا الله عنك لم أذنت لهم » .

قال السمرقندى: ولو بدأ الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله « لم أذنت لهم » لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه ثم قال لم أذنت لهم ؟ اه . وهكذا فى كل ماورد فى مثل هذا الخطاب كقوله تعالى « ولولا أن ثبتناك . . الآية » وهذا منتهى المحبة وغاية العناية .

وقد خاطب الله جميع الأنبياء بأسمائهم فقال ياآدم . يانوح . ياإبراهيم . ياداود . يازكريا . يايحيى . ياموسى ياعيسى بن مريم . ولم يخاطبه صلى الله عليه وسلم إلا بقوله تعالى : يأيها الرسول يأيها النبى يأيها المزمل . يأيها المدثر . وفى ذلك مالا يتناهى من التعظيم والتقريب .

وقد أقسم الله جل جلاله بعظيم قدره صلى الله عليه وسلم فقال تعالى « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » قيل وبقائك وقيل وحياتك ياحمد ، وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : ما خلق الله تعالى وماذرأ ومابرأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره صلى الله عليه وسلم » وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف .

وقال تعالى « يايها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون » .

فتأمل يا أخى عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم عندما تجد نفسك تعمل أعمال البر وتنفذ أوامر الدين من عبادات ومعاملات ثم يحبط عملك ويخيب سعيك إذا ما رفعت صوتك على صوته صلى الله عليه وسلم أو جهرت له بالقول كجهرك لغيره من خلق أو تسيء الأدب وتؤذيه بأى وجه كان .

ونقل الحافظ الغمارى رضى الله عنه قول العلامة أبو عبد الله الحسنى فى شرح منظومة الأسماء الحسنى للهلالى : يجب علينا أن نعتقد أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرج من الدنيا حتى حصل له العلم بجميع المعلومات للحديث الصحيح « أوتيت علم كل شيء وتجلى لى كل شيء » وماورد مما يخالفه منسوخ بهذا ، أو به تظهر مزيته وفضيلته العلمية على سائر الأنبياء بعد اشتراكهم فى علم الغيب المستثنى لهم فى آية « فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » وقال فيها بعض المفسرين : يريد أو ولى ففيه حذف لأن الولى وارث لعلم النبوة اهـ .

ولحل إشكالات ماتعارض من الأحاديث أو ما تعارض منها مع الآيات نقول : إما أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم سكت عن أشياء أو ترك مايتعلق بتعظيم نفسه تواضعاً ، وإما أنه لم يكن يعلم ثم أعلمه الله بعد ذلك ، وعلى هذا يكون كل مايثبت الكمال له صلى الله عليه وسلم نافياً لما يعارضه وناسخاً له لأنه صلى الله عليه وسلم فى ترق دائم إلى الأكمل ، فمن هذه الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس : إن الله عنده علم الساعة . . . الآية » رواه البخارى .

وما جاء فى الصحيحين عن حذيفة قال : قام فينا رسول الله صلى الله

عليه وسلم مقاماً ماترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، وإنه ليكون منى الشيء قد كدت نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه » .

ونحوه قول عمر رضى الله عنه « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه » رواه البخارى .

وعن أبى زيد (عمرو بن أخطب) قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن ، فأعلمنا أحفظنا » رواه مسلم .

جاء فى تفسير المناوى لحديث « خمس لايعلمهن إلا الله . . . » الحديث مانصه : خمس لايعلمهن إلا الله على وجه الإحاطة والشمول كلياً وجزئياً فلا ينافيه إطلاع الله بعض خواصه على كثير من المغيبات حتى من هذه الخمس لأنها جزئيات معدودة . اهـ

وأخرج الطبرانى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد رفع لى الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ماهو كائن فيها إلى يوم القيامة كأنما أنظر إلى كفى هذه » .

وأخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر أن النبى صلى الله عليه وسلم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « مامن شيء لم أكن رأيته قبل إلا رأيته فى مقامى هذا حتى الجنة والنار » .

ومنها أن الله أمره فى القرآن أن يقول للكفار « وما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون » ثم أخبر بعد ذلك أن الله أطلعه على خصامهم ، ففى حديث ابن عباس ومعاذ وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « رأيت ربى فى أحسن صورة ، فقال : يا محمد . قلت لبيك ربى وسعديك . قال أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى يا رب . قال : فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها فى صدرى فتجلى لى كل شىء وعرفت » وذكر الحديث [1] .

وكما نهى عن تفضيله على موسى ويونس وإبراهيم عليهم السلام ، ثم أخبر أنه أفضل الأنبياء .

ورد من دعاه سيداً بأن السيد الله ، وليس فى ذلك ما يناقى سيادته صلى الله عليه وسلم ، ومن توهم أن سيادة الرسول صلى الله عليه وسلم مشابهة لسيادة المولى جل علاه ، فقد دل بذلك على جهله وضعف دينه وضياع يقينه ، وإلا فليمحوا من القرآن أسماءه صلى الله عليه وسلم التى منها رؤوف رحيم لأنها تشابه أسماء الله ، وهذا ما لا يقدرون عليه .

والأحاديث بثبوت سيادته صلى الله عليه وسلم متواترة ذكرها الحافظ السيد أحمد الغمارى فى كتابه « تشنيف الآذان » .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم « أنه سيد ولد آدم » كما رواه ابن الجوزى فى كتاب الوفا من حديث ميسرة : متى كنت نبياً ؟ ... فرأى اسمى فأخبره الله أنه

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ومسند أحمد وغيرهما بطرق متعددة وقال الحافظ الغمارى : حديث صحيح .

سيد ولدك » سبق ذكر هذا الحديث . والمراد به النوع الإنسانى فيشمل آدم عليه السلام أيضاً .

وقد روى البخارى فى حديث الشفاعة من رواية أبى هريرة رضى الله عنه « أنا سيد الناس يوم القيامة » أى وسيدهم فى الدنيا فمع أن الله سبحانه وتعالى المالك للدنيا فقد قال « مالك يوم الدين » أى بإقرار الجاحدين كذلك قال عليه الصلاة والسلام « أنا سيد الناس يوم القيامة » أى بإقرار المعاندين والمنازعين ، وقد ظهر والعياذ بالله من ينازع فى سيادته صلى الله عليه وسلم ويذكر اسمه الشريف مجرداً من لفظ السيادة مع أنه يضفى على نفسه ماراق له من ألقاب الإجلال والتعظيم .

قال سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : من لم ير ولاية الرسول عليه فى جميع الأحوال ويرى نفسه فى ملكه صلى الله عليه وسلم لا يذوق حلاوة سنته لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » الحديث ا هـ . وقال تعالى « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » وهذا يوجب تعظيمه بجميع أنواع التعظيم : لفظاً واقتداء ومحبة .

ألا يا محب المصطفى زد صبابة ... وضمخ لسان الذكر منك بطيبه

ولا تعبأن بالمبطلين فإنمـــا ... علامـة حب الله حب حبيبه

« وممظم النار من مستصغر الشرر » والشيطان عليه لعنة الله يجيد فتنة من طفىء نور قلبه وانقطعت صلته بمنبع النور والعرفان صلى الله عليه وسلم ، فيهون عليه أولا ترك سيادته صلى الله عليه وسلم بلسانه حتى تسقط حرمته من قلبه فيمتنع

عن تعظيمه صلى الله عليه وسلم ، والتعظيم سر المتابعة الكاملة لفظاً وحالا وخلقاً ، والمتابعة أساس محبة الله ، والمحبة أسمى المقامات وواسطتها متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم . ولولا الواسطة « متابعة المصطفى صلى الله عليه وسلم » لذهب الموسوط « محبة الله سبحانه وتعالى » فلا يمكن الاستغناء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانبذ يا أخى من هذا وصفه وابتعد كل البعد عمن هذا نعته وذرهم فى خوضهم يلعبون ، ولا تترك السيادة كلما ذكرت اسم الحبيب صلى الله عليه وسلم بعد أن ظهرت للعيان حكمتها « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » وما تركه الرسول صلى الله عليه وسلم من حقوقه أدباً وتواضعاً ، لا يصح أن نتركه نحن تنطعاً ، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه فهدى إلى معرفة حقوق العلماء وفضائل الأنبياء وخصوصيات سيد الخلق وإمام المرسلين .

والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم

أجمع العلماء وأئمة الفتوى على أن شاتم النبى صلى الله عليه وسلم المنتقص له كافر والوعيد جار عليه بعذاب الله وله وحكمه عند الأمة القتل ، وممن قال ذلك مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحق وهو مذهب الشافعى ، قال القاضى عياض فى الشفا : إعلم أن جميع من سب النبى صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصاً فى نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به أو شبهه بشىء على طريق السب له أو الازراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه والعيب له ، فهو ساب له ، والحكم فيه حكم الساب يقتل . ثم قال : وكذلك من لعنه أو دعى عليه أو تمنى مضرة له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على

طريق الذم ، أو عيث فى جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور ، أو عيره بشىء مما جرى من البلاء والمحنة عليه أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه اهـ .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال . إن أعمى كانت له أم ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تكثر الوقيعة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشتمه فقتلها الأعمى فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أشهد أن دمها هدر »[1] .

وممن عرضوا به وشبهوه بشىء على طريق السب له وممن عبثوا فى جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ، الذين شبهوا قبره صلى الله عليه وسلم بالصنم الأكبر وحرموا زيارة قبره الشريف ، ألا فليعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مما قاله فى خطبة الوداع : « ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى بلدكم هذا أبداً »[2] .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن رضى منهم بما دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات »[3] .

وفى الصحيحين من حديث جابر مرفوعاً « إن المدينة كالكير تنفى خبثها وتنصع طيبها » ومن الخبث عبادة الأصنام .

من هذا يتضح أن تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبره واحترام

---

(١) رواه أبو داود والنسائى والبيهقى وهذا لفظه .
(٢) رواه أحمد والترمذى وصححه من حديث عمرو بن الأحوص .
(٣) رواه الحاكم وصححه وأبو يعلى والبيهقى .

المسلمين له لا يدخله فى عداد الأصنام وعبادتها ليأس الشيطان من ذلك لا كما يدعى بعض المبتدعة الجاهلين .

وعن شداد بن أوس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أتخوف على أمتى الشرك قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك بعدك ؟ قال نعم ؛ أما أنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكن يراءون بأعمالهم » (١) .

ومن هذا الحديث نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزه أمته عن أن تتخذ من دون الله أوثاناً يعبدونها وأصناماً يذلون لها ، فما ذهب إليه الوهابيون ومن على شاكلتهم من أن أضرحة أولياء الله وآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم أوثان وأصنام خطأ لا نصيب له من الصحة . وفى الحديث : « ألا هلك المتنطعون » (٢) الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ولو تأملت تأمل الصادقين ونظرت نظرة المفكرين وعاشرت أو عاملت أولئك القوم الذين استباحوا لأنفسهم التهجم على مقامه صلى الله عليه وسلم ، والولوغ فى أعراض أهل بيته وأحبابه رضى الله عنهم زوراً وبهتاناً لوجدت أن الله قد سلبهم نور الإيمان وحلية المخلصين ، فلا تجد منهم إلا بعداً عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ولا تجد منهم رحمة ولا ليناً ، ولكن فظاظة فى اللفظ وغلظة فى القلب وجموداً فى العين ، قد عموا عن عيوبهم وصموا عن سماع الحق ، ونصبوا أنفسهم لاقتفاء زلات العباد يعدونها كأنهم على الورى بمسيطرين مع ما فيهم من حماقة جهلاء وغطرسة عمياء يدعى أجهلهم أنه

(١) رواه الإمام أحمد وصححه ابن ماجة .
(٢) المتنطعون : المتعمقون الغالون المتجاوزون الحدود فى أقوالهم وأفعالهم .

أحسن من أكابر علماء السلف الصالحين ، وينصب نفسه حكماً بغير قانون فيقبل ما وافق هواه وحزبيته ويضرب بغير ذلك عرض الحائط كما يقولون تركوا الفجور والموبقات والكبائر المهلكات المحرمات بحيث أهلها فى الأرض الفساد ، وسلطوا ألسنتهم على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقصونه ، ألا قطعت ألسنة لا تذكرك بالتعظيم والإجلال يا سيدى يا رسول الله — وتتبعوا كل ولى من أولياء الله بالذم والتجريح ، وما علموا أنهم يحاربون الله « والذين يحاربون الله ورسوله أولئك فى الأذلين » ولن يتبعهم إلا كل ظالم لنفسه ملأ الحرام جسمه وحجبت ظلمات الكبر والحسد قلبه وإن تجارتهم لفى بوار وكساد .

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً

جاء ذكر كلمة السراج فى القرآن الكريم فى وصف الشمس « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » وقال « وجعل الشمس سراجا » وجاءت فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

فالشمس هى حياة العوالم المحسوسة وأصل ضوئها ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو حياة الأرواح ومنبع استمدادها .

وكما أن الشمس إذا غربت انعكست أشعتها على القمر والنجوم المواجهة لها فأضاءتها واهتدى الناس بنورها « وعلامات وبالنجم هم يهتدون »

فكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم يمد أرواح المسلمين بنوره فى حياته ، فإذا ما نقل إلى الرفيق الأعلى انعكست أنواره على قلوب أحبابه وأتباعه المتوجهين إليه بالمحبة والتعظيم ، فأنارتها على قدر صفائها واستعدادها وتعلقها بحقيقته النورانية الشريفة ، فاستناروا واهتدى المسلمون بنورهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وقال ابن الفارض رضى الله عنه فى هذا المعنى : —

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهى شمس يديرها هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم

وقال سيدى ابن عطا الله السكندرى فى لطائف المنن : إعلم أن الأنوار الظاهرة فى أولياء الله إنما هى من إشراق أنوار النبوة عليهم ، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس وأنوار قلوب الأولياء كالأقمار ، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته إياها ، فإذا الشمس منيرة نهاراً ومضيئة ليلا لظهور نورها فى القمر الممدود منها فإذا هى لا غروب لها ، فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فالأولياء آيات الله يتلوها على عباده بإظهارهم واحداً بعد واحد ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق .

زيارة قبره الشريف ﷺ

علمت مما تقدم أن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم لجميع العوالم ، وعلمت أنها دائمة حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وعلمت آثار رحمة الله لخلقه ببركة من أرسله رحمة للعالمين : فى عالم النور وفى الدنيا والآخرة فلتكن على يقين بأن كل خصائص النبوة والرسالة دائمة بدوامها ، فالأثر ثابت بثبوت مؤثره ملازم له ، وكل خطاب ورد فى الكتاب والسنة موجهاً إلى الأمة فلنا ولكل من بعدنا نصيب من هذا الخطاب ، وكل ما أكرم الله به الأمة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو شامل لكل مخاطب به .

وأما من أراد أن يخرج نفسه من دائرة الخطاب الوارد فى الآيات والأحاديث — التى سنذكر بعضاً منها على سبيل المثال — فهو كما أراد لنفسه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » . فابلامه صلى الله عليه وسلم بكل ما نلقاه من المشقة والمكروه وحرصه علينا ورأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم تشمل كل مؤمن من أمة هذا الخطاب .

وقال تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فرفع العذاب عن الكفار من المسخ والخسف والاستئصال ما زال للآن دالا على انسحاب خصوصيته بعد إنتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وإذا استمر إكرام الله للكافرين به صلى الله عليه وسلم ، فمن باب أولى استمرار إكرام المؤمنين وزيادته .

وقال تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » . والخطاب للمؤمنين لأنه صلى الله عليه وسلم نهى عن أن يستغفر للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، وما دمنا فى دائرة خطاب « جاءوك » فلا بد من الذهاب إليه صلى الله عليه وسلم ، فأينا لم يظلم نفسه !!.

وإذا علمت أن الترتيب فى قوله تعالى « فأولئك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. » للأفضلية علمت أن مقام النبوة أرقى من مقام الصديقية ومقام الصديقية أرقى من مقام الشهادة وهكذا ، فإذا ثبتت للشهيد خصوصية كانت للصديق أثبت ، وهى للنبى أعلى وأمجد .

فانظر ما ثبت للشهداء من فضل فى قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » . فالنبى صلى الله عليه وسلم فى قبره حى يرزق : حياة أرقى من حياة الشهيد ، ورزقا أوسع وأعلى من رزق الشهيد على قدر تفاوت الدرجة وارتفاع المقام .

يؤيد ذلك مارواه أبو الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة وإن أحداً لن يصلى على إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها . قال : قلت بعد الموت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وقال صلى الله عليه وسلم « حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ووفاتى

(١) رواه ابن ماجه والطبرانى بإسناد جيد ، ورواه ابن المقرى من طريق آخر وزاد فى آخره من كلام النبى صلى الله عليه وسلم « فنبى الله حى يرزق » وروى أحمد وأبو داود

خير لكم تعرض على أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله وما رأيت من شر استغفرت الله لكم » .

قال الحافظ العراقى رضى الله عنه : رواه البزار بإسناد جوده الحافظ العراقى وصححه الحافظ الهيثمى والجلال السيوطى والشهاب القسطلانى ورواه اسماعيل بن اسحق القاضى فى كتاب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من حديث بكر بن عبد الله المزنى مرسلا بإسنادين صحح أحدهما الحافظ بن عبد الهادى المقدسى وله مع هذا طرق كثيرة ، وعرض الأعمال عام لجميع المسلمين إلا طائفة من العصاة المبتدعين سبق القضاء بنفوذ الوعيد فيهم لا تعرض أعمالهم عليه فإذا دعاهم يوم القيامة إلى حوضه قيل له لا تدرى ما أحدثوا بعدك فيقول سحقاً لمن بدل بعدى سحقاً لمن بدل بعدى كما جاء فى الصحيحين من طرق ، وبهذا يتفق الحديثان ولا يبقى بينهما تعارض البتة أما ترجيح أحدهما على الآخر مع إمكان الجمع فغير جائز لأنه إلغاء لأحد الدليلين لغير مقتض وهو حرام كما نص عليه العلماء اهـ .

قلت : يؤيد ذلك ما جاء فى البخارى عن ابن عباس فى آخر الحديث « وإنه يجاء برجال من أمتى فيأخذ بهم ذات الشمال ، فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » (أنظر حياة الأرواح فى أواخر الكتاب) قال القاضى عياض فى الشفا : زيارة قبره صلى الله عليه وسلم سنة من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها . اهـ ، بل ذهب بعض المالكية وغيرهم إلى أنها واجبة كما حكاه الشوكانى فى نيل الأوطار ، والذى صرح

أنها واجبة ووجوب السنن المؤكدة . اهـ . وقالت الحنفية : إنها قريبة من الواجبات حكاه الشوكانى أيضاً ، وشد بلال المؤذن الرحلة من الشام إلى المدينة بقصد الزيارة كما رواه ابن عساكر بإسناد جيد .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليهبطن بن مريم حكما عادلا وإماماً مقسطاً وليسلكن فجاً حاجاً أو معتمراً وليأتين قبرى حتى يسلم على ولأردن عليه [1] » .

ويؤخذ من هذا الحديث طلب زيارة القبر الشريف والرحلة إليه للسلام على ساكنه صلى الله عليه وسلم .

وأما من احتج لتحريم الزيارة بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد » فذلك لقصر نظره ، لأن النهى فى الحديث منصب على شد الرحال بقصد زيادة أجر الصلاة لأن ما عدا هذه المساجد الثلاثة من مساجد الله متماثل فى الفضل يؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد فى مسنده باسناد حسن « لا ينبغى للمطى أن تشد رحالها إلا إلى مسجد تبتغى فيه الصلاة غير مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » وعلى ذلك فشد الرحال بقصد التجارة لا نهى عنه وكذلك بقصد زيارة أخ فى الله لاجتلاب محبة الله المذكورة فى الحديث القدسى « وجبت محبتى للمتحابين فى ، المتزاورين فى ، المتباذلين فى » بل مأمور بها ، والمحبة دائمة لا تتأثر بالحياة والموت ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » ، رواه البخارى ومسلم فزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة على قدر ما يترتب عليها من الفوائد .

(١) صححه الحاكم وسلمه الذهبي وروى أبو يعلى مثله عن أبي هريرة أيضاً .

والزيارة على نوعين : الأول زيارة أشباح وهى الإنتقال بالجسم إلى روضته الشريفة بالمدينة المنورة وهذه لعامة المسلمين والمحبين ، وهى مؤقتة بالمدة التى يمكنها الإنسان بجواره صلى الله عليه وسلم .

قال ابن فرحون المالكى فى مناسكه : اختلف أصحابنا فى محل الوقوف ـ عند الزيارة ـ للدعاء : ففى الشفاء قال مالك فى رواية ابن وهب : إذا سلم على النبى صلى الله عليه وسلم يقف للدعاء ووجهه للقبر الشريف لا إلى القبلة . وقد سأل الخليفة المنصور مالكا فقال : يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ؟ فقال مالك : ولم تصرف وجهك عنه ؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة الخ ..

والثانى : زيارة أرواح ، وهى اتصال روحى بروحه الطاهرة صلى الله عليه وسلم وتبدأ بنية استحضار القلب فى حضرته صلى الله عليه وسلم وتزداد وتدوم بازدياد صفاء الروح ورقيها ، والموفقون من أفراد الأمة يشاهدونه صلى الله عليه وسلم ويسمعون كلامه ويرون نوره ساريا فى الوجود ، ويرون كل خير واصلا إليهم عن طريقه لا يرتابون فى ذلك لأنهم رأوه عياناً ، حققنا الله بما حققهم حتى تزداد معرفة لقدر هذا النبى الكريم والرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

أصول الدين

(١) كتاب الله . (٢) سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . (٣) إجماع المسلمين ، لأنه لابد ينتهى إلى دليل من الكتاب والسنة . (٤) القياس .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع من حديث ابن عباس رضى الله عنهما « أيها الناس إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لم تضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه » أخرجه الحاكم فى صحيحه .

فلا يصح للانسان أن يحتج بالكتاب ويترك السنة كما ظهر من بعض المبتدعة الزنادقة الذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض فإنهم خرجوا عن إجماع المسلمين ولازوا السنة وناقلها وأعرضوا عنها . . والله سبحانه وتعالى مدح رسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » وزكى قلبه « ما كذب الفؤاد ما رأى » وزكى بصره « ما زاغ البصر وما طغى » وذلك فى أرقى مقامات القرب ، وقال تعالى : « وما ينطق عن الهوى » وأخبر بأن من لم يؤمن بما ينطق به رسوله صلى الله عليه وسلم من شرائع وأحكام يكون خارجاً عن الإيمان فقال تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » وقال سبحانه وتعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

قال البيضاوى فى تفسيره : روى أنه عليه الصلاة والسلام قال : من أحبنى فقد أحب الله ومن أطاعنى فقد أطاع الله ، فقال المنافقون : لقد قارف

الشرك وهو ينهى عنه ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً فنزلت . اهـ .

وكذلك قال تعالى « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى » وقال « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » أى القرآن ومثله السنة التى لم ينطق بها القرآن .

روى أبو يعلى فى مسنده عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عسى أن يكذبنى رجل منكم وهو متكىء على أريكته يبلغه الحديث عنى فيقول ما قال رسول الله هذا ، دع هذا وهات ما فى القرآن » .

وقد انعقد إجماع الأئمة والعلماء على العمل بالسنة المطهرة والاحتجاج بها فى أصول الدين وفروعه ، ولا يتم الإسلام إلا بالاحتكام إليها والاستسلام لها ولسيدى جلال الدين السيوطى رسالة سماها « مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة » فليرجع إليها من أراد المزيد .

وقد أنزل الله القرآن وطلب من العباد أن يتدبروه بعقولهم فقال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول (فى وجوده) وإلى أولى الأمر منهم (بعد وفاته لأنهم نهوا عن أن يقدموا بين يدى الله ورسوله) لعلمه الذين يستنبطونه منهم (الأئمة المجتهدون بعد توفر شروط الاجتهاد فيهم) ولولا فضل الله عليكم ورحمته (بأن هداكم للعلم الخالص) لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » .

والقرآن الكريم يجمع فى نفسه الثبات الزمنى فلا يتغير ولا يتبدل على ما يمتد الزمن ويتغير ثم يجمع إلى ذلك لكل جيل قوة التأويل فى معانيه الحادثة الصحيحة وقوة التكوين فى آدابه الصالحة القوية كأنه ليس من زمن مضى ، ولا كان لأمة سلفت ولا هو لتاريخ وقع وانقطع .

روى البخارى عن جبير بن مطعم قال « أتت النبى صلى الله عليه وسلم امرأة فكلمته فى شىء فأمرها أن ترجع إليه ، قالت يا رسول الله إن جئت ولم أجدك كأنها تريد الموت قال : إن لم تجدينى فأت أبا بكر » فدلها صلى الله عليه وسلم على أن تأتى وارثه وخليفته وولى أمر المسلمين بعده .

وعن أبى نجيح العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقلنا يا رسول الله : كأنها موعظة مودع فأوصنا . قال : « أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجز وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح .

فسنة الخلفاء الراشدين وإجماع أئمة المسلمين هو سبيل المؤمنين . قال تعالى « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

« لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر قال ما خلقت خلقاً أحب إلى منك بك آخذ وبك أعطى » رواه عبد الله بن أحمد عن الحسن مرسلا والطبرانى عن أبى هريرة وأبى أمامة .

وقال علماء النفس إن ذكاء العقل قسمان : ذكاء وهبى وهو ما خلقه الله فى العبد إيجاداً ، وذكاء كسبى وهو ما يكتسبه العبد بالتعلم والتجارب اجتهاداً ، فإذا أخذ الله ما وهب (العقل) سقط ما وجب (التكليف) .

قال الإمام أبو بكر المروزى :

الناس فى الدين على قسمين : مجتهد ومقلد ، والمجتهدون مختصون بالعلم وعلم الدين يتعلق بالكتاب والسنة واللسان العربى الذى ورد به فمن كان يعلم الكتاب والسنة وحكم ألفاظهما ومعرفة الثابت من أحكامهما والمنتقل من الثبوت بنسخ وغيره والمتقدم والمؤخر صح اجتهاده ، وأن يقلده من لم يبلغ درجته ، وفرض على من ليس بمجتهد أن يسأل ويقلد وهذا لا خلاف فيه ، وقال أيضاً :

أجمعت العلماء قاطبة على أنه لا يجوز لأحد أن يكون إماماً فى الدين والمذهب المستقيم حتى يكون جامعاً هذه الخصال وهى : أن يكون حافظاً للغات العرب واختلافها ومعانى أشعارها وأصنافها واختلاف العلماء والفقهاء ويكون عالماً فقيهاً وحافظاً للإعراب وأنواعه والاختلاف ، عالماً بكتاب الله حافظاً له ولاختلاف قراءته واختلاف القراء فيها ، عالماً بتفسيره ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وقصصه ، عالماً بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ممزاً بين صحيحها وسقيمها ومتصلها ومنقطعها ومراسيلها ومسانيدها ومشاهيرها وأحاديث الصحابة موقوفها ومسندها ، ثم يكون ورعاً ديناً صائناً لنفسه ، صدوقاً ثقة يبنى مذهبه ودينه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا جمع هذه الخصال حينئذ يجوز أن يكون إماماً وجاز أن يقلد ويجتهد فى دينه وفتاويه ،

وإذا لم يكن جامعاً لهذه الخصال أو أخل بواحدة منها كان ناقصاً ولم يجز أن يكون إماماً وأن يقلده الناس . اهـ .

وقال ابن القيم فى أعلام الموقعين : لا يجوز لأحد أن يأخذ من الكتاب والسنة ما لم يجتمع فيه شروط الاجتهاد ومن جميع العلوم .

قال أحمد بن المنادى : سأل رجل أحمد بن حنبل إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث هل يكون فقيهاً ؟ قال لا . قال فمائتى ألف حديث ؟ قال لا . قال فثلاثمائة ألف حديث ؟ قال لا . قال فأربعمائة قال نعم . قال أبو الحسين : فسألت جدى كم كان يحفظ أحمد ؟ قال : أجاب عن ستمائة ألف حديث . قال أبو إسحق لما جلست فى جامع المنصور للفتيا ذكرت هذه المسألة فقال لى رجل فأنت تحفظ هذا المقدار حتى تفتى الناس ؟ قلت لا إنما أفتى بقول من يحفظ هذا المقدار . اهـ .

وقد ذكرت هذا قاعدة يرجع إليها فيما نذكره ، فإن اليوم ابتلى الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة ، ويستنبط من علومهما ولا يبالى من خالفه وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه ومن خالفه فهو عنده كافر . هذا وهو لم يكن فيه خصلة واحدة من خصال أهل الاجتهاد ، ولكن لفساد الزمن وظلمة القلوب وانطماس البصائر وظهور الفتن ؛ فقد راج كلامه عند كثير من الجهال ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون .

العلماء ورثة الأنبياء

والأنبياء لا يورثون ديناراً ولا درهما وإنما يورثون العلم .

والعلماء ثلاثة : عالم بالله يخشى الله ليس عالماً بأمر الله « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » وعالم بالله يخشى الله عالم بأمر الله وهو الأكمل « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . وعالم بأمر الله لا يخشى الله وهم العلماء الفاسقون وهؤلاء كالشمعة تحرق نفسها لتنير لغيرها ويشملهم قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

وقد جاء فى تفسير قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وهم أمتك « فمنهم ظالم لنفسه » بأن ورث العلم وقصر ولم يخلص فى العمل فورث عن النبى صلى الله عليه وسلم علماً فقط « ومنهم مقتصد » بأن ورث العلم وعمل بما علم « ومنهم سابق بالخيرات » بأن ورث العلم والعمل وأخلص وتخلق — على قدر وسعه — بأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقيل « ظالم لنفسه » بأن عبد الله بجوارحه إسلاما ، « ومقتصد » بأن عبد الله بجوارحه وقلبه إيماناً « وسابق بالخيرات » بأن عبد الله بجوارحه وقلبه وروحه إحساناً . . . « أولئك يدخلون الجنة » أى ثلاثتهم ، وقال سيدى أبو الحسن الشاذلى : سابقنا سابق ومقتصدنا لاحق وظالمنا مغفور له .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » أى لا يأتون بشرع جديد وإنما يأتون مقررين ومؤكدين وآمرين ومستنبطين

من الكتاب والسنة مايصلح أحوال الناس فى أزمنتهم ، والراسخون فى العلم منهم كالأطباء الماهرين وأدويتهم تستخرج من صيدلية الكتاب والسنة فكلما ظهر داء فى الدين أو مرض فى القلب استنبط العلماء العارفون بأنوارهم من أحكام الدين وأوامره ما يصلح الدين ويشفى القلوب .

« وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يفسر من القرآن إلا قليلا جداً ، وهذا وحده يجعل كل منصف يقول : أشهد أن محمداً رسول الله إذ لو كان صلى الله عليه وسلم فسر للعرب بما يحتمله زمنهم وتطيقه أفهامهم لجمد القرآن جموداً تهدمه عليه الأزمنة والعصور بآلاتها ووسائلها فإن كلام الرسول نص قاطع ، ولكنه ترك تاريخ الإنسانية يفسر كتاب الإنسانية فتأمل حكمة السكوت فهى إعجاز لايكابر فيه إلا من قلع ضحه من رأسه » إعجاز القرآن للرافعى .

فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » رواه البخارى .

وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة بأنواع العلوم : فاختص زيد بن ثابت بالفرائض ومعاذاً بعلم الحلال والحرام ، وأبياً وابن مسعود بعلم القرآن ، وحذيفة بعلم أحوال المنافقين وكشف أسرارهم ، وأبا هريرة بجرابين من العلم بث أحدهما ولم يبث الآخر مخافة القتل كما فى صحيح البخارى ، وعلياً بعلم القضاء وبعلوم أخرى وسماه باب مدينة العلم وهكذا كل صحابى له من رسول الله صلى الله عليه وسلم باب من العلم أو أبواب على قدر استعداده .

وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع جلالة قدره ومنزلته يقول لحذيفة رضى الله عنه : « ناشدتك الله هل ترى فى أمارة من أمارات النفاق » فانظر كيف يسأل أمير المؤمنين العالم بأحوال المنافقين لتخصصه فيه .

ونحن فى أمورنا الدنيوية لانسأل إلا من نعتقد فيهم تمام العلم فى الناحية التى نريد أن نستفسر عنها ، فنسأل فى الزراعة علماءها وفى الصناعة أهل فنها ، وإذا مرض الإنسان بصدره مثلا فإنه لايعرض نفسه على جراح أو مولد لأنه يعتقد أنهما لن ينفعاه لعدم اختصاصهما وهكذا .

فإذا كان هذا فى أمور الدنيا التى لاتزن عند الله جناح بعوضة فأحرى بنا أن نسأل عن أمور ديننا العلماء الورعين ونفضل منهم الراسخين فيما نريد

السؤال عنه : فنسأل الفقهاء عن الفرائض والنوافل والمستحبات والمندوبات والمكروه والحرام فى العبادات والمعاملات ، ونسأل المفسرين فى أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وأوجه التفاسير ، ونسأل الحفاظ المحدثين عن صحيح الأحاديث وحسنها ، ومسندها ، وضعيفها ، وكذلك نسأل أهل التربية والنور من العلماء العارفين عن أدوية ما فى قلوبنا من أمراض وما نعمله من الوارد فى الكتاب والسنة للشفاء والعلاج .

فعلى العبد الذى يريد ربه ويرجو إصلاح قلبه ويخاف على دينه أن يستعمل عقله الذى أنعم الله به عليه فى اختيار من يسأله من العلماء المتخصصين فيما يعن له من أمور دينه ، وأن يختار من الجلساء أصلحهم ، ويصحب من يدله على مولاه ، ومن يزداد بمعاشرته تقرباً إلى الله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .

كل بدعة ضلالة

البدعة فى أصل اللغة : الأمر المخترع الذى لم يسبق له مثال سواء أكان الأمر حسناً أم قبيحاً .

فمن البدع العمل الذى يخترع على وجه يخالف نصاً من نصوص الدين أو أصلا من أصوله وهذا النوع هو الذى خصه النبى صلى الله عليه وسلم باسم البدعة فقال « كل بدعة ضلالة » والتأويل الصحيح يخرج عن مسمى البدعة لأنه يستند على مثال سبق وهو النص .

وقال رسول الله صلى عليه وسلم « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وما ليس منه أى الذى لا ينطبق على روح الدين فهو باطل لا يقبل وليس معناه البقاء على الحال السابقة فإن هذا خلاف سنة الله فى خلقه من التطور وإن الثبات لا يكون إلا على ما يتعلق بالأصول والفرائض وأما الفروع والحوائج والشئون فيقبل منها كل ما لا يضر بالدين أو لا يمس المسلمين بسوء أو لا يأتيهم من جهته أذى ولو بعد زمن طويل ، فالغاية الحقيقية من أمره صلى الله عليه وسلم إتباع كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم والنظر لمصلحة المسلمين والباطل المردود هو كل ما خالف المشروع والمأثور أو ينجم عنه أذى يعود على المسلمين .

وعلى هذا يكون رأى من قال ليس هناك بدعة حسنة وبدعة سيئة — كما قال الإمام مالك — حيث أن كلمة بدعة هى ما استحدث على غير مثال وشر الأمور محدثاتها ، وإنما هناك بدعى وسنى ، فالبدعى هو من يأتى فى الدين بأمور تخالف النصوص والمعقول وينتج عنها ضرر المسلمين .

والسنى هو من يستند فى عمله إلى نص من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أو تأويل لكتاب الله وسنة رسوله الكريم على شرط أن يكون التأويل صحيحاً وهو أن يصدقه العقل وألا يعارض بنقل ويترتب عليه حصول النفع للمسلمين .

ويؤيد هذا ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جرير بن عبد الله قال صلى الله عليه وسلم « من سن فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء » .

فإذا تعددت التأويلات فى النص الواحد وكانت كلها صحيحة على الشرط المتقدم سلم كل متأول لصاحبه وجهة رأيه كما كان يفعل الأئمة المهديون فقد سلم الشافعى للحنفى والحنفى للمالكى وهكذا ، لأن اختلاف الأحكام ليس لتناقض فيها وإنما لاختلاف الأحوال فى الحكمة والمصلحة والمحرم هو تعصب كل متأول لرأيه لأن ذلك يوجد الفتن التى ينشأ عنها ضعف كلمة المسلمين لما يوجده التعصب من العداوة والاختلاف .

وكان الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم جميعاً وأئمة أهل العلم لا يلزمون أحداً بأن يأخذ بأقوالهم ، ولما عزم الرشيد بحمل الناس على الأخذ بموطأ الإمام مالك رضى الله عنه ، لم يوافقه الإمام على عزمه ومنعه من تنفيذه ، فلا إلزام إلا لرأى الأنبياء لتحققهم بعصمة الله لهم .

وقد اختلف الصحابة فى تفسير الحين ، فقال أحدهم : الحين أربعون

سنة لقوله تعالى « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » وقال آخر : الحين ستة لقوله تعالى « تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » ، وقال ثالث الحين هو اليوم والليلة لقوله تعالى « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » .

روى البخارى : عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رجلا قرأ وسمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها فجئت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فعرفت فى وجهه الكراهية ، وقال كلاكما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

الفرقة الناجية

قال تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » وقال « وكذلك ننج المؤمنين » فغير سبيل المؤمنين هى ما نهت الآية عن اتباعها فى قوله تعالى « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » وهو ما عليه جماعة المسلمين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » رواه البخارى ، وفى صحيح مسلم « ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى قيام الساعة » .

وعن معاوية بن أبى سفيان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم ويعطى الله ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة أو حتى يأتى أمر الله » رواه البخارى . وفى الحديث « عليكم بالسواد الأعظم فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » وفى حديث آخر « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحمل هذا العلم من خلق عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين [1] .

فالفرقة الناجية : هم السواد الأعظم من المسلمين الذين لا يزالون عاكفين على الحق لا يضرهم من ناوأهم إلى قيام الساعة ، وهم أهل السنة والجماعة الذين يأخذون دينهم من الكتاب والسنة والإجماع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه إلى آخر الدهر — جعلنا الله منهم — وهم الذين ينفون عن الدين تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، والسواد الأعظم من الأمة من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة كبناء ثابت وماسقط منهم فهو خارج عليهم ، وكل من خرج عليهم أو اعتزلهم أو عمل على أن تشيع الفتنة بين صفوفهم أو تسبب فى تفريق كلمتهم وتشتيت شملهم فليس منهم بل من الخوارج الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

(١) رواه البيهقى وابن عدى وغيرهم ؛ وقال ابن القيم روى هذا الحديث من وجوه يعضد بعضها بعضا .

الخوارج وأشياعهم

روى البخارى فى صحيحه ، وكان ابن عمر يراهم — أى الخوارج — شرار خلق الله وقال : إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها فى المسلمين .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم فقال يا رسول الله أعدل ، فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل فقال : عمر يا رسول الله إيذن لى فيه فأضرب عنقه فقال دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شىء قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر ويخرجون على حين فرقة من الناس . .الحديث .

وفى رواية « قال إن من ضئضىء هذا أو فى عقب هذا قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » رواه البخارى .

وعن على رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

سيخرج قوم فى آخر الزمان حداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية ولا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة . » رواه البخارى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان رجل على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يغزو معنا فإذا رجع وحط عن راحلته عمد إلى المسجد فجعل يصلى فيه فيطيل الصلاة حتى جعل بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أن له فضلا عليهم فمر يوماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد فى أصحابه فقال له بعض أصحابه : يا نبى الله هذا ذاك الرجل ، فإما أرسل إليه وإما جاء هو من قبل نفسه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال والذى نفسى بيده إن بين عينيه لسفعة من الشيطان ، فلما وقف على المجلس قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقلت حين وقفت على المجلس ليس فى القوم خير منى قال : نعم ، ثم انصرف فأتى ناحية من المسجد فخط خطاً برجله ثم صف كعبيه ثم قام فصلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيكم يقوم إلى هذا فيقتله فقام أبو بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقتلت الرجل ؟ قال وجدته يصلى فهبته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيكم يقتل هذا الرجل ؟ فقال عمر : أنا ، وأخذ السيف فوجده قائماً يصلى فرجع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : أقتلت الرجل ؟ قال : يا رسول الله وجدته يصلى فهبته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أيكم يقتل هذا الرجل ؟ فقال على : أنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت له إن أدركته ، فذهب على فلم يجـــده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن هـذا أول قرن خرج من أمتى لو قتلته

ما اختلف فى أمتى اثنان ، ثم قال إن بنى إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على إثنين وسبعين كلها فى النار إلا فرقة واحدة ، قالوا يا نبى الله من تلك الفرقة ؟ قال الجماعة (١) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ذكر النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم بارك لنا فى شامنا . اللهم بارك لنا فى يمننا ، قالوا وفى نجدنا قال : اللهم بارك لنا فى شامنا اللهم بارك لنا فى يمننا ، قالوا يا رسول الله وفى نجدنا فأظنه قال فى الثالثة : هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان » . رواه البخارى أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة .

فأول فرقة فارقت الجماعة الخوارج الذين خرجوا فى زمن سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكفروا عثمان وعلى ومعاوية ومن معهم واستحلوا دماءهم وزعموا أنهم أهل القرآن ولا يقبلون من السنة إلا ما وافق مذهبهم ومن خالفهم وخرج عن ديارهم فهو كافر ، ثم اعتزلوا المسلمين : الإمام ومن معه ثم خرجت بدعة القدرية فى آخر زمن الصحابة وهم قسمان :

الأول : زعم أن الله لم يقدر للعاصى على أهلها ، ولا هو يقدر ذلك ، ولا هو يهدى الضال ، ولا هو يقدر ذلك ، والمسلم عندهم هو الذى جعل نفسه مسلماً .

الثانى : زعم أن الله جبر الخلق على ما عملوا وأن الكفر والمعاصى فى

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسندة وللحديث طرق ذكرها ابن أبى شيبة فى مسنده والبيهقى فى دلائل النبوة كلهم عن أنس وذكره ابن أبى شيبة وأحمد بن منيع فى مسنديهما عن جابر أتبتها الحافظ السيوطى فى الباهر .

الخلق كالبياض والسواد فى خلق آدمى وجميع المعاصى عندهم تضاف إلى الله .

الفرقة الثالثة : المعتزلة الذين خرجوا فى زمن التابعين وقالوا بخلق القرآن ، وأنكروا شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالوا بخلود أهل المعاصى فى النار إلى غير ذلك من قبائحهم وفضائحهم التى نقلها أهل العلم عنهم .

ثم خرج بعد هؤلاء المرجئة الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل ، فمن أقر عندهم بالشهادتين فهو مؤمن كامل الإيمان ، وإن لم يصل لله ركعة ، ولا صام يوماً ، ولا أدى زكاة ماله ، ولا عمل شيئاً من أعمال الخير ، ويكون إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل وإسرافيل .

ثم حدث بعد ذلك الجهمية الفرعونية الذين يقولون ليس على العرش إله يعبد ، ولا لله فى الأرض من كلام ، ولا عرج بمحمد صلى الله عليه وسلم لربه ، وينكرون صفات الله تعالى التى أثبتها لنفسه وينكرون رؤية الله سبحانه وتعالى فى الآخرة إلى آخر أقوالهم وأفعالهم .

وجاء فى شرح حديث « اللهم بارك لنا فى شامنا . . » للشيخ سليمان ابن عبد الوهاب فى الرد على أخيه محمد بن عبد الوهاب النجدى إمام الوهابيين الذين كفروا المسلمين زوراً وبهتاناً ، قال ما ملخصه : إن النبى صلى الله عليه وسلم دعى للحجاز وأهله مراراً وأبى أن يدعو لأهل المشرق لما فيهم من الفتن خصوصاً نجد ، وذلك أن أول فتنة وقعت بعده عليه السلام وقعت فى نجد بلاد مسيلمة الكذاب التى أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن فيها الفتن ، ومنها يطلع قرن الشيطان ، وامتنع عن الدعاء لها ، ثم أقام الحجة على أخيه بأنه من الفتن التى ذكرها رسول الله عليه السلام وأنه هو وأتباعه من الخوارج

الذين يخرجون فى آخر الزمان حداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لايجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ؛ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يؤخذ من الأحاديث والآثار السابقة أن صفات الخوارج البارزة فيهم الشائعة فى أتباعهم والتى تفرعت منها مبادىء بدعهم وخطأ عقائدهم وأفعالهم :

أولا : أنهم انطلقوا إلى آيات فى القرآن نزلت فى المشركين فجعلوها فى المسلمين ، ولم يعرفوا معنى العبادة ، ولم يميزوا بين الدعاء والنداء ، فكفروا جميع المسلمين وأخرجوهم من الدين على قدر ما تمليه عليهم عقولهم المحجوبة وبصائرهم المطموسة ، وقالو كل دعاء عبادة وغفلوا أو تغافلوا عن قول الله تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » وظاهر لعوام الناس أن الدعاء فى هذه الآية بمعنى النداء لا بمعنى العبادة .

ثانياً : إدعائهم أنهم خير الناس ولا يوجد فى الأمة خير منهم ، ولهم بذلك اقتداء بإبليس لعنه الله حيث أخذه الغرور فقال « أنا خير منه » .

ثالثاً : يهتمون بإصلاح ظواهر أبدانهم وقلوبهم خربة من الهدى لا يجاوز أيمانهم حناجرهم ولا تتأثر قلوبهم بنور هدايته .

رابعا : يحدثون فى الدين ما ليس منه مستندين فى عقائدهم ومبادئهم إلى أدلة وتأويلات لا تصدقها العقول — إلا عقولهم — وثبتت معارضتها بصحيح النقول وقد تسبب عنها ضرر المسلمين فعلا ، بإيجاد النزاع والخلاف بينهم ؛ وكل تأويل هذه صفته فهو مردود باطل .

خامساً : استباحوا حرمات الله ، وحقروا ما عظم الله ، وأنكروا فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم التى اختصه الله بها ، ولا يعرفون للعلماء ولا للأولياء حقوقا استكباراً وحسداً من عند أنفسهم ؛ ولو أدى ذلك إلى مخالفة أوامر الله ، وإمامهم فى ذلك إبليس لعنه الله حيث امتنع — حسداً واستكباراً — عن تنفيذ أمر الله حين أمره بالسجود لآدم عليه السلام فكان من الهالكين .

سادساً : رسموا لأنفسهم خطة وجعلوا لهم مبدأ لا يحيدون عنه فيتأولون القرآن بما يوافق هواهم ، ويكذبون الأحاديث الصحيحة التى تهدم مذهبهم ويخالفون إجماع الأمة متحدين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجمع أمتى على ضلالة » غافلين عن قول الله سبحانه وتعالى : « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

ومن هذه الفرق التى ذكرنا تشعبت جميع الفرق التى ذكرت السنه أنها فى النار إلا السواد الأعظم الذين لا يزالون من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى قيام الساعة .

فيامن تخاف على دينك ، وترجو وجه ربك ، إبحث فى نفسك ؛ وتقب فى قلبك ، فإن وجدت عندك شيئاً من هذه الصفات أو ما يترتب عليها فتخلص منه ، وارجع إلى مولاك ، وكن مع الجماعة ؛ فمن فارقها هلك .

جاء فى الحديث الصحيح « عليكم بالسواد الأعظم فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

لا يصح تكفير أهل القبلة بذنب أو بدعة

قال تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » . وقال « فإخوانكم فى الدين » قال ابن عباس رضى الله عنه : حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة ، وقال أيضا لا تكونوا كالخوارج يؤولون آيات القرآن فى أهل القبلة ، وإنما نزلت فى أهل الكتاب والمشركين فجهلوا علمها فسفكوا الدماء وانتهبوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلالة فعليكم بالعلم بما نزل فى القرآن .

جاء فى الصحيحين عن أسامة قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة ، فصبحنا القوم على مياههم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال لاإله إلا الله ، فكف عنه الأنصارى ، فطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لى يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم ، وفى رواية أنه قال « هلا شققت عن قلبه » ؟ .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لست أخاف على أمتى غوغاء تقتلهم ولا عدواً يجتاحهم ولكن أخاف على أمتى أئمة مضلين إن طاعوهم فتنوهم وإن عصوهم قتلوهم » رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة .

وعن شداد بن أوس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أتخوف على أمتى من الشرك قلت يارسول الله أتشرك أمتك بعدك ؟ قال نعم

أما أنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكن يراؤون بأعمالهم [1] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صل الله عليه وسلم « ثلاث من أصل الإيمان : الكف عمن قال لا إله إلا الله لا تكفره بذنب ولا تخرجه من الإسلام بعمل .. » الحديث . رواه أبو داود .

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كفوا عن أهل لا إله إلا الله لا تكفرهم بذنب فمن كفر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب » . رواه الطبرانى .

وفى الصحيح عن ابن عمر : « أيما رجل قال لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما » .

قال شيخ الإسلام تقى الدين السبكى : اعلم يا أخى وفقنى الله وإياك أن الاقدام على تكفير المؤمنين عسر جداً ، وكل من فى قلبه إيمان يستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن التكفير أمر هائل عظيم الخطر ، ومن كفر إنساناً فكأنه أخبر عن ذلك الإنسان بأن عاقبته فى الآخرة العقوبة الدائمة أبد الآبدين ... إلى أن قال : إنما يحصل ذلك — أى الحكم بكفر أهل البدع — لرجل جمع صحة الذهن ، ورياضة النفس حتى خرج عن الهوى والتعصب بالكلية مع امتلائه من علوم الشريعة ، والإطلاع على أسرارها ، ومنازع الأئمة المجتهدين فيها ، وهذا قل أن يوجد الآن عند شخص ، وإذا كان الإنسان يعجز عن تحرير اعتقاد

(١) رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه وابن ماجه .

نفسه فى عبارة فكيف يقدر على تحرير إعتقاد غيره فى عبارة ، فالأدب من كل مؤمن أن لا يكفر أحداً من أهل الأهواء والبدع لا سيما وغالب أهل الأهواء إنما هم عوام مقلدون بعضهم بعضا لا يعرفون دليلا يناقض إعتقادهم ، اللهم إلا أن يخالفوا النصوص الصريحة التى لا تحتمل التأويل عناداً وجحداً فللعلماء فى ذلك نظر .. اهـ

هذا ولم يثبت عن الصحابة أو التابعين من أهل السنة والجماعة أنهم كفروا الخوارج والفرق المبتدعة على الرغم مما ورد فى السنة من قتالهم أدباً مع قول الله سبحانه وتعالى « إن الذين يرمون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً .

مقامات الدين الإسلامى

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفه على فخذيه ، وقال: يامحمد أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال: صدقت ، فعجبنا له ، يسأله ويصدقه، قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرنى

عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . ثم انطلق ، فلبث ملياً ، فقال لى ياعمر : أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » رواه مسلم .

هذا الحديث الشريف يشتمل على شرح الدين كله وعلى بيان جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة ، فعلوم الشريعة كلها راجعة إليه ، ومنشعبة منه ، وهو جامع لها علماً ومعرفة وأدباً ولطفاً ، ومرجعه من القرآن والسنة كل آية أو حديث تضمن ذكر الإسلام أو الإيمان أو الإحسان . . فالدين الإسلامى يجمع ثلاث مقامات هى : الإسلام والإيمان والإحسان .

وسمى الدين بالإسلام : لكثرة الذين فى درجة الإسلام ، ولأن كل مؤمن مسلم ، وكل محسن مؤمن مسلم لا العكس ، فاشترك الجميع فى مقام الإسلام .

والمسلم الكامل لا بد أن يأخذ بالحظ الأوفى من هذه المقامات الثلاثة ولا ينتقل الإنسان إلى مقام الإيمان إلا بعد إتمام أعمال الإسلام ، ولا يترقى إلى مقام الإحسان إلا بعد إتقان عقود الإيمان ، فالترتيب فى الحديث تصاعدى ، وهذا للسالكين ، وأما لغيرهم فلله خرق العوائد .

والإسلام عبادة الدليل والبرهان ، والإيمان عبادة الذوق والوجدان ، والإحسان عبادة الشهود والعيان .

اختلاف الخطاب

باختلاف درجات المخاطبين

قال تعالى « وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات » .

وقد تعددت درجات الخطاب ولهجاته فى القرآن الكريم باختلاف حالات المخاطبين وبيئاتهم ، فلما كان سكان مكة أهل شرك وعبادة أوثان وحب رياسة وسيادة وجود « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » كانت موضوعات السور المكية جلها فى أصول الإيمان الاعتقادية من الإلهيات والوحى والرسالة والبعث والجزاء ثم تدرج معهم فى أصول التشريع الإجمالية العامة والآداب والفضائل الأساسية .

وكان أهل المدينة خليطاً من المهاجرين والأنصار واليهود والمنافقين ، فكان القرآن الذى أنزل بالمدينة يخاطب كل هذه الطوائف ويجادلهم ، ويبطل حججهم ، ويشرع للمسلمين ما يصلحهم فى معاملاتهم وتجاراتهم وأحوالهم الشخصية . إلى غير ذلك .

ثم تدرج فى الأوامر بالانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، ومن الإجمال إلى التفصيل . روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها « إنما نزل أو ما نزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً . ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً » .

وكذلك اختلف الخطاب والتدرج باختلاف هممهم : فمن تعلقت همته بالدنيا جعل لهم من ثمرات تقواهم توسعة دنياهم ، ثم من ارتفعت همته عن الدنيا جعل مثوبته الجنان فى الآخرة والدنيا مضمونة ؛ ومن زهدوا فى الدنيا والآخرة أكرمهم بمعرفته فى الدنيا ، والنظر إلى وجهه الكريم فى الآخرة .

واختلف الخطاب تبعاً لاختلاف مقامات الدين من الإسلام والإيمان والإحسان ، وإن من نظر فى القرآن نظرة شاملة جامعة وجد صورة دقيقة للمنهج الذى سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم فى هدايته وداعيته ، وللتدرج الحكيم الذى اتخذه فى تشريعه .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال : « إنك تأتى أقواماً أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك ؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » رواه البخارى .

واختلاف وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم باختلاف حالات السائلين والمخاطبين كثيرة ؛ منها ما رواه البخارى عن سعد بن أبى وقاص قال : جاء النبى صلى الله عليه وسلم وأنا بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ، قال يرحم الله ابن عفراء ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت يارسول الله أوصى بمالى كله . قال لا . قلت فالشطر . قال لا . قلت فالثلث . قال الثلث والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون

الناس فى أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى فى امرأتك وعسى الله أن يرفعك فينتفع وبضر بك آخرون » . . ولم يكن له يومئذ إلا إبنه .

وقال صلى الله عليه وسلم لبلال رضى الله عنه « أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا » . وقال رجل : أوصنى . فقال له صلى الله عليه وسلم « استح من الله كما تستحى من رجل صالح فى قومك » وقال له آخر : أوصنى ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « لا تغضب » . وهكذا .

وقال صلى الله عليه وسلم « بادروا الأعمال سبعاً ؛ هل ينظر أحدكم إلا غنى مطغياً ؛ أو فقراً منسياً ؛ أو مرضاً مفسداً ؛ أو هرماً مفنداً ؛ أو موتاً مجهزاً ؛ أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » .

وهذا الحديث يقتضى إنهاض الهمم إلى معاملة الله والحث على المبادرة إلى طاعة الله ، ومسابقة العوارض ، والقواطع قبل ورودها . . . وجاءت أحاديث أخر آمرة للعباد بالاقتصاد فى الطاعة امثلا يطيعوا باعث الشعف فيحملوا أنفسهم فوق طاقتهم ؛ فيملوا الطاعة ويعرضوا عن الله ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « القصد القصد تبلغوا » وقال صلى الله عليه وسلم « أكلفوا من العمل ما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا » . وقال صلى اق عليه وسلم « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق . . » الحديث .

مما تقدم علمت أن التدرج فى الدعوة إلى الله من الأدنى إلى الأعلى ،

ومن الإجمال إلى التفصيل سنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فى توجيه العباد إلى الخير والكمال ، فتتعدد الأوامر ويختلف الخطاب باختلاف حالات المدعوين ؛ وهذا ما ينهجه أهل الحكمة فى الدعوة إلى الله ، ولا تكلف نفس إلا وسعها والوسع يزداد بازدياد رقى العباد ، فلكل مقام وسعه ؛ وعلى قدر الوسع يكون التكليف ، وهذا معنى التوغل فى الدين والرفق فى التوغل ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يمنع التوغل فى الدين ، لأن فى المنع إيقافاً للناس عن الترقى ؛ لكنه أمر بالرفق حتى لا يمل العبد فينكص على عقبيه بعد التوجه إلى الله « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

عوالم الإنسان

١ — الجسم والجوارح

الجسم هو المادة المحسوسة التى يتكون منها ظاهر الإنسان وهو ظاهر العبد وقد خلقه الله من طين الأرض ولذلك أسكنه فيها وهيأ له فيها كل مستلزماته من غذاء وهواء .

وقد خلق الله له الرزق اللازم لحفظه ونموه وجعل النوم له من الغذاء الذى يرتاح به ويستعيد به نشاطه .

وشرع الله له عبادة تليق به من الشهادتين والصلاة والصوم والزكاة والحج وجعل للحواس أحكاماً وحدوداً تحفظ لها السعادة إذا لم تتعداها .

فمن حكم الشهادتين طهارة اللسان والصلاة طهارة الأعضاء ، والصوم نقاؤها وتلطيف بشريتها ، والزكاة طهارة المادة التى يستمد منها الجسم حيويته وقوته ، والحج بأعماله طهارة اللسان والأعضاء ، وبإحرامه ومشقاته يتمم نقاءها وتلطيف بشريتها وبنفقاته يتمم طهارة المادة .

وأمر الله أهل هذا الحال بقوله تعالى : « اتقوا الله ما استطعتم » .

ومن قام بالتكاليف التى شرعها الدين للجوارح ووقف عند الحدود التى عينتها الشريعة ولم يتعداها يكون قد أتم مقام الإسلام الذى جاء فى الحديث : « الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » .

٢ — القلب والعقل

قال تعالى : « أم لهم قلوب لا يعقلون بها » .

القلب سلطان الجسم والعقل شعاعه ومظهره ، وقد خلق الله لكل منهما مثلا فى البدن هو جرم كل منهما الحسى الذى يظهر أثره فيه ، فمثل جرم القلب فى الصدر ، ومثل جرم العقل فى الرأس ، وأوجد فيهما استعداداً لتكييف ميول النفس والروح بما يليق وحالة الجسم ليسهل عليه تنفيذها فيها القوة المكيفة بين معنويات الروح وعوارفها ومحسوسات الجسم وجوارحه ، والقلب محل النيات ومستودع الإخلاص وضده والعقل له الحكم فى بيان الخير والشر ، والقلب محل الهوى المهيأ لجلب ما يحتاج الجسم إليه وينتفع به ودفع ما يضره فمتى خضع لأحكام العقل جلب ودفع بمقتضى الشرع وإذا خرج عن حكم العقل فلا يتقيد فى جلبه ودفعه بأحكام الشرع فتقع المخالفات وصار الكل تابعاً له .

وقد جعل الله لهما رزقاً ينمو كل منهما به ويزداد وهو العلم والحكمة ، والعلم والحكمة أساس التفكر فيما تقع عليه عيون العقل ، وهى الحواس الخمس فى البدن التى يميز بها العقل ظواهر المكونات فيصل بالقلب إلى بواطنها ومشاهدة حقائقها .

وخاطب الله أهل هذا المقام بقوله : « واتقونى يا أولى الألباب » ومن أتم تسخير القلب والعقل ومظهرهما فيما شرع الله لهما من تكليف وما أوضح لهما من سبل يكون قد أتم مقام الإيمان الذى جاء فى الحديث :

« الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

٣ — الروح[1]

الروح جوهر لطيف شفاف على هيئة الجسم مشتبك به وهو القوة المحركة له فبها يعقل ويسمع وينظر ويشم ويتحرك ، وقد عبر الله عنها فى القرآن بالروح وبالنفس على اختلاف درجاتها ، فقال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » . وقال عليه الصلاة والسلام « الأرواح

---

(١) فإن قيل كيف يخوضون فى الروح مع أن الآية دالة على عدم الخوض فيها حيث أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول : قل الروح من أمر ربى : فالجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه إنما أمر عليه الصلاة والسلام بترك الجواب تصديقاً لما فى كتب اليهود من أن الإمساك عن ذلك من علامات النبوة .

الثانى : أنه أجاب بقوله : « الروح من أمر ربى » أى من عالم الأمر وهو عالم الملكوت الغير مرئى وأما عالم الملك فهو المرئى ويسمى عالم الخلق قال تعالى : « ألا له الخلق والأمر » .

الثالث : أن المأمور بعدم الخوض فيه هو كنهها وحقيقتهما ولكن وصفها ومميزاتها فلا منع فيه ، وعليه قال المالكية : إن الروح هى جسم ذو صورة كصورة الجسد فى الشكل والهيئة ، وعن عبد الرحيم بن خالد المالكى : الروح ذو جسم ويدين ورجلين وعينين ورأس ونسل من الجسد سلا ، وقد نسبه البعض لمالك لاستناد أصحابه إليه فى ذلك وقال إمام الحرمين : إنها جسم لطيف شفاف مشتبك بالجسم كاشتباك الماء بالعود الأخضر فتكون سارية فى جميع البدن .

جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وقال تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » وقال : « إن النفس لأمارة بالسوء » وقال : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية » .

فإذا سخرت الإنسان فى الشر سميت نفساً وإذا سخرته فى الخير والكمال سميت روحاً ، واستمر إطلاق النفس عليها حتى فى كمالها ليكون الإنسان على الدوام حذراً من آفاتها وغوائلها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

وقد جعل الله رزقها وغذاءها نور الطاعات والأذكار فكلما كثرت أنوار العبادات قويت الروح وضعفت النفس وبالعكس فمن غلبته نفسه أوردته المهالك ، ومن أمته روحه سارت به فى مراقى الخير إلى مواطن النور حتى ترجع إلى أصلها الذى خلقها الله فيه « فى أحسن تقويم » وخاطب الله أهل هذا المقام بقوله : « اتقوا الله حق تقاته » .

فإذا عبد العبد ربه بروحه وجسمه على أكمل وجه فقد أحسن مقام الإحسان الذى ذكر فى الحديث : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

٤ — السر

هو القوة التى مزجت بين نور الروح السماوى وظلمة الجسم الأرضى وبين نار الجن ونور الملائكة وبين شر النفس وخير الروح وبين عقل الملائكة وشهوة الحيوان وبه كانت للروح معية الجسم غير المنظورة فهى

فيه وهى خارجة عنه وعوارفها صفاتها والجسم كونها ، والروح لها صفاتها المتعلقة بها وهى من امر الله ولها صفاتها المسيطرة على أسرار ملكوتها من عقل وقلب ، المتربعة على عرش ملكها من جسم وجوارح .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلق الله آدم على صورته » وفى رواية : « على صورة الرحمن » « ولله المثل الأعلى » .

وسبق أن قلنا أن الشهاب الخفاجى رضى الله عنه فسر البينية فى قوله صلى الله عليه وسلم « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » بأنها لا روح ولا جسد ، فتبين من هذا المعنى السامى أن الروح شىء وأن الجسم شىء ثانى وآدم شىء ثالث هو السر الذى استحق به آدم الخلافة .

ومن قام بحق خلافته على الوجه الذى أراده الله كان له عند الله المقام المحمود وغاية الحسنى وزيادة على أكمل مافى قوله : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وعلى خطر على قلب بشر » .

تعين الفرائض وتعدد النوافل

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه وإن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » رواه البخارى .

فأولياء الله هم الذين أدوا الفرائض حق الأداء وزادوا من النوافل وأكثروا لمولاهم خالص الإهداء « إن أولياؤه إلا المتقون » وأوامر الدين فى الجملة تنقسم إلى فرائض ونوافل :

ونجد أن الشارع قد فرض الفرائض لاحتياج جميع الخلق إليها لشمول فوائدها ، وتحقق ثمراتها للفرد وللمجتمعات على اختلاف درجاتها ، ولذلك كانت الأوامر فى الفرائض صريحة ملزمة لا تقبل التأويل ولا النقص ولا المزيد ، فعين أوقاتها ، وحدد حدودها ، وقدر مقدارها ونظم أعمالها وأمر بالتنفيذ وأجزل الثواب ، وشدد فى الوعيد وبين أليم العقاب « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » .

ولا غرو فإن الله سبحانه وتعالى أدرى بما يصلح عباده الذين خلقهم وعلم ما أودع فيهم من خصائص وقوى وميول وأهواء .

ثم نراه فى النوافل ترك للعبد اختياره بعد أن كثر أنواعها ودرجاتها وعدد كيفياتها وحالاتها ، فمن النوافل ما هو من صنف الفرائض كالصلاة والصوم والصدقة لإتمامها وإكمال ثوابها ، ومنها ما هو مؤقت ومنها ما هو مطلق وذلك ليتكلف كل إنسان ما يطيق ، ويعمل كل امرىء ما يتهيأ له وهو ميسور بحسب أوقاته وأعماله وميوله ، ثم رغبه فيها فوعده المقام المحمود ، وجعل جزاءه إذا ما أكثر وأخلص أثمن ما يشتاق إليه العبد وأغلاه ألا وهو محبة مولاه .

قال تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ؛ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » .

الإخلاص

قال تعالى: « قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين » وقال عز شأنه « ألا لله الدين الخالص » وقال جل جلاله « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » أخرجه رزين .

قال ابن عطاء الله « الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها » .

والإخلاص إفراد الحق سبحانه فى الطاعة بالقصد وهو أن يريد الإنسان بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شىء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح الخلق ، والمخلص من يكره أن يطلع الناس على حسناته كما يكره أن يطلعوا على سيئاته . وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه أشد شىء على النفس الإخلاص لأنها ليس لها فيه نصيب . وقال يوسف بن الحسين الرازى رضى الله عنه : أعز شىء فى الدنيا الإخلاص ، وكم اجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى فكأنه ينبت فيه على لون آخر . وقال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه « الإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق عن معاملة الخالق ، وأول الخلق النفس ، والإخلاص عند المحبين أن لا يعمل عملا لأجل النفس وإلا دخل عليه مطالبة العوض أو تشوف إلى حظ طبع ، والإخلاص عند الموحدين ، خروج الخلق عن النظر إليهم فى الأفعال وترك السكون والاستراحة بهم فى الأحوال .

ومما يعين على الإخلاص : استحضار أن ما سوى الله تعالى لا شىء بيده وأن كل شىء بيد الله تعالى . قال ابن عطاء الله السكندرى : « فما سوى الله تعالى عند أهل المعرفة لا يوصف بوجود ولا فقد ، إذ لا يوجد معه غيره لثبوت أحديته ولا فقد لغيره لأنه لا يفقد إلا ما وجد ، ولو انتهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان .

والإخلاص أساس قبول الأعمال حيث أن الرياء يفسدها ويحبط ثوابها لقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا يارسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال الرياء ، يقول الله تعالى لهم يوماً يجازى العباد بأعمالهم : إذهبوا إلى الذين كنتم تراءون لهم فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم خيراً »

ومن ستر من الناس ذنوبه وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية فقد جعله أهون الناظرين إليه وهذا من أمارات الرياء . عن عدى بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤمر يوم القيامة بناس إلى الجنة حتى إذا دنوا منها ونظروا إليها واستنشقوا ريحها وما أعد الله لأهلها نودوا أن أصرفوهم فلا نصيب لهم فيها ، قال . فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها . فيقولون : يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تريناما أريتنا من ثوابك ، وما أعددت لأوليائك كان أهون علينا . قال : ذلك أردت بكم ، كنتم إذا خلوتم بأنفسكم بارزتمونى بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراءون الناس غير ما تعطونى من قلوبكم ،

خفتم الناس ولم تخافونى وأجللتم الناس ولم تجلونى ؛ وركنتم إلى الناس ولم تركنوا إلى ، فاليوم أذيقكم أليم العذاب مع حرمانكم من الثواب » .

ومراتب الإخلاص ثلاثة : —

أدناها : أن يعبد العبد ربه لأجل أن يغدق عليه النعم ويسد عنه باب النقم وهذا إنما يعبد لحظ نفسه وإن كان حقاً ولكن لا يصح الوقوف معه .

وأوسطها : أن يعبد الإنسان ربه طمعاً فى جنته أو خوفاً من ناره ؛ ولا يصح للعبد الصادق أن يكون كالعبد السوء إن خاف عمل ؛ ولا كالأجير السوء إن إن لم يعط الأجر لم يعمل؛ وقد أوحى الله إلى بعض أنبياء بنى إسرائيل « يعبدنى عبادى طمعاً فى جنتى ومخافة من نارى ، ألم أكن أستحق العبادة لو لم أخلق جنة ولا ناراً ؟ » فلا يصح أن تقف همة العبد عند هذا الحد وألا تقنع إلا بالله .

وأعلى المراتب وأسماها : أن يقصد العبد بعمله وجه الله تعالى وحده وامتثال الأوامر قياماً بحق الربوبية واعترافا بالعبودية .

ليس لى بالجنان والنار حظ أنا لا أبتغى سواك بديلا

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثناء على بعض أصحابه وفى أنه لم يدفعه إلى عبادة الله ولم يطلق جوارحه فى الطاعة خوف نار ولا طمعاً فى جنة إنما دفعه إلى الطاعة مجرد التعظيم والإجلال « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » .

« مر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد وهنت أبدانهم وتغيرت ألوانهم من العبادة فقال لهم من أنتم ؟ فقالوا : نحن عباد الله تعالى فقال : ولأى شىء تعبدتم ؟ قالوا : خوفنا الله من ناره فخفنا منها ، فقال إن الله تعالى قد

أمنكم مما خفتم منه ، ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد منهم عبادة فقال : لأى شىء تعبدتم ؟ قالوا : شوقنا الله جنته . وما أعد فيها لأوليائه فنحن نرجوها بعبادتنا ؛ فقال إن الله أعطاكم مارجوتم ، ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون فقال : من أنتم ؟ قالوا نحن المحبون لله عز وجل لم نعبده خوفا من ناره ، ولا شوقا إلى جنته ولكن حباً له وتعظيما لجلاله . فقال : أنتم أولياء الله حقاً وقد أمرت أن أقيم معكم وأقام بين أظهرهم .

وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره عن موسى بن الصباح . قال : إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله ، فيقومون بين يديه ثلاثة أصناف ، فيؤتى برجل من الصنف الأول ، فيقول : عبدى لماذا عملت ؟ فيقول : يارب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها ، وحورها ونعيمها ، وما أعددت لأهل طاعتك فيها ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى شوقاً إليها فيقول : إنما عملت للجنة فادخلها ، ومن فضلى عليك أن أعتقك من النار ، فيدخلها هو ومن معه ، ثم يؤتى برجل من الصنف الثانى ، فيقول : عبدى لماذا عملت ؟ فيقول : يارب خلقت ناراً وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها وحمومها ، وما أعددت لأعدائك ، ولأهل معصيتك فيها ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى خوفاً منها ، فيقول : عبدى ، إنما عملت خوفاً من النار فإنى قد أعتقتك من النار ، ومن فضلى عليك أدخلك جنتى ، فيدخل هو ومن معه الجنة . ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث فيقول : عبدى لماذا عملت ؟ فيقول . ربى حباً لك ؛ وشوقاً إليك ، وعزتك لقد أسهرت ليلى وأظمأت نهارى شوقا إليك وحباً لك ؛ فيقول الله عبدى ، إنما عملت حبا لى ، وشوقا إلى ، فيتجلى له الرب . فيقول : ها أنا ، أنظر إلى ، ثم يقول : من فضلى عليك أن أعتقتك من النار وأبحتك جنتى ، وأزيرك ملائكتى ، وأسلم عليك بنفسى ، فيدخل هو ومن معه الجنة

الأدب

قال تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » وقال تعالى على لسان سيدنا ابراهيم عليه السلام « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين » فانظر كيف نسب الخلق والهداية والرزق والشفاء لله وأضاف المرض لنفسه تأدباً .

وقال تعالى حاكياً عن الخضر عليه السلام : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها » فقال أردت لأن الحاصل عيب ، ولما كان قتل الغلام منه ضرر وفائدة قال « فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً » فأبهم الضمير ، وأما الجدار فكل ما حصل فيه حسن ولذلك قال « فأراد ربك » إن فى ذلك لعبرة لحق العبد ألا ينسب إلى نفسه شيئاً من محامد الصفات ومحاسن الأعمال حقيقة وأدباً إذ لا أهلية فيه لذلك ، وأما مذام الصفات والأعمال ومساويها فمقتضى الأدب أن يضيف ذلك إلى نفسه ، وأن يعترف بأن ذلك من ظلمه وجهله ، قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : إذا عمل العبد حسنة وقال يارب أنت بفضلك استعملت ، وأنت أعنت ، وأنت سهلت شكر الله تعالى له ذلك وقال له : يا عبدى أنت أطعت ، وأنت تقربت ، وإذا نظر إلى نفسه وقال : أنا عملت وأنا أطعت وأنا تقربت أعرض الله تعالى عنه وقال : يا عبدى أنا وفقت وأنا أعنت وأنا سهلت ، وإذا عمل سيئة . وقال يارب : أنت قدرت . وأنت قضيت وأنت حكمت غضب المولى جلت قدرته عليه . وقال له : يا عبدى بل أنت أسأت ، وأنت جهلت ، وأنت عصيت ، وإذا قال : يارب أنا ظلمت نفسى وأنا أسأت وأنا جهلت أقبل المولى جلت

قدرته عليه وقال ياعبدى أنا قضيت وأنا قدرت وقد عفوت وحلمت وسترت » .

وقال بعض العلماء : حصن العمل ثلاثة . أولها أن يرى أن العمل من الله تعالى وبتوفيقه ليسد على نفسه باب العجب بعمله . والثانى أن يريد بالعمل رضا الله تعالى ليسد بذلك باب الهوى . والثالث أن يبتغى ثواب العمل من الله تعالى ليكسر بذلك الرياء والطمع . وذلك لأن الإنسان إذا علم أن الله هو الذى وفقه للعمل الصالح فإنه يشتغل بشكر ربه ولا يعجب بعمله . وإذا لم يقدم على العمل إلا إذا وثق من أن فيه لله رضا لايكون عاملا بهوى نفسه وإذا طلب ثواب العمل من الله تعالى لم يبال رضا الناس أو سخطهم ..

والأدب اسم جامع لحقائق الخيرات وأنواع المبرات ويختلف بإختلاف همم المتأدبين . فهو بالنسبة للمريدين رياضة النفوس بنور المتابعات وتأديب الجوارح بحفظ الحدود وترك الشبهات . وبالنسبة لأهل الحقائق العارفين ممن ترقت هممهم عن العالمين اشتغالهم بطهارة القلوب ومراعاة السرائر .

وقال بعض العارفين : « من لم يعرف ما لله عز وجل وما للخلق عليه فى نفسه من الحقوق التى لزمته ولم يتأدب مع الله ومع خلقه بأمره ونهيه كان من الأدب فى عزلة » .

ونحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم . والمراد أن الأدب القليل مع الحق تعالى وعموم الخلق أنفع من العلم الكثير المجرد عن الأدب المذكور ، فأدبك مع الله يستوجب منك القيام بحقوق الوالدين والإخوة والأقارب والجيران والعلماء والإخوان والزوجة والولد والحبيب

والعدو وأدبك مع الله يستوجب منك مراقبته فى مهنتك وتجارتك وصناعتك وحيواناتك وأموالك ، والمريد الصادق يؤدى لكل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه مع خلو قلبه من العلل الطاعنة فى الإخلاص ناظراً فى كل ذلك إلى طاعة مولاه على بساط القرب والمحبة .

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : أوقات العبد أربعة لا خامس لها : النعمة والبلية ، والطاعة والمعصية ولله عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه إذ هداه لها ووفقه للقيام بها . ومن كان وقته المعصية فسبيله الاستغفار والتوبة ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله . ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظُلم فغفر وظَلم فاستغفر ثم سكت فقالوا : يارسول الله ماذا ؟ فقال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » أى لهم الأمن فى الآخرة وهم مهتدون فى الدنيا .

قال سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه « من جهل المريد أن يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه . فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب البعاد . فقد يقطع المدد عنه من حيث لايشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد . وقد يقام مقام البعد وهو لايدرى . ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد » .

مجلسا العلم والذكر

أخرج البيهقى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين : أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه والآخر يتعلمون العلم ويعلمونه فقال « كلا المجلسين خير وأحدهما أفضل من الآخر » .

وفى رواية الطبرانى وابن عبد البر أن مجلس العلم أفضل ، وفى رواية قال لمن فى مجلس الذكر أنتم خير ، وقال لمن فى مجلس العلم وأنتم خير وجلس معهم .

فمن قائل بتفضيل مجلس العلم لجلوس النبى صلى الله عليه وسلم معهم .

ومن قائل بأن مجلس الذكر أفضل ولم يجلس النبى صلى الله عليه وسلم معهم لأن ذاكر الله بعيد عن الخطأ التشريعى ولأن الذكر يجلى القلوب وينيرها ومتى استنارت ملئت بالتقوى فتأخذ العلم عن الله « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » . إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » أى نوراً تفرقون به بين الحق والباطل وهو نور البصيرة الذى به تستبصر وقال تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » قال على كرم الله وجهه فى تفسيرها : ومن يتق الله يجعل له مخرجا من الفتن ونوراً من الظلم .

والذكر يبصر القلوب ويفتح أقفالها ويزيل رانها فتتهيأ لسماع الموعظة واتباعها « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . إذا قسى القلب لم تنفعه موعظة كالأرض إن سبخت لاينفع المطر

وأما مجلس العلم ففيه تقرر الأحكام ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو

العلم والمشرع فلا بد من اطمئنانه على ما يصدر من الأحكام وموافقته عليه لأنه معصوم لا ينطق عن الهوى .

ولما كان العلم هو أساس العمل ، وكل عمل على غير علم فلا فائدة فيه فلا بد للعبد من التعلم حتى يعمل على بينة .

والأكمل الجمع بين مجلسى العلم والذكر حيث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى كل خير ، لأن الذكر يهيىء القلوب والعلم يزكيها وبهما تصح الأعمال ، ومتى صحت الأعمال قبلت ، فهما يساعدان على الإخلاص ، وهو أثمن شيء يطلبه العباد الصادقون .

ما يتعلق بالعبد المتوجه إلى مولاه

العبد المتوجه إلى الله هو الذى أعرض عن سواه وأحبه وأراده وسمى عند العارفين « مريداً » .

واتفق العلماء عن أن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات ، وتصحيح البدايات : هو مقاومة الأمر على مشاهدة الإخلاص ، ومتابعة السنة وتعظيم النهى على مشاهدة الخوف ورعاية الحرمة ، والشفقة على العالم ببذل النصيحة ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت ، وكل سبب يفتن القلب ، على أن الناس فى هذا الشأن ثلاثة نفر :

الأول : رجل يعمل بين الخوف والرجاء شاخصاً إلى الحب مع صحبة الحياء . فهذا هو الذى يسمى المريد . قال تعالى « ويهدى إليه من ينيب »

الثانى : رجل مختطف من وادى التفرقة إلى وادى الجمع وهو الذى يقال له المراد . قال تعالى : « الله يجتبى إليه من يشاء » .

الثالث : وهو ما سوى الإثنين من كل مدع مفتون مخدوع .

وأوصاف العبد المتعلقة بالدين نوعان :

أحدها : ما يتعلق بظاهر العبد وجوارحه وهى الأعمال .

والثانى : ما يتعلق بباطنه وقلبه وهى العقود .

فأما ما يتعلق بظاهره وجوارحه فينقسم قسمين أحدها : ما وافق الأمر ويسمى طاعة . والثانى : ما خالفه ويسمى معصية .

وأما ما يتعلق بباطنه وقلبه فينقسم أيضاً قسمين : أحدها ما وافق الحقيقة ويسمى إيماناً وعلماً ، والثانى ما خالفها ويسمى نفاقاً وجهلا .

والنظر فيما يتعلق بظاهر العبد يسمى فى الاصطلاح تفقهاً ، ويبحث فيه علماء الأحكام ويسمى « الفقه وعلم الشريعة » .

والنظر فيما يتعلق بباطنه يسمى فى الاصطلاح تصوفاً ، ويقوم به علماء التربية والحكمة ويسمى « التصوف وعلم الحقيقة » .

ولابد للعبد الكامل من الفقه لتصحيح الأعمال ، ولابد له من التصوف ليتحقق له الإخلاص . فحقيقة بلا شريعة باطلة ، وشريعة بلا حقيقة عاطلة .

قال أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فى أول الرسالة « اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا أفضلية فوقها فقيل

لهم الصحابة ، ولما أدركهم أهل العصر الثانى سموا من صحب الصحابة التابعين ورأوا ذلك أشرف سمة .

ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين والزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدع وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعى أن فيهم زهاداً ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم من طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر هذا الإسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة » اهـ .
وقال ابن خلدون فى المقدمة بعد ما ترجم لعلم التصوف :

وهذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة — كالفقه وغيره — وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى ومابعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية » اهـ . فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله والتوحيد والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطائفة فى طريقتهم فمنهم من كتب فى أحكام الزهد والورع ومحاسبة النفس فى الأخذ والترك ، ومنهم من كتب فى آداب الطريق ، ومنهم من جمع بين ذلك كما هو مبين فى كتبهم ؛ وهذا العلم هو علم الوراثة المشار إليه بخبر « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

التصوف والصوفية

قال تعالى :« يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض . . »

وقال تعالى :« فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور»

وقال تعالى: « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

والتصوف علم شريف ، لشرف غايته ؛ وهى إصلاح بيت الرب فى العبد وهو القلب . والقلب فى الجسد كالملك ؛ والجوارح جنوده ورعيته ؛ ومن شأن الرعية طاعة الملك فيما يأمر به وينهى عنه .

علم التصوف علم ليس يدركه ... إلا أخو فطنة بالحق موصوف
وكيف يعرفه من ليس يشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

وعلم التصوف له حد ، وموضوع ، وفائدة .

فحده : علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس وصفاتها المذمومة .

قال الجنيد رضى الله عنه : التصوف استعمال كل خلق سنى وترك كل خلق دنى .

وقال أيضاً : التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به .

وقال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : التصوف تدريب النفس على العبودية ، وردها لأحكام الربوبية . وقيل هو التخلى عن الرذائل والتحلى بأنواع الفضائل ، وقيل حفظ الحواس ومراعاة الأنفاس للتحرز من الغفلات .

وقال سيدى العربى الدرقوى رضى الله عنه :

التصوف حفظ شرائع الدين وحسن الخلق مع المسلمين ، وسلب الإرادة لله رب العالمين . فحفظ الشرائع إسلام ، وحسن الخلق إيمان ، وسلب الإرادة إحسان ، وفى هذه المقامات اندرجت جميع المقامات والأحوال ، فمن حصل عليها جمع الخير كله ، ومن فاتته فاته الخير كله ، وقيل التصوف علم انقدح فى قلوب الأولياء حتى استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بهما ظهر له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها .

ومبناه : على التمسك بآداب الشريعة والتباعد عن الشبهات ، وترك الرخص والتأويلات .

وموضوعه : أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية :

فيتخلى العبد عن الصفات السيئة وهى كثيرة مثل الكبر والعجب والرياء والسمعة والحقد والحسد وحب الجاه والمال ، ويتفرع من هذه الأصول فروع خبيثة من العداوة والبغضاء والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وترك الثقة بمجىء الرزق وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق ، والشح والبخل وطول الأمل والأشر والبطر والغل والغش والمباهاة والتصنع والمداهنة والقسوة والفظاظة والغلظة والغفلة والجفاء والطيش والعجلة والحدة

والحمية وضيق الصدر وقلة الرحمة وقلة الحياء وترك القناعة وحب الرياسة وطلب العلو والانتصار للنفس إذا نالها الذل وذهاب ملك النفس إذا رد عليه قوله إلى غير ذلك من النعوت الذميمة والأخلاق اللئيمة ، خلانا الله عنها بحوله وقوته .

ثم يتحلى بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات من التواضع لله والخشوع بين يديه على الدوام ، والتعظيم لأمره والحفظ لحدوده والهيبة له والخوف منه والتذلل لربوبيته والإخلاص فى عبوديته ، والرضا بقضائه ورؤية المنة له عليه فى منعه وإعطائه ، ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة الصدر والحلم والاحتمال والصيانة والنزاهة والأمانة والثقة والعطف والتأنى والوقار والسخاء والجود والحياء والبشاشة والنصيحة وسلامة الصدر إلى غير ذلك من أخلاق الإيمان التى بها ينال العبد غاية الحسنى وزيادة . . خلانا الله بها بفضله ومنته .

وفائدته : إصلاح الإنسان ظاهراً وباطناً ، فالتضلع فى هذا العلم يقى صاحبه سوء الخاتمة ، ويحمله على التوبة والإنابة وسلوك ما يوجب الفوز والسعادة . وقال سيدى أبو الحسن الشاذلى من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر .

وسمى أصحاب هذا العلم بالصوفية . قال الشيخ عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى : وقيل الصوفى نسبة لأهل الصُّفَّة وهى الصفة وهى سقيفة اتخذها فقراء الصحابة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصل صوفى صفى — بتشديد الفاء — فأبدل أحد حرفى التضعيف ياءً . وقيل نسبة للصوف ولبسه زهداً فى الدنيا وتركا للتنعم

— لما ورد « اخشوشنوا فإن النعيم لايدوم » — وقيل إن الصوفى مشتق من الصفا ففيه قلب . اه .

وقيل الصوفى من لزم الصفا مع الحق والخلق الحسن مع الخلق وقال بعضهم:

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا ... وظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

وقال آخر :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ... ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خاشعاً لله مكتئباً ... على ذنوبك طول الدهر محزونا

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه ، ثم جعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره فهم الغياث الخلق والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق .

وقال صاحب التعرف مشيراً إلى هذه الطائفة : جعل الله فيهم صفوة وأخياراً ونجباء أبراراً ، سبقت لهم منه الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت أسرارهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم ، ونارت أعلامهم ، فهموا عن الله، وساروا إلى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم

وجالت حول العرش أسرارهم ، وحلت عند ذى العرش أخطارهم ، ولميث عماد دون العرش أبصارهم ، أجسام روحانيون ، فى الأرض سماويون ، مع الخلق ربانيون ، سكوت نظار ، غيب حضار ، ملوك تحت أطمار ، نزاع قبائل وأصحاب فضائل وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ، وأسرارهم صافية ، ونعوتهم خافية ، صفوة صوفية ، نورية صفية ، ودائع الله بين خليقته ، وصفوته فى بريته ، ووصاياه لنبيه ، وخباياه عند صفيه ، هم فى حياته أهل صفته ، وبعد وفاته خيار أمته . لم يزل يدعو الأول الثانى ، والسابق التالى ، بلسان فعله أغناه ذلك عن قوله . . . الخ .

وقال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام : قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التى لا تنهدم دنيا وأخرى وقعد غيرهم على الرسوم ، ومما يدلك على ذلك ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات ، فإنه فرع عن قربات الحق لهم ورضاه عنهم فلو كان العلم من غير عمل يرضى الحق تعالى كل الرضا لأجرى الكرامات على أيدى أصحابهم ولو لم يعملوا بعلمهم هيهات هيهات ! !

المتشبهة بالصوفية

قال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » وقال « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

قال القطب القسطلانى رضى الله عنه بعد أن ذكر أوصاف الصوفية الكاملين : « لكن تلك النعوت المعهوده تبدلت بضدها والأخلاق المحمودة عادت ذميمة عند عدها ، وجلهم بل أجلهم يدعى سلوك الطريق وما مشى على حدها ، فلا مصطلح القوم يعلمون ولا بما مضى من سيرتهم يعملون فإنا لله وإنا إليه راجعون ، أشبهوهم بالظاهر فى الصورة وباينوهم فى السيرة فى المعانى المستورة .

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

ظنوا الفقر والتصوف أذكاراً مشهورة ، ومقامات مستورة ، وخيالات مذكورة ، فتقيدت بهم أذهان محصورة ، وأفكار مأسورة ، لم تصحب فحول الرجال ولم تشرب من ماء المعارف الزلال ، زلت منها الأقدام ، وتحكمت فيها الأوهام ، وجعلوا التلبس بشعار الفقر مأكلة ، والتقدس بذكر الله بينهم مشغلة والتآنس بالمعاشرة عن المبادرة للطاعة مكسلة ، وتلك حالة لمن تأملها مشكلة ، وفتنة لمن تعقلها مذهلة ، ولكن طبع الله على قلوبهم فكانوا من الغافلين ، وختم على سمعهم ، فلم يكونوا للنصيحة بالقائلين ، ولا للعدول عن الضلال للهدى بالعائدين .

وقال الإمام الغزالى فى الإحياء فى باب الغرور ،

ومنهم من اغتروا بالزى والهيئة فشاركوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيأتهم وفى ألفاظهم وآدابهم واصطلاحاتهم ، وفى أحوالهم الظاهرة فى الجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وفى تنفس الصعداء ، وفى خفض الصوت فى الحديث ، وتشبهوا بهم ، ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية . ومنهم من ادعى علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال ، وهو لا يعرف هذه الأمور إلا بالأسماء والألفاظ يرددها ترديد الببغاء ، ويظن أن ذلك من أعلى علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلا عن العوام حتى أن الفلاح يترك فلاحته والحائك يترك حياكته ، ويلازمهم أياماً معدودة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فهو يرددها ، ويستحقر بذلك العباد والعلماء فيقول فى العباد إنهم أجراء متعبون ، ويقول فى العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين . ومنهم من رفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام ، فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملى فلم أتعب ؟ وبعضهم يقول قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال ، فقد كلفوا ما لا يمكن وإنما يعتب به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال ، ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما ، بل إنما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد

منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول الأعمال بالجوارح لا قدر لها وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا عاكفة فى حضرة الربوبية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية فإن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ويرفعون درجة أنفسهم عن الأنبياء ، ومنهم من ضيقوا على نفوسهم فى أمر القوت حتى طلبوا منه الحلال الخالص ، وأهملوا تفقد القلب والجوارح فى غير هذه الخصلة الواحدة ، ومنهم من أهمل الحلال فى مطعمه وملبسه ومكسبه ، وأخذ يتعمق فى غير ذلك ، وليس يدرى المسكين أن الله ليس يرضى من عبده بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصى ؛ فمن ظن أن بعض هذه الأمور تكفيه وتنجيه فهو مغرور ؛ وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل أحكام العلم ، ومن غير اقتداء بشيخ متقن فى الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم يطول » انتهى كلام الإمام الغزالى بتصرف » .

ورحم الله القطب القسطلانى والإمام الغزالى : كيف لو أدركا متصوفة وقتنا هذا الذين خربوا الدين باسم التصوف .

فالشيخ عندهم من يدعى أن جده فى التابوت فيقيم نفسه شيخاً . وإن كان أجهل الجاهلين ؛ وليس له هم إلا جمع العادة ، والمقرب عنده من كانت عادته على الدوام فى زيادة ، حتى ولو كان من الفساق المجاهرين ، يثبت لك ولايته بورقة يخرجها من علبة من الصفيح كأنها حجة ، وهذا هو كل ما معه من العلم

والعمل والحجة ومن منع عنه العادة توعده بالويل والثبور وهدده بعظائم الأمور فإن وقع لهذا المريد مكروه — ولا يخلو العبد من ابتلاء الله — قال الأتباع يا لها من كرامة ، وماحصل ذلك إلا لأن شيخهم قد سدد لهذا الآبق سهامه ، يسيرون بين الناس بالخرافات والتضليل ، فحسبنا الله ونعم الوكيل .

أما الأتباع فهم جاهلون ، لا يحسنون الوضوء ولا الصلاة وهم عن الله غافلون ، وعن المعاصى وأكل الحرام لا يتورعون ، وإذا ما ذبح العجل أو الخروف تراهم إلى حلقات ذكرهم يهرعون ، أستغفر الله فما هذه الحلقات إلا حركات واستعراضات ، وبجوار حلق ذكرهم حلقات أخرى يدار فيها الحشيش والأفيون . وشيخهم لاهى مع علية القوم وأتباعه فى سكرتهم يعمهون ، فإذا ما زغرد النساء تعالى الصراخ وارتفعت التصدية والمكاء ، وهذا عندهم لليالى من عظيم الأحياء ، وما جروا به على المسلمين إلا البلاء ، ولا يتناهون فيما بينهم عن منكر فعلوه فلبئس ما يفعلون .

والموالد وما أدراك ما الموالد ، وما هى إلا فرصة للاستعراض ، ومباءة لما يصيب القلوب من الأمراض ، ينظمون فيها المواكب ، ويسيرون ما بين راجل وراكب ، يرفعون فيها بأيديهم الأعلام ، وما يثيرون بذلك فى قلوبنا سوى الآلام ؛ يدقون الدفوف ويقرعون الطبول ، وبيد كل منهم حديدة كالسيف بها يصول ؛ يأكلون النار والصبار والثعابين ، فقل لى بربك ما الذى يعود بهذا على الدين ، يضربون الشيش والزجاج يقضمون ، وللأسف الشديد أنهم بهذه المخازى يباهون ، ويدعون أن هذه كرامات أمام الناس ، وإن هذا وأيم الحق منتهى الإفلاس ، ويقول الراسخون منهم هذه أسرار ،

وما هى إلا من أسباب النار ، وعلم الله إن الدين برىء من هذه المساخر ، ولا يرضى لأتباعه أن يشتغلوا بمضحكات المظاهر .

اللهم إن الدين يبرأ مما يجرى من انتهاك الحرمات ، وفساد الأخلاق وارتكاب الموبقات ، من جراء اختلاط الرجال والنساء والشبان والفتيات ، ويرحم الله أبا القاسم الجنيد حيث يقول :

« إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تصدقوه حتى تعرضوا عمله فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم » .

ومن العارفين من شبه هؤلاء المدعين بقطاع الطرق ، ومنهم من قال لعل ذلك من الله قصداً لخفاء هذه الطائفة التى تؤثر الخفاء على الظهور فهم كالحجب المانعة للناس من رؤية أهل الصدق المتمسكين بالتصوف الحقيقى حتى لا يصل إليهم إلا من أراد الله أن يوصله إليه .

وفى الحديث « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون » .

قال النووى وغيره : إن الطائفة عامة فى جميع الأصناف من علماء عاملين وغزاة مجاهدين وغيرهم فما أعز تلك البقية .

الطريق

(قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى)

قال تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم » . وقال « ولو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر : « جدد السفينة فإن البحر عميق ، وخذ الزاد كاملا فإن السفر بعيد ، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » . « ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » .

اعلم أن الله خلق الملائكة وأودع فيهم عقلا بدون شهوة وخلق الحيوان وأودع فيه شهوة بدون عقل ، وخلق الإنسان وأودع فيه العقل والشهوة فمن غلب عقله شهوته كان عند الله أرقى من ملائكة السماء ، ومن غلبت شهوته عقله كان أخس من حيوانات الأرض .

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » أى سخرنا لهم الكون وما فيه ليتفرغوا لعبادة ربهم .

وفى الحديث القدسى « يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلى فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له » .

وقال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

قال ابن عباد رضى الله عنه : خلق الله تعالى الإنسان فى أحسن تقويم

وأتم تسوية وتعديل وجعل بنيته متضمنة أسرار جميع الموجودات : علويها وسفليها لطيفها وكثيفها فصار لذلك روحانياً جسمانياً أرضياً سماوياً ، ولذلك يقال له العالم الأصغر ، وهذا هو الذى يظهر فى معنى جعله فى العالم المتوسط بين عالم الملك وعالم الملكوت ، وعالم الملك هو عالم الشهادة وعالم الملكوت هو عالم الغيب ، فلا جرم لما كان الإنسان بهذه المثابة من كونه نخبة جميع الموجودات الجسمانية والروحانية ، كانت الأكوان كلها له باعتبار إحاطتها وحفظها له بمنزلة القشر والصوان الذى يحفظ الشىء ويصونه . وكان هو بمنزلة الجوهرة النفيسة التى تحويها الصدفة . والمقصود من هذا أن يعرف الإنسان جلالة قدره وفخامة أمره فيعلو بهمته إلى المراتب السامية اللائقة به ، وذلك بإخلاص العبودية لربه عز وجل وقطع النظر عن كل ما سواه ، قال ذلك فى شرح قول سيدى ابن عطا الله السكندرى « جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنك جوهرة تنطوى عليك أصداف مكنوناته » اهـ .

وكما خلق الله آدم وأسكنه الجنة ثم رده إلى الأرض وطالبه بالجهاد والعمل حتى يعود إلى ما كان فيه من النعيم ، خلق أولاده وأسكنهم ما بين السماء والأرض . وخلق الأرض سبعاً والسموات سبعاً ، وجعل نفوس ابن آدم سبعاً ذكرها فى القرآن الكريم . فمن جاهد وتثقل وسار من أدنى نفس إلى أعلى نفس فكان كلما دفن نفسه أرضاً أرضاً ارتقى سماء سماء غادر أسفل سافلين التى رده الله إليها ، وكان فى أعلى علليين التى أعدها الله للمجاهدين .

والنفوس على هذا الترتيب التصاعدى : الأمارة بالسوء ، واللوامة ،

والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية والمرضية ، والكاملة ، وهى التى استحقت النسبة الشريفة فى قوله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

والسير والانتقال فى ميادين هذه النفوس سمى طريقا ، والتسمية معنوية على سبيل المثال ، والطريق طريق الله ، وهديها متابعة الكتاب والسنة ونهايتها معرفة الله فالطريق هو الدين ، ومن أراد أن يصل إلى الله بغير واسطة رسوله صلى الله عليه وسلم انقطع .

قال صاحب كتاب عوارف المعارف : وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلق ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة . والوحدة فى جمع الهم لها تأثير فى صفاء الباطن مطلقا فكل ما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم أنتج تنوير القلب ، والزهد فى الدنيا ، وحلاوة الذكر ، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك . وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ينتج صفاء فى النفس يستعان به على اكتساب علوم رياضية مما يعتنى به الفلاسفة والدهريون ، وكلما أكثروا من ذلك كثر بعدهم عن الله ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية أو بما قد يتراءى له من صدق الخواطر وغير ذلك حتى يركن إليه كل الركون ويظن أنه قد فاز بالمقصود من الخلوة ، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة وليست هى المقصودة من الخلوة لقول بعضهم :

الحق يطلب منك الاستقامة وأنت تطالبه بالكرامة . وقد يفتح على الصادقين بشيء من خوف العادات وصدق الفراسة وقد لا يفتح عليهم ولا يقدح فى حالهم عدم ذلك وإنما يقدح فى حالهم الانحراف عن حد الاستقامة . وما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سبب مزيد انتفاعهم ، والداعى لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد فى الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة ، وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سبباً لمزيد بعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام من عنقه ، وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام ، ويظن أن المقصود من من العبادات ذكر الله تعالى ، وترك متابعة الرسول ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق نعوذ بالله من الضلال اهـ .

وقال سيدى أبو الحسن الشاذلى : طريقنا لا يعول على رؤيا ولا إلهام .

وقال أبو سليمان الدارانى : ربما تقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة .

وقال أبو حفص الحداد : من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خاطره فلا تعده فى ديوان الرجال .

وقال الجنيد رضى الله عنه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

ومن أراد المسير فليتخلص من العلائق والعوائق ، والعلائق كل ما تعلقت به همته دون الله ، فيتخلص من الدنيا بالزهد فيها ، ومن الشيطان بمحاربته ومعاداته ، ومن النفس والهوى بمخالفتهما وعصيانهما . وأما العوائق

فكل ما يعوقه عن المسير ، من أسباب تفسد القلب ، أو أصحاب يفسدون الوقت وما يكشف له من الأسرار الشاغلة عن المسير .

قال سيدى ابن عطاء الله السكندرى : « ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا وناديته هواتف الحقيقة الذى تطلب أمامك ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا وناديته حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر » .

ولا بد للسائر المسافر من دليل مرشد ، وهو الشيخ الكامل — وقد وضحنا ذلك فى باب الدعوة إلى الله كما سيأتى — ولا بد له من رفقاء ، وهم إخوان الصفاء والجلساء الصالحون ، ولا يتم التخلص ولا يتحقق الإخلاص إلا بوجود المعارضين والمعاندين .

فائدة المعارضين والمعاندين أن الله جعلهم هدفا للعبد الصادق يتعلم فيهم الأدب معه فإذا ساءوه أحسن إليهم ، وإذا ظلموه دعا لهم ، وإن ذكروا له عيوبا فيه تخلص منها وبذلك يساعدوه على التخلق بمكارم الأخلاق والفرار من الخلق والإلتجاء إلى الله . قال أحدهم :

عدائى لهم فضل على ومنة ... فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
فهم بحثوا عن ذلتى فاجتنبتها ... وهم نافسونى فارتقيت المعاليا

وقال آخر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا إشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

وقال سيدى ابن عطاء الله : « إعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بدايتهم

أن يسلط الخلق عليهم ليتطهروا من البقايا وتتكمل فيهم المزايا ، وكى لا يسكنوا الخلق باعتماد ويميلوا إليهم باستناد ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه ، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود إمتنانه » .

وقال سيدى أبو الحسن: « اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك فى قلبك وشرهم يصيبك فى قالبك ، ولأن تصاب فى بدنك خير من تصاب فى قلبك ، وامدد يوصلك إلى الله خير من حبيب يقطعك عن الله » ا.

ومما يدلك على أن هذه سنة الله فى أحبابه وأصفيائه قول الله تعالى : « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » . وقوله عز وجل « حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » وقوله : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » . وقوله : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » .. الآية .

وقال سيدى عبد السلام بن مشيش « اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم الخلق فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك ، وإنى أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجأى إلا إليك » .

وعن سيدى أبى الحسن « لا تشتغل بإذاية من يؤذيك ، واشتغل بالله يرده عنك ، فهو الذى سلطه عليك ليختبر دعواك فى الصدق » .

ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استجلاء الإقامة فى مواطن العز

والرفعة ، فلو تركها الحق سبحانه وما تريد لهلكت فأزعجها من ذلك بما يسلط عليهم من أذى المؤذين ومعارضة الحاسدين .

وقال سيدى الحبشى رضى الله عنه من قصيدة طويلة :

وانهض إلى أهل ذاك الحال محتملا ... عذل العذول ولازم دأب أخيار
واعلم بأن طريق الله سنتها ... سب وهجر وتعنيف بإنكار
فى كل قرن لهم قرن يعارضهم ... يشاهد الفعل منهم فعل فجار
يستغرق الوقت إدماناً ببغضهمو ... كأنه قربة يدنيه للبارى
أو مر يوماً بهم قد يلتوى غضباً ... كأنهم سالكوا منهاج كفار
وهو الذى شد فى الأعراض مرقمها ... بسوء ظن وأخلاق وإضرار
يقفو عيوب الورى لم ينسى أصغرها ... وما بهم فيه هل من منصف دار
والجذع فى عينه لم يدر موضعه ... وشعرة الغير تبدو مثل مسمار
أخا الصبابة فاصبر إن بليت به ... واسلك سبيل فتى فى العشق صيار
هم حملوا من أليم العذل أوجعه ... فما استكانوا ولا ولوا لأدبار
أوذوا وعن قصدهم فى الحب ما برحوا ... فقوبلوا بالوفا من حضرة البارى

* * *

وأما الرفاق والصحاب ، فلا تصحب إلا من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله ، فإنك إذا نسيت ذكرك ، وإذا ذكرت أعانك ، ولا تصحب من هو أقل منك فى الدين والإخلاص ، فربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوأ حالا منك .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه :

احذر صحبة ثلاث : الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

وقال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم ، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه لا يدوم ، واصحب من إذا ذكر ذكر الله فائدة يثوب عنه إذا فقد ، ويغنى به إذا شهد .

وقال ذو النون المصرى « إصحب من لا تكتمه شيئاً يعلمه الله منك »

وقال بعض الحكماء : لا تؤاخ من الناس من يغير عليك فى أربع : عند غضبه ورضاه ، وعند طمعه وهواه ، لأن هذه المعانى تتغير لها الطباع لدخول الضرر منها على النفس وفقد الانتفاع اه .

أحب من الاخوان كل موافق ... وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أحبه ... ويحفظنى حياً وبعد مماتى
من لى بهذا ليتنى قد وجدته ... فقاسمته ما لى من الحسنات

واعلم أن الصاحب الذى ينهض حاله هو من تكون همته معلقة بالله تعالى مرتفعة عن المخلوقين لايلجأ فى حوائجه إلا إلى الله تعالى ولا يتوكل فى أموره إلا على الله ، قد سقط اعتبار الخلق من عينه فلا يرى منهم ضراً ولا نفعاً ، وسقط نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا ولا يقضى لها حظاً ويكون فى أعماله كلها جارياً على مقتضى الشرع من غير إفراط ولا تفريط لأن الطبع يسرق من الطبع ، والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله ، فإذا تعلقت بمن حسن ظاهره ولم يتطهر باطنه أحبته لظهره ، وسرق الطبع منه

النفاق إن كان منافقاً ، ولو أظهر الاخلاص ، والكبر وإن أظهر التواضع ، والبخل وإن أظهر الكرم وهكذا .

قال الامام الغزالى رضى الله عنه : « الطريق الذى يتعرف به الانسان عيوب نفسه :

الأول : أن يجلس بين يدى شيخ بصير بالعيوب والآفات فيحكمه فى نفسه ، ويتبع إشارته فيما يشير به عليه .

الثانى : مصاحبة صديق صدوق يجعله رقيباً على أحواله وأعماله لينبهه إلى ما يخفى من مذام خلاله .

الثالث : أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه إذ لا بد من جريان ذلك على ألسنتهم عند تلبسهم وغيبتهم .

الرابع : أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس إذ يطلع بذلك على مساويهم فإذا اطلع عليها منهم علم أنه لا ينفك هو عن شىء منها لأن الطباع البشرية فى ذلك متقاربة ، وقد يظهر له فى نفسه ما هو أعظم مما يراه فى غيره فيطالب نفسه حينئذ بالتطهر منها والتنزه عنها ، ثم قال : وهذه كلها حيل من تفقد شيخاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس مشفقاً ناصحاً فى الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشغولا بتهذيب عباد الله ناصحاً لهم ، فمن وجد الطبيب فيلازمه فهو الذى يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده . اه

والحقيقة أن صحبة الصوفية الصادقين هى التى يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنسوبين إلى الدين والعلم ، لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم فيها غيرهم وسريان ذلك من

الصاحب إلى المصحوب هو غاية الأمل المطلوب ، فقد قيل : من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها .

أخرج مسلم عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك[1] وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة » .

أصول الطريق

ألف سيدي زروق رسالتين أوضح فيهما معالم الطريقة التي ينبغي لكل صوفي أن يتمسك بها سمى إحداهما الأصول والأخرى الأمهات ، فأما الرسالة التي سماها الأصول فقال فيها :

أصول طريقنا خمسة أشياء : « تقوى الله تعالى في السر والعلانية ، واتباع السنة في الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار ، والرضا عن الله تعالى في القليل والكثير ، والرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء ، فتحقيق التقوى بالورع والاستقامة ، وتحقيق السنة بالتحفظ وحسن الخلق ، وتحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر والتوكل ، وتحقيق الرضا عن الله بالقناعة والتفويض ، وتحقيق الرجوع إلى الله بالحمد والشكر في السراء واللجأ إلى الله في الضراء » .

وأصول ذلك كله خمسة : علو الهمة ، وحفظ الحرمة ، وحسن الخدمة ، ونفوذ العزمة أي العزم ، وتعظيم النعمة ، فمن علت همته ارتفعت رتبته ،

(١) يحذيك . يعطيك .

ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته ، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته ومن أنفذ عزمته دامت هدايته ، ومن عظمت النعمة في عينه شكرها ، ومن شكرها استوجب المزيد من النعم بها حسبما وعده الصادق .

وأصول المعاملات خمسة : طلب العلم للقيام بالأمر ، وصحبة المشايخ والإخوان للتبصر ، وترك الرخص والتأويلات للحفظ ، وضبط الأوقات بالأوراد للحضور ، واتهام النفس في كل شيء للخروج عن الهوى والسلامة من العطب والغلط ، فطلب العلم آفته صحبة الأحداث سناً أو عقلا أو ديناً ممن لا يرجع لأصل ولا قاعدة ، وآفة الصحبة الاغترار والفضول ، وآفة ترك الرخص والتأويلات الشفقة على النفس ، وآفة ضبط الأوقات اتساع النظر في العلم لعله ذي الفضائل ، وآفة اتهام النفس الأنس بحسن أحوالها واستقامتها وقد قال تعالى : « وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها » . وقال الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب صلوات الله وسلامه عليهما : « وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي » .

وأصول ماتداوى به علل النفس خمسة أشياء : تخفيف المعدة من الطعام واللجأ إلى الله مما يعرض عند عروضه ، والفرار من مواقع ما يخشى وقوع الأمر المتوقع فيه ، ودوام الاستغفار مع الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلوة وانجماع ، وصحبة من يدل على الله أو على أمر الله وهو معدوم .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : أوصاني حبيبي فقال : لاتنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ، ولا تصطف

لنفسك إلا من تزداد به يقيناً وقليل ما هم . وقال أيضاً رضى الله عنه :

من دلك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الله فقد نصحك .

وقال أيضاً رضى الله عنه : اجعل التقوى وطنك ثم لا يضرك مرح النفس مالم ترض بالعيب ، أو تصر على الذنب ، أو تسقط منك خشية الله بالغيب وهذه الثلاثة هى أصول العلل والبلايا والآفات . وقد رأيت فقراء هذا العصر ابتلوا بخمسة أشياء : إيثار الجهل على العلم ، والاغترار بكل ناعق . والتهاون فى الأمور ، والتعزز بالطريق ، واستعجال الفتح دون شروطه ، فابتلوا بخمسة : إيثار البدعة على السنة ، واتباع أهل الباطل دون الحق ، والعمل بالهوى فى كل أمر أو أجل الأمور . وطلب الترهات دون الحقائق . وظهور الدعاوى دون صدق ، فظهروا بذلك بخمسة أشياء : الوسوسة فى العبادات ، والاسترسال مع العادات ، والسماع والاجتماع فى عموم الأوقات ، واستمالة الوجوه بحسب الإمكان ، وصحبة أبناء الدنيا حتى النساء والصبيان ، واغتروا بوقائع القوم فى ذلك وذكروا أحوالهم ، ولو تحققوا لعلموا أن الأسباب رخصة الضعفاء ، والقيام بها بقدر الحاجة من غير زيادة فلا يرسل معها إلا بعيد من الله وأن السماع رخصة المغلوب أو راحة الكامل وهى انحطاط فى بساط الحق إذا كان بشرط من أهله فى محله وأدبه ، وأن الوسوسة بدعة أصلها جهل بالسنة أو خبل فى العقل وأن التوجه لإقبال الخلق إدبار عن الحق ، لا سيما قارىء مداهن أو جبار غافل أو صوفى جاهل ، وأن صحبة الأحداث ظلمة وعار فى الدنيا والدين وقبول رفقتهم أعظم وأعظم .

وقد قال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : الحدث من لم يوافقك على طريقتك وإن كان ابن تسعين سنة . قلت وهو الذى لا يثبت على حال ويقبل كلما يلقى إليه فيولع به ، وأكثر ما تجد هذا فى أبناء الطوائف وطلبة المجالس فاحذرهم بغاية جهدك .

وكل من ادعى مع الله حالا ثم ظهرت منه إحدى خمس فهو كذاب أو مسلوب : إرسال الجوارح فى معصية الله ، والتصنع بطاعة الله ، والطمع فى خلق الله ، والوقيعة فى أهل الله ، وعدم احترام المسلمين على الوجه الذى أمر الله ، وقل ما يختم له على الاسلام .

وشروط الشيخ الذى يلقى المريد إليه نفسه خمسة : ذوق صريح ، وعلم صحيح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة .

ومن فيه خمسة لا تصح مشيخته : الجهل بالدين ، وإسقاط حرمة المسلمين ودخول ما لا يعنى ، واتباع الهوى فى كل شىء ، وسوء الخلق من غير مبالاة .

وآداب المريد مع الشيخ والإخوان خمسة : اتباع الأمر وإن ظهر له خلافه ، واجتناب النهى وإن كان فيه حتفه ، وحفظ حرمته حاضراً أو غائباً حياً وميتاً ، والقيام بحقوقه حسب الإمكان بلا تقصير ، وعزل عقله وعلمه ورياسته إلا ما يوافق ذلك من شيخه ويستغنى عن ذلك بالإنصاف والنصيحة وهى معاملة الإخوان ، وإن لم يكن شيخ مرشد أو وجد ناقصاً عن شروطه الخمسة اعتمد فيما كمل فيه وعومل بالأخوة فى الباقى » .

(انتهت الأصول بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه) .

فلا يرجع إليهم عند الحاجة ، ولا يعتب عليهم عند اللجاجة ، لوقوفه مع مولاه فى كل أحواله .

(الخامس) مجانبة أهل الغرة والإغرار ، فقد قال سهل رضى الله عنه : إحذر صحبة ثلاث أصناف من الناس : القراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين والجبابرة الغافلين . قلت : فمن ابتلى بهؤلاء فليعامل الأولين بالتعظيم والإكرام ، والآخرين بالتسليم والاحتشام ، والآخرين بالجد والاستسلام ، مع خلو قلبه منهم وإلا هلك دنيا وأخرى .

وقال بعض المشايخ : الإخوان ثلاثة : أخ لدينك فلا تراع فيها إلا الدين وأخ لدنياك فلا تراع فيه إلا حسن خلقه ، وأخ لتأنس به فلا تراع فيه إلا السلامة من شره . قلت : وهؤلاء لا بد منهم فالزم أدبهم تفلح ، وإلا كنت ضحكة فى دينك ودنياك .

وقال ابن عطاء الله رضى الله عنه : لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله . قلت : وهو من سوى العارف ؟ وهذا فى باب الصداقة والانتفاع والله أعلم .

(السادس) التزام الأدب وقد قال الشيخ أبو الحسن : أربعة آداب لمن خلا الفقير المتجرد عنها فاجعله والتراب سواء : الرحمة للأصاغر ، والحرمة للأكابر ، والإنصاف من النفس ، وترك الانتصاف لها . وأربعة آداب إذا خلا المنتسب عنها فلا تعبأ به وإن كان أعلم البرية : مجانبة الظلمة ، وإيثار أهل الآخرة ، ومواساة ذوى الفاقة ، وملازمة الخمس فى الجماعة .

وقال أبو حفص الحدادى رضى الله عنه : التصوف كله أدب : لكل

وقت أدب ، ولكل حال أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ترك الأدب فهو مطرود من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن الوصول اهـ .

(السابع) إعطاء الأوقات حقاً ، فقد جاء فى صحف إبراهيم ، وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه . قلت : وهى من السحر إلى طلوع الشمس . قال : وساعة يحاسب فيها نفسه . قلت : وهى من العصر إلى الغروب أعنى يوقع فى هذين الوقتين ما تيسر له من ذلك ومتى تيسر له منها . قال : وساعة يمضى فيها إلى إخوانه الذين يبصرونه بعيوبه ، ويدلونه على ربه . قلت : ويعينها متى تيسر لهم وله من نهاره وليله . قال : وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين شهواته المباحة . قلت : وهى كالتى قبلها ، والأوقات كلها « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » فما فاتك من وردك فى الليل استدركته فى النهار وبالعكس . واسأل عن علم ما يخصك ولا تكن ممن يطلب الله لنفسه ، ولا يطلب نفسه لله فذلك حال الجاهلين نسأل الله السلامة .

(الثامن) أن لا ترى فى العالم إلا أنت وربك ، فتراقبه حق المراقبة بأن تتخذ ما عنده كنزاً . وتفتقر منه فى ظاهر أمرك وباطنه ، ولا تتشوف لأحد سواه ، واحذر أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ، أو يرى منك التفاتاً لغيره ، فقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : عمى البصيرة فى ثلاثة أشياء : إرسال الجوارح فى معاصى الله ، والتصنع بطاعة الله ، والطمع فى خلق الله ، فمن ادعى البصيرة مع واحدة من هذه فقلبه

قال رحمه الله : وينبغى لك مطالعتها كل يوم مرة أو مرتين وإلا فى كل جمعة حتى تنطبع معانيها فى النفس ويقع تصرفك على مقتضاها فإن فيها غنية عن كثير من الكتب والوصايا فقد قيل : إنما حرموا الوصول من تضييع الأصول ، ومن تأمل ما قلناه عرف ذلك ثم لا يزال يتعهدها قصداً للتذكر بها وبالله التوفيق .

وأما الرسالة التى سماها الأمهات فقال رحمه الله :

(فصل فى أمهات مايبنى عليه المريد فى هذه الأزمنة وغيرها)

وذلك أمور : (أولها) التزام التقوى بترك المحرمات ، وحفظ الواجبات من غير إخلال ولا إفراط ، ويحرص على تحقيق ما يحتاج إليه منها وهو النوع الذى يعتريه كثيراً كالغيبة عموماً والحسد خصوصاً أو نحو ذلك ، ويكون حرصه على الصدق مع الله فيها بأن يهتم بما لا يعيبه الناس أكثر مما يعيبونه لأن هذا لا يحمله على تركه إلا خوف الله بخلاف الآخر فإن فيه شائبة ، وإن كان من حق الله ومساوياً للآخر فى حكمه ، فالنفس تأباه لما يلحقها من أجله فيكون معاناً على تركه إذ لا يصح له فعله بحال فافهم .

(الثانى) العمل بالأسباب التى تكمل بها التقوى وتستدام ، كترك الشبه الواضحات التى لا تدعو إليها ضرورة ملحة ، فإنه لا يبلغ الرجل درجة التقوى حتى يدع ما حاك فى الصدور ، ومن تعمق فى الأمور قل أن يثبت له قدم لكن ما وضح كونه شبهة ترك ، وما خفى أمره فعند الاستغناء عنه (ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه) وكانوا يتركون بينهم وبين الحرام وقاية من الحلال ، ومن عز عليه دينه سهل عليه كل شىء ورحم الله بعضهم حيث

يقول : اكتسب العلم وكل بالورع ، ثم من أقبح الورع ما أدى لمحرم ككسر قلب مسكين لغير أمر بين ، أو التنطع فى عبادة بأمر يؤدى إلى المقت والغيبة ، والتوقف فى عادة على حد لا تسلم معه المروءة ، وهذا أصل كبير يحتاج إلى علم وتنوير .

(الثالث) التيقظ لموارد الأشياء ومصادرها بحيث يكون قلبه عند جوارحه ، فكل جارحة تتحرك منه يقابلها بحكم حركتها وقصدها ، فإن الله يبغض الرجل الأمقت : المشاء من غير أرب ، الضحاك من غير عجب ، الذى يكون مع كل قوم بما هم فيه . وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « ما سلم من النفاق عبد يعمل على الوفاق » .

(الرابع) صحبة أهل المعرفة والعلم الذين يبصرونك بعيوب نفسك ويدلونك على ربك ، فقد قال سيدى عبد السلام رضى الله عنه : من دلك على غير الله فقد غشك ، ومن دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الله فقد نصحك . قلت : وذلك بأن يحصل على اللجأ إليه فى المبادىء ، والشكر إليه فى المناهى ، والرضا عنه فى الواردات ، والصبر له فى المكاره والتسليم فى الأقدار ، وإيثار حقه على كل شىء وفى كل شىء .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم ، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قل ما يدوم ، واصحب من إذا ذكر ذكر الله فالله يغنى به إذا شهد ، وينوب عنه إذا فقد . ذكره نور القلوب ومشاهدته مفاتيح الغيوب . قلت : علامته الإعراض عن كل شىء سوى مولاه ، بحيث لا يبالى بالخلق فى إقبال ولا إدبار وإن كان يتأثر بهم

فلا يرجع إليهم عند الحاجة ، ولا يعتب عليهم عند اللجاجة ، لوقوفه مع مولاه فى كل أحواله .

(الخامس) مجانبة أهل الغرة والإغرار ، فقد قال سهل رضى الله عنه : إحذر صحبة ثلاث أصناف من الناس : القراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين والجبابرة الغافلين . قلت : فمن ابتلى بهؤلاء فليعامل الأولين بالتعظيم والإكرام ، والآخرين بالتسليم والاحتشام ، والآخرين بالجد والاستسلام ، مع خلو قلبه منهم وإلا هلك دنيا وأخرى .

وقال بعض المشايخ : الإخوان ثلاثة : أخ لدينك فلا تراع فيها إلا الدين وأخ لدنياك فلا تراع فيه إلا حسن خلقه ، وأخ تتأنس به فلا تراع فيه إلا السلامة من شره . قلت : وهؤلاء لا بد منهم فالزم أدبهم تفلح ، وإلا كنت ضحكة فى دينك ودنياك .

وقال ابن عطاء الله رضى الله عنه : لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله . قلت : وهو من سوى العارف ؟ وهذا فى باب الصداقة والانتفاع والله أعلم .

(السادس) التزام الأدب وقد قال الشيخ أبو الحسن : أربعة آداب إن خلا الفقير المتجرد عنها فاجعله والتراب سواء : الرحمة للأصاغر ، والحرمة للأكابر ، والإنصاف من النفس ، وترك الانتصاف لها . وأربعة آداب إذا خلا المتسبب عنها فلا تعبأن به وإن كان أعلم البرية : مجانبة الظلمة ، وإيثار أهل الآخرة ، ومواساة ذوى الفاقة ، وملازمة الخمس فى الجماعة .

وقال أبو حفص الحدادى رضى الله عنه : التصوف كله أدب : لكل

وقت أدب ، ولكل حال أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ترك الأدب فهو مطرود من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن الوصول اه .

(السابع) إعطاء الأوقات حقاً ، فقد جاء فى صحف إبراهيم ، وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه . قلت : وهى من السحر إلى طلوع الشمس . قال : وساعة يحاسب فيها نفسه . قلت : وهى من العصر إلى الغروب أعنى يوقع فى هذين الوقتين ما تيسر له من ذلك ومتى تيسر له منها . قال : وساعة يمضى فيها إلى إخوانه الذين يبصرونه بعيوبه ، ويدلونه على ربه . قلت : ويعينها متى تيسر لهم وله من نهاره وليله . قال : وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين شهواته المباحة . قلت : وهى كالتى قبلها ، والأوقات كلها « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » فما فاتك من وردك فى الليل استدركته فى النهار وبالعكس . واسأل عن علم ما يخصك ولا تكن ممن يطلب الله لنفسه ، ولا يطلب نفسه لله فذلك حال الجاهلين نسأل الله السلامة .

(الثامن) أن لا ترى فى العالم إلا أنت وربك ، فتراقبه حق المراقبة بأن تتخذ ما عنده كنزاً . وتتفقد منه فى ظاهر أمرك وباطنه ، ولا تتشوف لأحد سواه ، واحذر أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ، أو يرى منك التفاتاً لغيره ، فقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : عمى البصيرة فى ثلاثة أشياء : إرسال الجوارح فى معاصى الله ، والتصنع بطاعة الله ، والطمع فى خلق الله ، فمن ادعى البصيرة مع واحدة من هذه فقلبه

هدف لظنون النفس ووساوس الشيطان اه . وقال بعضهم : من أشار إلى الحق وتعلق بالخلق أحوجه الله إليهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليه .

وقال بعضهم لمن استوصاه : احذر أن يرى فى قلبك غيره فإنه غيور لايحب أن يرى فى قلب عبده سواه ، ولله ما أحسن قول على كرم الله وجهه لبشر الحافى حين رآه فى المنام ، فقال بشر : ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلباً للثواب ، فقال له على كرم الله وجهه : وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة برب الأرباب ، وفى معناه قيل :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس ... وامنع بعز فإن العز فى اليأس
واستغن عن كل ذى قرب وذى رحم ... إن الغنى من استغنى عن الناس

(التاسع) ترك التكلف فى الحركات . وقد قال عليه الصلاة والسلام : أنا وأتقياء أمتى برآء من التكلف . وقال مولانا جلت قدرته تعليما لنا بواسطة نبيه وتبرئة له « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » . فناهيك من خطة أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالتبرى منها ؛ وأصل التكلف حب المراءاة ، ومنه تقع الأيمان الفاجرة والرياء والسمعة والمصانعة وغير ذلك « والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » فعليكم بالتوسط فى كل شىء ، فإنه النجاة من مذام الأمور بالإفراط والتفريط ومن كلام الحكماء : لا تتزين تزين العروس ، ولا تتبذل تبذل العبيد ، وقالوا أيضاً : لا تكن حنظلا فترفض ، ولا سكراً فتشرب وفى معناه قيل :

كن حكيما ودع فلان ابن من كا ... ن وكن حليما واجمع إلى الحلم علما
لا تكن سكراً فيأكلك النا ... س ولا حنظلا تذاق فترمى

(العاشر) عمارة القلب بما يحييه بدلا من تقيضه ، وهو أربعة أسباب تقابلها أربعة : (أولها) ذكر غربتك فى الدنيا ، وعملك على ذلك بعد الانتصاف لنفسك والانصاف منها ، والاستسلام لما يجرى من النحس وغيره ؛ ويقابله شغل القلب بلذاتها ونيل الأغراض فيها مع قطع النظر عما سوى ذلك حتى يقول : دعنى أصل غرضى ، ودعنى أموت غداً والعياذ بالله تعالى .

(الثانى) ذكر مصرعه عند الموت ، وهو الذى ينسيه كل شىء من دنياه ، ويزهد فى الخلق إذا لا ينفعونه فى ذلك المحل بشىء ، ويحسب ذلك يعمل فيما يرضى الحق دونهم ؛ ويقابلها نسيان الأجل وبعد الأمل ، وهو مفتاح خوف الخلق ، وهم الرزق ، وهما أصل كل بلاء فى الدنيا وكل محنة فى الآخرة أعاذنا الله منهما بكرمه .

(الثالث) ذكر وحشة القبر ، وهو الذى ينسيه أنس كل أنيس إلا من حيث يستشعر أنسه بمعاملة إذ ذاك ، فلا يصحب إلا أولياء الله ولا يجتمع إلا حيث يرجو ثواب الله ، ويقابله شمول الغفلة ، والاغترار بأيام المهلة ، وهو مفتاح ترك العمل ، والتراخى عنه ، والفكرة فيه ؛ وطلب الرياسة ، وظهور البدع لأن قصده أن يقضى من الدنيا غرضه ، ولاعليه مماوراء ذلك !! نسأل الله السلامة .

(الرابع) ذكر وقوفه بين يدى الله تعالى ، وهو الذى يوجب أن لا يتحرك حركة ولا يسكن سكنة إلا بالله ولله ، فيتبع الشرع فى جميع حركاته ويحاسب نفسه فى جميع حالاته ، ويستحى من مولاه فى عموم أوقاته ، ويقابله الجرأة على الله ؛ والاغترار به مع ظنه أنه راج فيه ؛ وقد صح أن كل راج طالب ؛ وكل خائف هارب .

وقال الحسن رضى الله عنه : إن قوماً ألهتهم أمانى المغفرة حتى لقوا الله وليست لهم حسنة يقول أحدهم : أحسن الظن بربى وكذب ، ولو أحسن الظن بربه لأحسن العمل له وتلا قوله تعالى : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

ومن أجمع الوصايا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » . وقال عليه الصلاة والسلام : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » . وقيل للحسن : الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب إلى متى ؟ قال : ما أرى هذا إلا من أخلاق المؤمنين . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة » والاستغفار طلب المغفرة وهو دون تندم وانكسار تلاعب ، والاقلاع توبة .

وقال بعض المشايخ : الله الله ، والناس الناس . نزه لسانك من ذكرهم وعن التأثيل من قبلهم ، وعليك بحفظ الجوارح ، وأداء الفرائض وقد تمت ولاية الله عندك ، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك وقد تم ورعك وقل : اللهم ارحنى من ذكرهم ، ومن العوارض التى تعرض من قبلهم ، ونجنى من شرهم ، واغننى بخيرك عن خيرهم ، وتولنى بالخصوصية من بينهم إنك على كل شىء قدير .

وقال رجل لسيدى عبد السلام رضى الله عنه : يا سيدى وظف على وظائف وأوراداً ، فغضب رضى الله عنه وقال : أرسول أنا ؟ فأوجب الواجبات ! ! الفرائض معلومة والمعاصى مشهورة ، كن للفرائض حافظاً ؛

وللمعاصى رافضاً ، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا ، وحب النساء ، وحب الجاه ، وإيثار الشهوات ، وافتح من ذلك كله بما قسم الله لك ، إذا خرج لك مخرج الرضا فكن لله فيه شاكراً ، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عنه صابراً ، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات ، وأصل جامع لأنواع الكرامات وحصول ذلك كله أربعة : صدق الورع ، وحسن النية ، وإخلاص العمل ، وصحبة أهل العلم ، ولا تتم لك هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح اهـ .

ومن كلامه أيضاً رضى الله عنه وهو من الجوامع : الحمد لله أما بعد ، فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو ، وأوصيكم بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن استوصاه إذ قال عليه الصلاة والسلام : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن . وقال أيضاً لمن استوصاه : قل ربى الله ثم استقم ، فعليكم بشهود المنة ، واتباع السنة وإياكم ونبيات السبل فإنها مهلكة ، واطلبوا أمر السلف الأول ما أمكنكم فى عين التسليم لكل علماء الاسلام . وقد قال صلى الله عليه وسلم : «فى كل واد من قلب ابن آدم شعبة ، فمن تتبع قلبه تلك الشعبة لم يبال الله فى أى واد أهلكه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، والضلالة وصاحبها فى النار» . وقال جلت قدرته « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» . وقال سبحانه « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » . فاطلبوا الحق بالدليل تسعدوا ، وإياكم واتساع الرأى والتأويل فتبعدوا ، واعلموا أن الله لا يسأل الخلق عن قضائه وقدره ، ولا عن ذاته وصفاته ، ولا عن أمره ونهيه ، فالزموا أوراداكم ، وراعوا أوقاتكم ،

وجاملوا إخوانكم وأخدموا المسلمين ما أمكنكم ، وإياكم وترهات البطالين الذين يؤيسونكم من الله بذكر تقصيركم ونقصكم ، ويعوصون عليكم طريقكم فما هى إلا الفرائض المشهورة تؤدى ، والمحرمات المعلومة تترك ، والسنن المأثورة تتعاهد ، وشكر ما قل وجل من النعمة ، واللجأ إلى الله فى كل ملمة ونعمة ، والفتح من الله ، فإنما على العبد الأسباب وعلى الله فتح الباب ، وأى فتح أعظم مما أنتم فيه من الاستناد لجناب الله ، والمحبة لأولياء الله فالحمد لله على ذلك وهو المرجو لتكميل ما هنالك ، وأوصيكم بوصية مباركة وهى أن تسلموا لكل أحد ما هو فيه من أعمال وأحوال وعلوم ، ولا تنازعوه بل تتركوه وما دفع إليه فمراد الحق منه ما هو عليه ، ولا تقتدوا بغير ما صح فى الكتاب والسنة وحسن دعاء وغيره ، فلكم أن تأخذوا بما اتضح معناه من الأدعية الواقعة للأولياء كالشاذلى ، ونحوه ولابن سبعين وشبهه ، وجانبوا طريقة البونى كل المجانبة ، وكذا كتب الحاتمى فانها قواطع وكذا كتب الغزالى فإنها متلفة إلا مع غيرها ، ودعوا الإكثار من النوافل إلا فى الندرة فان ذلك مما يخل ، وإياكم وتتبع الفضائل فإنه مدهش ، وعليكم بالجماعة والألفة ولاحظوا فى ذلك قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » الآية . وقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » الآية ونستودعكم الله ظاهراً وباطناً والسلام .

وقال رضى الله عنه أيضاً فيما كتب به لبعضهم إثر أذكار لقنها إياه : واعلم أيدك الله وحماك وأصلح آخرتك ودنياك ، أن مدار أمر الدين على

خمس هى أصوله الباطنة وعلو الهمة ، ونفوذ العزمة أى العزم ، وحسن الخدمة ، وحفظ الحرمة ، وشكر النعمة . فمن رفع همته أعلا الله درجته ، ومن أنفذ عزمته أوجب الله كرامته ومن أحسن خدمته يسر الله طاعته ومن حفظ الحرمة حفظ الله حرمته ، ومن شكر النعمة تم الله عليه نعمته . فعلو الهمة شأن الفقير الصادق ولذلك لا يطمع ولا يرفع ولا يتبع ولا يخضع ومتى ترك واحدة من هذه فقد أخطأ طريقة ، وحرم توفيقه . ونفوذ العزمة شأن الأمير وإلا كان فى محل التقصير ، وحسن الخدمة شأن العابد وإلا كان متلاعباً متهاوناً ، وحفظ الحرمة شأن الفقيه وإلا كان فقهه رسماً لا حقيقة ، وشكر النعمة لازم كل ذى جد وأولى الناس السلاطين لأنهم فى محل النيابة ، وأركان الشكر فرح بالمنة ، وقيام بما أمكن من الحق ونفى ما يغير وجه الفضل .

والذى يجب لكم علينا حسن نصيحة واضحة بحسب الإمكان ، ودعوة صالحة على أى وجه كان والإكرام عند الملاقاة والسمع والطاعة فى عموم الأوقات والسلام والحمد لله على التمام .

وقد انتهت رسالة الأمهات هى ورسالة الأصول وهما عمدة الطريق ، وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم فى كل وقت وحين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الدعوة إلى الله

قال تعالى « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » أى ومن اتبعنى يدعو إلى الله على بصيرة ، والبصيرة : نور فى القلب منبعه الإخلاص قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » ومظهر البصيرة العلم والحكمة يقضى صاحبها بها ويعلمها « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » وليس كل عالم حكيما ، فالحكيم من أخلص لله فى عمله ، وأعطى الحكمة أهلها ومنعها عن غير أهلها ، وأفتى بعلمه لكل سائل ما يصلح حاله ، ويجمعه على الله مع مراعاة مصلحة الدين . . .

فمن أراد بعلمه الدنيا . فلا يقتدى به ، ومن أراد بعلمه توجه الناس إليه بالتعظيم والمحمدة ، فلا يعول عليه ، فما أغلى الوسيلة وما أحط الغاية ! ! فقد ورد عن سيدنا عمر رضى الله عنه أنه جاءه الصحابى الجليل تميم الدارى رضى الله عنه يستأذنه فى الدعوة إلى الله ونشر العلم بقوله : دعنى أدعو الناس وأذكرهم فقال له عمر رضى الله عنه : لا . فأعاد عليه فقال له : أنت تريد أن تقول أنا تميم الدارى فاعرفونى .

فانظر رحمك الله إلى نصح أمير المؤمنين لمثل هذا الصحابى الجليل ومنعه مما طلبته نفسه مما هو فى ذاته مطلوب شرعاً لما فهمه من حاله ولم يداهنه فيه فرضى الله عن الجميع » .

قيل لحكيم : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال : لأنهم تكلموا لعز

الإسلام . ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن تكلمنا لعز أنفسنا ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق .

قال مالك بن أنس رضى الله عنه « ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يقذفه الله تعالى فى القلوب » ، وجاء فى وصايا لقمان لابنه « جالس العلماء وزاحمهم ، فإن الله يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض الميتة بوابل المطر » .

وقال سيدى ابن عطاء الله « تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيث صار التنوير وصل التعبير » والحكماء هم العارفون بالله تعالى العالمون به ، والأنوار المنسوبة إليهم هى أنوار معرفتهم ، وهى قوة تصحبهم فى الأمور كلها بيد الله تعالى لا شريك له فيها ، فإذا أرادوا إرشاد عباد الله تعالى ونصيحتهم بإذن الله تعالى سبقت أنوار قلوبهم إلى الله بالالجأ والافتقار إليه فى أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية واستعداداً لقبول ما يريدون إلقاءه عليهم من الحكمة فيجيبهم إلى ذلك فإذا تكلموا به تلقته قلوبهم التى وصلت إليها أنوار أسرار الحكماء كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم انتفاع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » والهداية نوعان : هداية خلق وإيجاد وهى لله وحده « ولكن الله يهدى من يشاء » وهداية دلالة وإرشاد وهى للرسل والأنبياء ولورثتهم من العلماء « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

والعلم ما كانت الخشية معه « إنما يخشى الله من عباده العلماء » والخشية ناشئة عن التقوى . والتقوى علامة الولاية « إن أولياؤه إلا المتقون » قال تعالى

وجاملوا إخوانكم وأخدموا المسلمين ما أمكنكم ، وإياكم وترهات البطالين الذين يؤسونكم من الله بذكر تقصيركم ونقصكم ، ويعوصون عليكم طريقكم فما هى إلا الفرائض المشهورة تؤدى ، والمحرمات المعلومة تترك ، والسنن المأثورة تتعاهد ، وشكر ما قل وجل من النعمة ، واللجأ إلى الله فى كل ملمة ونعمة ، والفتح من الله ؛ فإنما على العبد الأسباب وعلى الله فتح الباب ، وأى فتح أعظم مما أنتم فيه من الاستناد لجناب الله ، والمحبة لأولياء الله فالحمد لله على ذلك وهو المرجو لتكميل ما هنالك ، وأوصيكم بوصية مباركة وهى أن تسلموا لكل أحد ما هو فيه من أعمال وأحوال وعلوم ، ولا تنازعوه بل تتركوه وما دفع إليه فمراد الحق منه ما هو عليه ، ولا تقتدوا بغير ما صح فى الكتاب والسنة وحسن دعاء وغيره ، فلكم أن تأخذوا بما اتضح معناه من الأدعية الواقعة للأولياء كالشاذلى ، ونحوه ولابن سبعين وشبهه ، وجانبوا طريقة البونى كل المجانبة ، وكذا كتب الحاتمى فانها قواطع وكذا كتب الغزالى فإنها متلفة إلا مع غيرها ، ودعوا الإكثار من النوافل إلا فى الندرة فان ذلك مما يخل ، وإياكم وتتبع الفضائل فإنه مدهش ، وعليكم بالجماعة والألفة ولاحظوا فى ذلك قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » الآية . وقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » الآية ونستودعكم الله ظاهراً وباطناً والسلام .

وقال رضى الله عنه أيضاً فيما كتب به لبعضهم إثر أذكار لقنها إياه : واعلم أيدك الله وحماك وأصلح آخرتك ودنياك ، أن مدار أمر الدين على

خمس هى أصوله الباطنة وعلو الهمة ، ونفوذ العزمة أى العزم ، وحسن الخدمة ، وحفظ الحرمة ، وشكر النعمة . فمن رفع همته أعلا الله درجته ، ومن أنفذ عزمته أوجب الله كرامته ومن أحسن خدمته يسر الله طاعته ومن حفظ الحرمة حفظ الله حرمته ، ومن شكر النعمة تمم الله عليه نعمته . فعلو الهمة شأن الفقير الصادق ولذلك لا يطمع ولا يرفع ولا يتبع ولا يخضع ومتى ترك واحدة من هذه فقد أخطأ طريقة ، وحرم توفيقه . ونفوذ العزمة شأن الأمير وإلا كان فى محل التقصير ، وحسن الخدمة شأن العابد وإلا كان متلاعباً متهاوناً ، وحفظ الحرمة شأن الفقيه وإلا كان فقهه رسماً لا حقيقة ، وشكر النعمة لازم كل ذى جد وأولى الناس السلاطين لأنهم فى محل النيابة ، وأركان الشكر فرح بالمنة ، وقيام بما أمكن من الحق ونفى ما يغير وجه الفضل .

والذى يجب لكم علينا حسن نصيحة واضحة بحسب الإمكان ، ودعوة صالحة على أى وجه كان والإكرام عند الملاقاة والسمع والطاعة فى هموم الأوقات والسلام والحمد لله على التمام .

وقد انتهت رسالة الأمهات هى ورسالة الأصول وهما عمدة الطريق ، وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم فى كل وقت وحين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الدعوة إلى الله

قال تعالى « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » أى ومن اتبعنى يدعو إلى الله على بصيرة ، والبصيرة : نور فى القلب منبعه الإخلاص قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » ومظهر البصيرة العلم والحكمة يقضى صاحبها بها ويعلمها « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » وليس كل عالم حكيما ، فالحكيم من أخلص لله فى عمله ، وأعطى الحكمة أهلها ومنعها عن غير أهلها ، وأفتى بعلمه لكل سائل ما يصلح حاله ، ويجمعه على الله مع مراعاة مصلحة الدين . . .

فمن أراد بعلمه الدنيا . فلا يقتدى به ، ومن أراد بعلمه توجه الناس إليه بالتعظيم والمحمدة ، فلا يعول عليه ، فما أغلى الوسيلة وما أحط الغاية ! ! فقد ورد عن سيدنا عمر رضى الله عنه أنه جاءه الصحابى الجليل تميم الدارى رضى الله عنه يستأذنه فى الدعوة إلى الله ونشر العلم بقوله : دعنى أدعو الناس وأذكرهم فقال له عمر رضى الله عنه : لا . فأعاد عليه فقال له : أنت تريد أن تقول أنا تميم الدارى فاعرفونى .

فانظر رحمك الله إلى نصح أمير المؤمنين لمثل هذا الصحابى الجليل ومنعه مما طلبته نفسه مما هو فى ذاته مطلوب شرعاً لما فهمه من حاله ولم يداهنه فيه فرضى الله عن الجميع » .

قيل لحكيم : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال : لأنهم تكلموا لعز

الإسلام . ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن تكلمنا لعز أنفسنا ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق .

قال مالك بن أنس رضى الله عنه « ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يقذفه الله تعالى فى القلوب » ، وجاء فى وصايا لقمان لابنه « جالس العلماء وزاحمهم ، فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر » .

وقال سيدى ابن عطاء الله « تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيث صار التنوير وصل التعبير » والحكماء هم العارفون بالله تعالى العالمون به ، والأنوار المنسوبة إليهم هى أنوار معرفتهم ، وهى قوة تصحبهم فى الأمور كلها بيد الله تعالى لا شريك له فيها ، فإذا أرادوا إرشاد عباد الله تعالى ونصيحتهم بإذن الله تعالى سبقت أنوار قلوبهم إلى الله باللجأ والافتقار إليه فى أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية واستعداداً لقبول ما يريدون إلقاءه عليهم من الحكمة فيجيبهم إلى ذلك فإذا تكلموا به تلقته قلوبهم التى وصلت إليها أنوار أسرار الحكماء كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم انتفاع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » والهداية نوعان : هداية خلق وإيجاد وهى لله وحده « ولكن الله يهدى من يشاء » وهداية دلالة وإرشاد وهى للرسل والأنبياء ولورثتهم من العلماء « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

والعلم ما كانت الخشية معه « إنما يخشى الله من عباده العلماء » والخشية ناشئة عن التقوى . والتقوى علامة الولاية « إن أولياؤه إلا المتقون » قال تعالى

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

روى أن الحواريين قالوا لسيدنا عيسى عليه السلام : يا روح الله صف لنا أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فقال عليه السلام هم الذين نطق بهم الكتاب وبه نطقوا ، وبهم علم الكتاب وبه علموا ؛ وبهم قام الكتاب وبه قاموا نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها وعاينوا آجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها ؛ فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم ؛ فصار ذكرهم فيها قوتاً ، وفرحهم فيها حزناً ما عارضهم منها رفضوه ؛ وما أشرف لهم بغير الحق وضعوه ؛ خلقت الدنيا عندهم فلم يجددوها ؛ وخربت فيما بينهم فلم يعمروها ، وماتت فى صدورهم فلم يحيوها بعد موتها وبنوا بها آخرتهم ؛ أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله تعالى ويحبون ذكره ، ويستضيئون بنوره ويضيئون به لهم الخبر العجيب وعندهم الخبر العجيب ،

وقال الزمخشرى فى الكشاف : « الولى من تولى الله بالطاعة فتولاه الله بالكرامة » والكرامة فى اصطلاح أهل السنة القائلين بها هى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مؤمن صالح غير مقرون بدعوى النبوة . فإن ظهر الخارق على يد مؤمن صالح فهو الكرامة ، أو على يد فاسق فهو الاستدراج ، وقد يقع الخارق لبعض عوام المسلمين تخليصاً له من محنة أو مكروه ويسمى معونة .

قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه : من لم يكن كارهاً لظهور

الآيات وخوارق للعادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصى ، فهو فى حقه حجاب وسترها عليه رحمة ؛ فإن من خرق عوائد نفسه لا يريد ظهور شىء من الآيات وخوارق العادات له . بل تكون نفسه عنده أقل وأحقر من ذلك . فإذا فنى عن إرادته جملة فكان له تحقق فى رؤية نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الألطاف والتحقق بمراتب الصديقين . . . اه

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : فائدة الكرامة أولا : تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية مجتمع لا يفترق وأمر لا ينفقد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد ؛ لا يستوى من تعرف الله إليه بنوره بمن تعرف إلى الله بعقله . ثانياً : ولأجل أنها تثبيت لمن ظهرت له ، ربما وجدها أهل البدايات فى بداياتهم ، وفقدها أهل النهايات فى نهاياتهم إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين . لا يحتاجون معه إلى تثبيت ، وهكذا كان السلف رضى الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه وتعالى إلى ظهور الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية ولا يحتاج الجبل إلى مرساه فالكرامة رافعة لزلزلة الشك فى المنة . ثالثاً : لمعرفة تفضيل الله تعالى فيمن أظهرت عليه وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه وتعالى .

والناس فى الكرامة على ثلاثة أقسام : قوم يجعلونها غاية الأمر فإن وجدوها عظموا من ظهرت عليه ، وإن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه . وقسم ثانى قال : ما هى الكرامات !! إنما هى خدع يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا على حدودهم حتى لا يلجوا مقاماً ليس هو لهم . . .

وليس الأمر كذلك إنما الخدع فى حال السكون إليها فأما من لم يفرح بها ولم يساكنها فتلك مرتبة الربانيين . ومن ظهرت عليه عظم لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله تعالى . القسم الثالث وهى أن تظهر الكرامة فى الولى لغيره فالمراد بذلك تعريف العبد الذى شهدها بصحة طريق هذا الولى الذى ظهرت عليه الكرامة إما أن يكون جاحداً فيرجع إلى الاعتراف أو كافراً فيعود إلى الإيمان أو شاكا فى خصوصية ذلك العبد ، فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الإحسان .

وقال : الكرامة الحقيقية . إنما هى حصول الاستقامة ، والوصول إلى كمالها ومرجعها أمران : صحة الإيمان بالله عز وجل ، واتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً فالواجب على العبد ألا يحرص إلا عليهما، ولا تكون له همة إلا فى الوصول إليهما ، وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين إذ قد يرزق بها من لم تكمل استقامته وقد يرزق بها المستدرجون .

وقال : « إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان . وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب ليس ذا حظ فى العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا . وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور ناقص أو هالك مثبور [1] » اهـ وجاء فى جوهرة التوحيد .

(١) مثبور : مصروف عن الخير .

وأثبتن للأوليا الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

فمن أنكر كرامات الأولياء فالدلائل النقلية من الكتاب والسنة ترد عليه ، والدلائل العقلية والمرئية تقيم الحجة عليه ، ويخشى على من هذا مذهبه سوء الخاتمة وحكمه إلى الله .

قال ابن عطاء الله : « ومن الناس فرقة أخرى صدقوا بكرامات الأولياء الذين لبسوا فى زمنهم كمعروف والسرى والجنيد وأشباههم وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم فهى كما قال الشيخ أبو الحسن : والله ما هى إلا إسرائيلية صدقوا بموسى وعيسى عليهما السلام وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنهم أدركوا زمنه ، وفرقة أخرى يصدقون بأن فى مملكة الله أولياء لهم كرامات من غير أن يسلموا ذلك لأحد من أهل زمنهم معيناً فكل من ذكر لهم أنه ولى أو نسبت إليه كرامة دافعوا إثبات ذلك بمقاييس اقتضتها عقولهم المعقولة بعقال الغفلة المخدوعة بمتابعة الهوى ، فلن يجدى عليهم هذا التصديق وجود الاقتضاء ولا إشراق نور الاهتداء . إذ الاقتداء لا يكون بولى مجهول العين فى كون الله بل إنما يكون الاقتداء بولى ذلك الله عليه ، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه ، فطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته ، فألقيت إليه القياد ، فسلك بك سبيل الرشاد يعرفك برعونات نفسك وكمائنها ودفائنها وبذلك على الجمع على الله ، ويعلمك الفرار عما سوى الله ، ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى الله ويوقفك على إساءة نفسك ، ويعرفك بإحسان الله إليك ، فيفيدك معرفة إساءة نفسك . الهرب منك وعدم الركون إليها .

ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه ، والقيام بالشكر إليه والدوام على تمر الساعات بين يديه ، فإن قلت فأين من هذا وصفه ؟ فقد دللتنى على أغرب من

عنقاء مغرب ، فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين وإنما يعوزك وجود الصدق في طلبهم ؛ جد صدقاً تجد مرشداً ، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » وقال تعالى « فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء ، والخائف للأمن ، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك ، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته ، لوجدت الحق منك قريباً ولك مجيباً ، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ، والتوجه الحق بتيسير ذلك إليك » اهـ

واعلم أن الداعين إلى الله الصادقين في دعوتهم لا يتعصبون لطريقتهم وإذا وجد أحدهم شيخاً أرقى منه تبعه ، وسلم القياد إليه لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جابر رضي الله عنه « أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي » (١) .

وكان أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لا يلزم المريد أن لا يرى غيره وكثيراً مايقول : « من وجد منهلا أعذب من هذا فليرده وليدعنا إليه » اهـ . ولا يعتمد على أولياء الله الذين في البرازخ في الإرشاد والدعوة الكاملة ، ولذلك يعمل شيخ الطريق على تربية وارثه في الدعوة إلى الله ، ويطلب ذلك من الله ومعه إخوانه صباح مساء ، وعلى الدوام في الوظيفة بقولهم « اسمع ندائي في بقائي وفنائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا » حيث دعا ربه قائلا « إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني » حتى إذا انتقل

(١) رواه أحمد باسناد حسن وابن حبان باسناد صحيح ورواه أحمد عن ابن عباس باسناد حسن أيضاً .

الشيخ إلى جوار ربه وجد الإخوان بينهم بعد وفاته من يقوم بتربيتهم والمحافظة عليهم .

قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله : الوارث للرجل هو الظاهر بعلمه وحاله ، وهو الذي تظهر طريق الموروث على يديه : يفسر مجملها ، ويبسط مختصرها ويرفع منارها ، ويبث أنوارها ، يعرف الناس بما كان ذلك الرجل عليه من العلم بالله ، والمعرفة ، والتعوذ ، والاحتظاء من نوره ، حتى إذا فرط الناس في محبته وتعظيمه في حياته استدركوا ذلك بعد وفاته ، لأن كل ما هو مقدور عليه مزهود فيه ، وكل معجوز عنه متطلع إليه بالشغف .

قال الشيخ أبو العباس : « يكون الرجل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالا ، حتى إذا مات قالوا كان فلان ، وربما دخل في طريق الرجل بعد وفاته أكثر ممن دخل فيها في حياته » .

وقال الشيخ جلال الدين السيوطي ناقلا عن تاج الدين ابن عطاء الله : واعلم أن مبنى أمر الأولى الاكتفاء بالله ، والقناعة بعلمه ، والاغتناء بشهوده قال تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال تعالى « أليس الله بكاف عبده » وقال تعالى « ألم يعلم بأن الله يرى » وقال تعالى « أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » فمبنى أمرهم في بداياتهم على الفرار من الخلق ، والانفراد بالملك الحق ، وإخفاء الأعمال ، وكتم الأحوال تخفيفاً لعنائهم وتثبيتاً لزهدهم ، وعملا على سلامة قلوبهم ، وحبا في إخلاص أعمالهم لسيدهم ، حتى إذا تمكن اليقين ، وأيدوا بالرسوخ والتمكين ، وتحققوا بحقيقة الفناء ، وردوا إلى وجود البقاء ، فهنالك إن شاء الحق أظهرهم هادين لعباده ، وإن شاء سترهم

فاقتطعهم عن كل شيء إليه ، وظهور الولى ليس بإرادته لنفسه ، ولكن بإرادة الله له ، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء ، فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد سبحانه إظهارهم فأظهرهم ؛ تولاهم فى ذلك بتأييده وواردات مزيده لقوله صلى الله عليه وسلم « يا عبد الرحمن بن سمره لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها » رواه الشيخان : ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهوراً ولا خفاء ، بل إرادته وقف على اختيار سيده له .

وقال الشيخ أبو العباس : من أحب الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبداً لله فسواء عليه أظهره أم أخفاه ، ويكون الولى مشحوناً بالعلوم والمعارف ، والحقائق لديه مشهورة ، حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن من الله فى الكلام ، ومن أذن له فى التعبير تهيأت فى مسامع الخلق عبارته ، وجليت لديهم إشارته ، وكلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة ، وكلام الذى لم يؤذن له مكسوف الأنوار ، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة ، فيقبل من أحدهما ويرد على الآخر . اه — ومعنى القبول أن تؤثر فى قلب السامع ، ويظهر أثرها فى هدايته وأعماله — قال : واعلم أن من أراد الله به أن يكون داعياً إليه من أوليائه ، فلابد من إظهاره إلى العباد إذ لا يكون الدعاء إلى الله إلا كذلك ، ثم لابد أن يكسوه الحق كسوتين : الجلالة والبهاء . أما الجلالة فلتعظمه العباد فيقفوا على حدوده ويضع له فى قلوب العباد هيبة ، وينصره بها ليكون إذا أمر ونهى مسموعاً أمره ونهيه ، وجعل هذه الهيبة فى قلوب العباد من تمكين الحق له ليعينه على

القيام له بالنصرة ، قال تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

وهذه الهيبة التى جعلها الحق فى قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لانبساط جاه المتبوع عليهم ألم تسمع قوله صلى الله عليه وسلم « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » ألبسهم الحق ملابس هيبته ، وأظهر عليهم إجلال عظمته ، كلما نزلوا إلى العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية ، فهم الملوك وإن لم تحقق عليهم البنود ، والأعزاء وإن لم تسر أمامهم الجنود . (انتهى ما نقله السيوطى عن ابن عطاء الله) .

وقال الجنيد رضى الله عنه : « لا يستحق الرجل أن يكون شيخاً حتى يأخذ حظه من كل علم شرعى وأن يتورع عن جميع المحارم ، وأن يزهد فى الدنيا . وأن لا يشرع فى مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه ، حتى يكون على علم يهدى به العباد ، فإذا مرض مريده بسبب شبهة فى علم التوحيد داواه ، أو تحير فى مسألة من مسائل الفقه أفتاه ، مع قناعة تورثه الغنى عن الناس ، وخوف يحجزه عن المعاصى والأدناس ، وملازمته العمل بالكتاب والسنة ، ثم قال : وإياك ومتابعة من لم يكن على هذه الأوصاف فإنه من جنود الشيطان ، واعتبر أقواله وأفعاله وأحواله وزنها بميزان الشريعة والطريقة ؛ فإن رأيت شيئاً مخالفاً لهما فرده ، فإن كان صاحب حال صحيح ورددته فما عليك من رده بحكم الشرع ، ولا تتخذه شيخاً ومرشداً . ولله در القائل :

وللشيخ آيات إذا لم تكن له ... فما هو إلا فى ليالى الهوى يسرى
إذا لم يكن علم لديه يظاهر ... ولا باطن فاضرب به لجج البحر
وإن كان إلا أنه غير جامع ... لوصفيهما جماً على أكمل الأمر

فأقرب أحوال العليل إلى الردى ... إذا لم يكن منه الطبيب على خبر
وآيته : ألا يميـــل إلى هوى ... فدنياه فى طى وأخراه فى نشر
وإن كان ذا جمع لأكل طعامه ... مريداً فلا تصحبه يوماً من الدهر
ولا تسألن عنه سوى ذى بصيرة ... خلى من الأهواء ليس بمغتر
ولا تقدمن قبل اعتقادك أنه ... مرب ولا أولى بها منه فى العصر
فإن رقيب الالتفات لغيره ... يقول لمحبوب السراية لا تسرى
ولا تعترض يوماً عليه فإنه ... كفيل بتشتيت المريد على هجر
ومن يعترض والعلم عنه بمعزل ... يرى النقص فى عين الكمال ولا يدرى
ومن لم يوافق شيخه فى اعتقاده ... يظل من الإنكار فى لهب الجمر
فذو العقل لا يرضى سواه وإن نأى ... عن الحق نأى الليل عن واضح الفجر
ولا تعرفن فى حضرة الشيخ غيره ... ولا تملأن عيناً من النظر الشذر
ولا تنطقن يوماً لديه فإن دعا ... إليه فلا تعدل عن الكلم النذر
ولا ترفعن بالضحك صوتك عنده ... فلا قبح إلا دون ذلك فاستقر
ولا تقعدن قدامه متربعاً ... ولا بادياً رجلا فبادر إلى الستر
ولا ترين فى الأرض دونك مؤمناً ... ولا كافراً حتى تغيب فى القبر
فإن ختام الأمر عنك مغيب ... ومن ليس ذا خسر يخاف من المكر

هذا ولا يصح أن يعتقد المريد فى شيخه العصمة ، ولكن يعتقد أنه عالم بالله ناصح لخلق الله . قال أبو القاسم القشيرى : إن المعصوم لا يلم بذنب البتة ، والمحفوظ قد تحصل منه هنات ، وقد يكون له فى الندرة زلات ولكن لا يكون له إصرار أولئك الذين يتوبون من قريب . .

وقال الطيبى صاحب حاشية الكشاف : لا ينبغى للعالم ولو تبحر فى العلم حتى صار واحد أهل زمانه أن يقنع بما علمه ، وإنما الواجب عليه الاجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الصراط المستقيم حتى يكون ممن يحدثهم الحق فى سرائرهم من شدة صفاء باطنهم ، وليخلصوه من الأدناس ، وأن يجتنب ما شاب علمه من كدورات الهوى وحظوظ نفسه ، الأمارة بالسوء ، حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه ، والاقتباس من مشكاة أنوار النبوة .

قال وقد بلغنا عن الإمام حجة الإسلام الغزالى رضى الله عنه أنه قال لما ترك الاشتغال بعلم النظر واشتغل بمجاهدة نفسه على مصطلح أهل الله : ضيعنا عمرنا كله فى البطالة ، فياخيبة مسعاى فى تلك الأيام ! ! فقيل له : ألست قد صرت بذلك حجة الإسلام ؟ فقال دعونا من هذه الترهات أما بلغكم قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ؟ قال وقد انكشف لى الآن أن جميع تلك الأسفار التى كنت أسافرها فى تحصيل العلوم وجمعها وكتابتها ، وتأليفها إنما كان لحب المحمدة ، والثناء بها علىّ بين الناس ، ولأقدم بذلك على أقرانى وأهل عصرى لا لله ولا لأجل أن أعمل أنا بها . فقيل له : أما كان أحد ينهاك من مشايخك عن شىء من هذه النقائص التى انكشفت لك الآن ، فقال لا بل ربما كان الشيخ يستغيب أقرانه فيقع معه تبعاً له ما عدا شيخنا إمام الحرمين رضى الله عنه فكان مجلسه مطهراً من ذكر نقائص الناس رحمه الله » اه .

وقد علمت أن النفوس سبعة فاعلم أن لكل نفس مقاماً يجاريها فى القلب مثل : التوبة ثم الزهد ثم الخوف ثم الشوق ثم الرضى ثم المحبة ثم المعرفة ، والشيخ

الكامل من أهدته بصيرته إلى حالة كل نفس وحقيقة كل قلب ، فأمر كل مريد بما يصلح قلبه ويساعده على الوصول . كما أنه لابد أن يكون عالماً بثمرة الأنوار الناتجة عن كل ذكر ، خبيراً بتأثير كل نور فى قلب مريده ، حتى يكون المريد فى مأمن من الجذب الذى يؤثر على العقل ، محظوظاً من اختلاف الأنوار التى تمنع من المسير .

قال سيدى أبو مدين رضى الله عنه « الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالتعظيم ، الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بأطراقه وأنار باطنك باشراقه ، الشيخ من جمعك فى حضوره ، وحفظك فى مغيبة » .

وقال سيدى ابن عطاء الله : ليس شيخك من سمعت منه إنما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك الذى أثرت فيك إشارته ؛ وليس شيخك من دعاك إلى الباب إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب ، وليس شيخك من واجهك بمقاله إنما شيخك من نهض بك حاله ؛ شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى ، شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك ، نهض بك إلى الله ، فنهضت إليه ، وصار بك حتى وصلت إليه ، ولا زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك فى أنوار الحضرة وقال : ها أنت وربك » .

« أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »

المبايعة

قال تعالى : «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » وقال « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » . وقد بايعوه صلى الله عليه وسلم على الموت .

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله عز وجل ، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك » رواه البخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية : « لا يشركن بالله شيئاً » قالت : « وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها » رواه البخارى .

وثبتت مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه جماعة بتلقينهم « لا إله إلا الله » فمن شداد بن أوس قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هل فيكم من غريب ؟ يعنى من أهل الكتاب . قلنا : لا يارسول الله ، فأمر بغلق الباب فقال: ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا الله فرفعنا أيدينا وقلنا: لا إله إلا الله ثم قال: الحمد لله اللهم انك بعثتنى بهذه الكلمة ، وأمرتنى بها، ووعدتنى عليها

الجنة وإنك لا تخلف الميعاد ، ثم قال صلى الله عليه وسلم ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم » (١) .

وأما تلقينه صلى الله عليه وسلم لأصحابه فرادى ، فذلك أن علياً رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله تعالى وأسهلها على عباده ، وأفضلها عند الله تعالى . فقال صلى الله عليه وسلم أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لرجحت بهم لا إله إلا الله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا على لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول لا إله إلا الله ، فقال على رضى الله عنه : كيف أذكر يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غمض عينيك واسمع منى ثلاث مرات ، ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع ، فقال صلى الله عليه وسلم لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضاً عينيه رافعاً صوته وعلى يسمع، ثم قال على كرم الله وجهه لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضاً عينيه رافعاً صوته والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع . وهذا أصل سند القوم (٢).

* * *

فالإمام على كرم الله وجهه هو الذى فصل حقائق العلم ، ووضح أصول

(١) أخرجه الطبرانى والحاكم ، وأخرجه أحمد من طريق اسماعيل بن عياش عن راشد ابن داود عن يعلى بن شداد ، قال حدثنى أبى شداد وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه فذكره ، وهذا إسناد حسن .

(٢) رواه ابن عباد فى المفاخر عن الشيخ يوسف الكوراني العجمي بسنده الصحيح .

التربية ، ومن قرأ نهج البلاغة للامام رضى الله عنه وجده يوضح كيفية شفاء القلوب وتطهيرها ، وكيفية الزهد فى الدنيا والإعراض عنها ، ومحاربة الشيطان ومعاداته ، ومجاهدة النفس والعمل على تزكيتها ، ومخالفة الهوى والإخلاص للمولى ، وما بنى التصوف إلا على هذه الدعائم .

وقد كانت المبايعة الفردية بتلقين لا إله إلا الله ، كما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه ، وعنه أخذ ابنه سيدنا الحسن رضى الله عنه ، وكذلك أخذ سيدى الحسن البصرى وعنهما تفرع سند أهل المبايعة والتلقين والمؤلفات فى إثبات سند القوم كثيرة فليرجع إليها من يشاء .

فلما تفشى فى المسلمين حب الدنيا ، واشتغالهم بالإمارة ومحاكاة أهل الممالك المفتوحة فى الترف ، زاد الداعون إلى الله فى التلقين مع كلمة التوحيد « اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم » وذلك لتتولد فى قلوبهم محبة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وتنقطع علائق الدنيا من قلوبهم ، فتتصل أرواحهم بروحه الشريفة ، ويتحقق لهم حسن المتابعة والاقتداء ، ويتهيأون لأنوار التوحيد التى تنشأ من الذكر بلا إله إلا الله .

ثم بعد ذلك اختلط المسلمون بالأجانب ، وكثرت الذنوب من زنا وربا وخمر وميسر وسرقة وغير ذلك، وامتلأت القلوب بالشهوات المختلفة والأمراض المتباينة ، فعميت وران عليها ما كثر من الكسب الحرام ، واقتراف المحرمات فزاد الداعون إلى الله فى التلقين « أستغفر الله » لأن الاستغفار يطهر القلوب ، ويمحو الذنوب ، ويهيىء القلوب لأنوار الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم التى تنورها وتوسع جنباتها وآفاقها بأحسن الاقتداء والمتابعة ، وتجعلها

أهلا لتعميرها بأنوار التوحيـــد الـكامل الذى يكون سبباً فى معرفة الله ، والمعرفة هى ما خلقنا الله لها حيث قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

الورد

وهو أن يقول المريد المتوجه إلى الله « إستغفر الله مائة مرة ؛ اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم ، مائة مرة ؛ لا إله إلا الله مائة مرة » .

وليس فى ذلك بدعة ولا شبه بدعة لأنهم متبعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم تمام المتابعة فى نوع الذكر وعدده .

ففى الاستغفار أحاديث كثيرة تبين فضله وفائدته ؛ وفى القرآن ما لا يخفى من الأمر بالتوبة والاستغفار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انه ليغان على قلبى ؛ وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه عشراً ؛ ومن صلى على عشراً صلى الله عليه مائة ؛ ومن صلى على مائة كتب الله بين عينيه براءة من النفاق ؛ وبراءة من النـار ، وأسكنه يوم القيـامة مع الشهداء » رواه الطبرانى عن أنس رضى الله عنه .

ومن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على

فى كل يوم مائة مرة ؛ قضى الله له مائه حاجة سبعين منهـــا لآخرته وثلاثين منها لدنياه » (١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتب له مائة حسنة ؛ ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك » رواه البخارى .

« فائدة » فى الأحاديث التى قدمناها دليـل على أن فى الأذكار ما يعتبر فيه الحصر ، والسبحة وسيلة إلى ضبط العدد الذى ورد الترغيب فيه .

وكان لأبى هريرة رضى الله عنه خيط فيه ألفـا عقدة فلا ينام حتى يسبح به (٢) .

وكان لأبى الدرداء نوى من نوى العجوة فى كيس فـكان إذا صلى الغداة أخرجهن واحدة واحدة يسبح بهن حتى ينفدن (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى سعيد الخدرى أنه كان يسبح بالحصى .

وهؤلاء الثـلاثة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعملوا المسبحة ، وفيهم أسوة حسنة ، لأنهم من النجوم الذين بأيهم اقتدينـا اهتدينا .

---

(١) أخرجه ابن منده وحسنه الحافظ أبو موسى المدينى .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وأبو نعيم فى الحلية .

(٣) أخرجه أحمد فى الزهد عن القاسم بن عبد الرحمن

التضحية

قال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » . وقال صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . وقال تعالى: « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

ومن الحكمة وقد فسد الزمن ، وضعفت همة المسلمين عن القيام بأداء الصلوات فى أوقاتها ، وخاصة صلاة الفجر التى ورد فيها « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » وتكاسل الناس عن تلبية داعى الحق لغلبة أهوائهم وشهواتهم ، وامتزاج لحومهم ودمائهم بظلمة المال الحرام ، وانطماس قلوبهم بظلمات المعاصى . . أقول : من الحكمة محافظة على شعائر الإسلام ، ومعالجة النفاق الذى من علامته ثقل صلاة الفجر والعشاء . أن يعين الإخوان واحداً منهم ليقوم قبل الفجر بالمدة الكافية لإيقاظهم جميعاً ، ويمشى ذاكراً الله رافعاً صوته بلا إله إلا الله ، حتى إذا وصل إلى منزل به أحد إخوانه ، وقف وذكر إسم الله ، حتى يستيقظ الأخ ويرد عليه بلا إله إلا الله وهكذا .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال لهم : ألا تصلون ؟ قال على : فقلت يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك ولم يرجع إلى شيئاً ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » . ومن هذا الحديث يؤخذ استحباب إيقاظ الناس للصلاة .

وأما تعيين أحد الإخوان واختياره لإيقاظهم . فقد روى البخارى عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : سرنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة ، فقال بعض القوم : لو عرست بنا يارسول الله ، قال أخاف أن تناموا عن الصلاة قال بلال : أنا أوقظكم ، فاضطجعوا ، وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه فنام فاستيقظ النبى صلى الله عليه وسلم وقد طلع حاجب الشمس ، فقال : يابلال أين ما قلت ؟ قال ما ألقيت على نومة مثلها قط . . الحديث » .

وأما الإيقاظ بذكر الله فقد روى البخارى من حديث عمران بن حصين الخزاعى رضى الله عنه « . . . وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نام لم نوقظه حتى يكون هو يستيقظ ، فإنا لا ندرى ما يحدث له فى نومه ، فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس ، وكان رجلا جليداً فكبر ورفع صوته بالتكبير ، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ لصوته رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » .

وأما فائدة النائم من إيقاظه بذكر الله وأن يستيقظ على ذكر الله أيضاً فقد روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان .

وحسب المصحى من الفضل أن يكون له مثل ثواب من تسبب فى إيقاظهم ، وحسبه أن يشهد له عند الله كل من يسمعه من الجن والانس

والملائكة وحتى الجمادات ستشهد له أيضاً . ولعل له فى هذا الحديث غنية وكفاية « أوحى الله إلى موسى إن فى أمة محمد لرجالا يقومون على كل شرف وواد ينادون بشهادة أن لا إله إلا الله جزاؤهم على جزاء الأنبياء » . رواه الديلمى عن أنس رضى الله عنه .

الذكر

قال سيدى ابن عطاء الله السكندرى :

الذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحق ؛ وقيل ترديد اسم المذكور بالقلب واللسان ، وسواء فى ذلك ذكر الله أو صفة من صفاته ، أو حكم من أحكامه ، أو فعل من أفعاله ، أو استدلال على شىء من ذلك أو دعاء ، أو ذكر رسله أو أنبيائه أو أوليائه ؛ أو من انتسب إليه أو تقرب إليه بوجه من الوجوه ، أو سبب من الأسباب أو فعل من الفعال بنحو قراءة أو ذكر ، أو شعر أو غناء أو محاضرة أو حكاية ، فالمتكلم ذاكر ، والمتفقه ذاكر ، والمدرس ذاكر ، والمفتى ذاكر ، والواعظ ذاكر والممتثل ما أمر الله به والمنتهى عن مانهى عنه ذاكر .

والذكر قد يكون باللسان وقد يكون بالجنان وقد يكون بأعضاء الإنسان وقد يكون بالإعلان والإجهار ، والجامع لذلك كله ذاكر كامل . فذكر اللسان هو ذكر الحروف بلا حضور وهو الذكر الظاهر ، وله فضل عظيم شهدت به الآيات والأخبار والآثار : فمنه المقيد بالزمان أو بالمكان ، ومنه المطلق :

فالمقيد : كالذكر فى الصلاة وعقبها ، والحج ، وقبل النوم ، وبعد اليقظة ، وقبل الأكل وعند ركوب الدابة وطرق النهار وغير ذلك .

والمطلق : ما لا يتقيد بزمان ولا مكان ولا وقت ولا حال فمنه ما هو ثناء على الله كما فى كل واحدة من هذه الكلمات : وهى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ومنه ماهو ذكر فيه دعاء مثل « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » الآية ، أو مناجاة وكذلك اللهم صل على سيدنا محمد ، وهو أشد تأثيراً فى قلب المبتدىء من الذكر الذى لا يتضمن المناجاة ، لأن المناجى يشعر قلبه بقرب من يناجيه وهو مما يؤثر فى قلبه ويلبسه الخشية ، ومنه ما هو ذكر فيه رعاية أو طلب دنيوى أو أخروى . فالرعاية مثل قولك : الله معى ، الله ناظر إلى ، الله يرانى ، فإنه فيه رعاية لمصلحة القلب ، وإنه ذكر يستعمل لتقوية الحضور مع الله تعالى ، وحفظ الأدب معه ، والتحرز من الغفلة ، والاعتصام من الشيطان الرجيم ، وحضور القلب مع العبادات . اهـ

والذكر أقرب الطرق إلى الله تعالى ، وهو علم على وجود ولايته ، كما قيل : الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أعطى المنشور ، ومن سلب الذكر فقد عزل .

والذكر أعظم باب أنت داخله ... لله فاجعل له الأنفاس حراساً

قال الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : الذكر عنوان الولاية ، ومنار الوصلة ، وتحقيق الإرادة ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة صفاء النهاية

فليس وراء الذكر شيء . وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ، ومنشؤها عن الذكر :

وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى ، ولو لم يرد فيه إلا قوله تعالى فى كتابه العزيز : « فاذكرونى أذكركم » وقوله عز وجل فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا عند ظن عبدى بى ؛ وأنا معه حين يذكرنى إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » لكان فى ذلك اكتفاء وغنية اهـ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ، ثم عذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر فإنه لم يجعل له حداً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه إلا مغلوباً على عقله ، وأمرهم بذكره فى الأحوال كلها » فقال عز من قائل : « فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم » وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » أى بالليل والنهار ، وفى البر والبحر والسفر والحضر ، والغنى والفقر وفى الصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .

وما من ذكر إلا وله نتيجة تخصه ، فأى ذكر اشتغلت به أعطاك ما فوقه والذكر مع الاستعداد هو الداعى إلى الفتح ، ولكن بما يناسب الذاكر .

قال الإمام الغزالى : الذكر حقيقة : نمو استيلاء المذكور على القلب ،

وانمحاء الذكر وخفاءه ، قال : لكن له ثلاث قشور بعضها أقرب إلى اللب من البعض ، واللب وراء القشور الثلاث ، وإنما فضل القشور لكونها طريقاً إليه ، فالقشر الأعلى ذكر اللسان فقط ، ولا يزال الذاكر يوالى الذكر بلسانه ، ويتكلف إحضار القلب معه إذ القلب يحتاج إلى موافقته حتى يحضر مع الذكر . ولو ترك وطبعه لاسترسل فى أودية الأفكار إلى أن يشارك القلب اللسان ، ويحرق نور القلب الشهوات والشياطين ، ويستولى ذكره فيضعف ذكر اللسان عند ذلك ، وتمتلىء الجوارح والجوانح بالأنوار ويتطهر القلب من الأغيار ، وينقطع الوسواس ، ولا يسكن بساحته الخناس ويصير محلا للواردات ، ومرآة صقيلة للتجليات والمعارف الإلهيات ، وإذا سرى الذكر إلى القلب وانتشر فى الجوارح فذكر الله كل عضو بحسب حاله ... الخ . اهـ

وقال سيدى ابن عطا الله السكندرى فى الحكم :

« لاتترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه ، فغفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز » .

مشروعيته من الكتاب والسنة

قال تعالى : « فاذكرونى أذكركم » وقال : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم » . وقال : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا » . وقال : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما » وقال : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . وقال : « واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار » وقال : « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا » وقال : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » وقال : ولذكر الله أكبر » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت » رواه البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم ما يقول عبادى ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال : فيقول هل رأونى ؟ قال : فيقولون لا والله ما رأوك ، قال : فيقول وكيف لو رأونى ؟ قال : يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً ، قال : يقول فما يسألونى ؟ قال : يقولون يسألونك الجنة ، قال : يقول وهل رأوها ؟ قال : يقولون لا والله يارب

ما رأوها ، يقول فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، قال فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون من النار ، قال : يقول وهل رأوها ؟ قال : يقولون لا والله ما رأوها ، قال : يقول فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة ، قال : فيقول أشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » . أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة ، قال حلق الذكر » (١) .

وعن جابر رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يأيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر فى الأرض ، فارتعوا فى رياض الجنة ، قالوا وأين رياض الجنة ؟ قال مجالس الذكر ، فاغدوا وروحوا فى ذكر الله » (٢) .

---

(١) أخرجه الترمذى وحسنه ، وأحمد والبيهقى وابن شاهين فى الترغيب .

(٢) أخرجه البزار والحاكم فى المستدرك وصححه ، وأخرجه أبو يعلى وابن أبى الدنيا والطبرانى والبيهقى عن عمر بن عبد الله مولى غفره وأخرجه غيرهم عن أبى هريرة ومعاذ بن جبل .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون » (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبق المفردون ، قيل : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون الله يوم القيامة خفافاً » (٢) .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأرفعها في درجاتكم ، وأزكاها عند مليككم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ، قالوا : بلى ! قال : ذكر الله » (٣) .

وفي حديث معاذ بن جبل : « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله » .

وفي رواية قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع ، قالها ثلاث مرات » (٤) .

هذا : وكل ما يرد في فضائل الذكر والاجتماع عليه والجهر والإسرار به فهو من أدلة مشروعيته .

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ، وأحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) رواه الترمذي ، وأخرجه الطبراني عن أبي الدرداء ، وأصله في صحيح مسلم .

(٣) رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٤) رواه الطبراني في معجميه الكبير والأوسط وابن أبي شيبة .

التحذير من ترك الذكر

قال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » .

وقال تعالى : « واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ، ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » وقال في ذم المنافقين : « ولا يذكرون الله إلا قليلا » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان عليهم حسرة يوم القيامة (١) .

وروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ، ومن اضطجع مضطجعاً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة » (٢) .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة ، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » .

وأخرج ابن السني عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه أبو داود والحاكم وصححه .

(٢) الترة : النقص والتبعة والحسرة والندامة .

عليه وسلم « وليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها » .

وقال سهل : « ما أعلم معصية أقبح من ترك ذكر هذا الرب » ، وقيل : لكل شيء عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن الذكر .

فضائل الذكر والاجتماع عليه

عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » (١)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل « من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطيت السائلين » (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الرب تبارك وتعالى : « من شغله قراءة القرآن ، وذكري عن مسألتي ، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » (٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول

(١) أخرجه مسلم والترمذي وصححه وابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجه وابن حبان والبيهقي وأبو نعيم .
(٢) رواه البخاري والبزار والبيهقي .
(٣) أخرجه الدارمي والترمذي والبيهقي في الشعب .

الرب يوم القيامه : « سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم » فقيل : ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر في المساجد » (١) .

قال موسى : « يا رب وددت أني أعلم من تحب من عبادك فأحبه ، قال : إذا رأيت عبدي يكثر ذكري ، فأنا أذنت له في ذلك ، وأنا أحبه ، وإذا رأيت عبدي لا يذكرني . فأنا حجبته عن ذلك وأنا أبغضه » (٢) .

وعن معاوية : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم ؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده فقال : « أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة » (٣) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله إلا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات » (٤) .

وعن ثابت قال : كان سلمان في عصابة يذكرون الله فمر النبي صلى الله عليه وسلم فسكتوا ، فقال : ما كنتم تقولون ؟ قلنا : نذكر الله ، قال : إني رأيت

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والبيهقي وسعيد بن منصور وابن حبان في صحيحه وابن شاهين في الترغيب .
(٢) رواه الدارقطني وابن عساكر من عمر .
(٣) أخرجه مسلم والترمذي وحسنه وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن حبان .
(٤) أخرجه أحمد وأبو يعلى وسعيد بن منصور والطبراني في الأوسط والبزار وأخرجه البيهقي عن عبد الله بن مغفل وأخرجه غيرهم .

الرحمة تنزل عليكم ، فأحببت أن أشاركم فيها ، ثم قال : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم » (١) .

وعن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : ألا أدلك على ملاك الأمر الذى تصيب به خيرى الدنيا والآخرة ؟ قل : بلى . قال : عليك بمجالس الذكر ، فإذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله . أخرجه الأصبهانى فى الترغيب .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله فى الغافلين بمنزلة الصابر فى الفارين » رواه البزار .

والأحاديث فى فضائل الذكر كثيرة غير هذه ونكتفى بهذا القدر .

الجهر بالذكر

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ أعلى منه » (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله : عبدى إذا ذكرتنى خالياً ذكرتك خالياً ، وإذا ذكرتنى فى ملأ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى الزهد والحاكم وصححه وأقره الحافظ الذهبى .
(٢) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه والبيهقى .

ذكرتك فى ملأ خير منه وأكثر » (١) والذكر فى الملأ لا يكون إلا عن جهر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة ، كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته (٢) .

وعن السائب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جاءنى جبريل فقال : مر أصحابك يرفعوا أصواتهم بالتكبير (٣) .

وعن أبى الجوزاء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراءون » (٤) .

ووجه الدلالة من هذا الحديث ومن حديث « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون » إن ذلك يقال عند الجهر دون الإسرار .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : إن الجبل لينادى الجبل باسمه : يا فلان هل مر بك اليوم ذاكر ؟ فإن قال نعم ، استبشر . ثم قرأ عبد الله :

(١) أخرجه البيهقى والبزار بسند صحيح .
(٢) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى .
(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه النسائى وابن ماجة والحاكم وغيرهم .
(٤) أخرجه البيهقى فى الشعب وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وغيرهم .

« لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه » الآية . وقال : أيسمعون الزور ولا يسمعون الخير ؟ ! (١)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض » قال : إن المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض الموضع الذى كان يصلى فيه ، ويذكر الله فيه .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى عبيد ، قال : إن المؤمن إذا مات ، تنادت بقاع الأرض : عبد الله المؤمن مات . فتبكى عليه الأرض والسماء . فيقول الرحمن : ما يبكيكما على عبدى ؟ فيقولان : ربنا لم يمش فى ناحية منا قط إلا وهو يذكرك (٢) .

قال الجلال السيوطى ووجه الدلالة من ذلك إن سماع الجبال والأرض للذكر لا يكون إلا عن جهر .

وعن زيد بن أسلم قال : قال ابن الأدرع : انطلقت مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة فمر برجل فى المسجد يرفع صوته ، فقلت يارسول الله عسى يكون هذا مرائياً ؟ قال لا ولكنه أواه » أخرجه البيهقى .

---

(١) أخرجه البيهقى وأخرجه ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وأبو الشيخ فى العظمة وابن أبى حاتم والطبرانى كلهم من طريق عون عن عبد الله .

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى فى الشعب .

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو النجادين « إنه أواه » وذلك أنه كان يذكر الله (١) .

وعن جابر بن عبد الله : أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر ، فقال رجل لو أن هذا خفض من صوته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعه فإنه أواه » (٢) .

عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة الأنصارى عن أبيه أنه أخبره : أن أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه قال له : أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت فى غنمك أو باديتك . فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة » قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه البخارى .

وكل من رفع صوته بالذكر يشهد له يوم القيامة كل شىء سمعه .

وأخرج المروزى فى كتاب العيدين عن مجاهد أن عبد الله بن عمر ، وأبا هريرة كانا يأتيان السوق أيام العشر فيكبران لا يأتيان السوق إلا لذلك .

وأخرج أيضاً عن عبيد بن عمير رضى الله عنه قال : كان عمر يكبر فى قبته ، فيكبر أهل المسجد ، فيكبر أهل السوق ، حتى ترتج منى تكبيراً .

وأخرج أيضاً عن ميمون بن مهران رضى الله عنه قال : أدركت الناس وأنهم ليكبرون فى العشر حتى كنت أشبهها بالأمواج من كثرتها .

---

(١) أخرجه البيهقى والطبرانى وابن مردويه .
(٢) أخرجه البيهقى وابن مردويه .

قال سيدى تاج الدين ابن عطاء الله : وينبغى إن كان الذاكرون جماعة ، فالأولى فى حقهم رفع الصوت بالذكر مع توافق الأصوات بطريقة واحدة موزونة . وذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيراً ، وأشد قوة فى رفع الحجب عن القلب ، ويحصل لكل واحد ثواب ذكر نفسه ، وثواب سماع ذكر غيره وشبه الله القلوب القاسية بالحجارة فى قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » ، والحجارة لا تنكسر إلا بقوة ، فكذلك قساوة القلب لا تزول إلا بالذكر القوى .

وقال سيدى جلال الدين السيوطى : الجهر بالذكر تتعدى فائدته للسامعين ، وهو أفضل فى البداية ، لأنه يوقظ القلب ، ويجمع الفكر ، ويطرد النوم ، ويزيد النشاط فإن قلت : قال تعالى « واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول » . قلت : الجواب عن هذه الآية من ثلاثة أوجه :

« الأول » أنها مكية لأنها من سورة الأعراف ، وكلها مكية ، كما قال ابن عباس وعبد الله بن الزبير ، كآية الإسراء : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » . وقد نزلت حين كان النبى صلى الله عليه وسلم يجهر بالقرآن فيسمعه المشركون فيسبون القرآن ومن أنزله ، فأمره الله بترك الجهر سداً للذريعة ، كما نهى عن سب الأصنام لذلك فى قوله : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » وقد زال هذا المعنى .

« الثانى » أن جماعة من المفسرين ، منهم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم شيخ مالك وابن جرير حملوا الآية على الذكر حال قراءة القرآن ، وأنه أمره

بالذكر على هذه الصفة تعظيما للقرآن أن ترفع الأصوات عنده ، ويقويه اتصاله بقوله : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » قلت وكأنه لما أمر بالإنصات خشى من ذلك الإخلال إلى البطالة فنبه على أنه وإن كان مأموراً بالسكوت باللسان ، إلا أن تمكين الذكر بالقلب باق حتى لا يغفل عن ذكر الله ، ولذا ختم الآية بقوله : « ولا تكن من الغافلين » .

« الثالث » ما ذكره السادة الصوفية : أن الأمر فى الآية خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم الكامل المكان . وأما غيره ممن هو محل الوساوس والخواطر الردية فمأمور بالجهر ، لأنه أشد تأثيراً فى دفعها . يؤيده ماأخرجه البزار عن معاذ ابن جبل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى منكم بالليل فليجهر بقراءته ، فإن الملائكة تصلى بصلاته ، وتسمع لقراءته ، وأن مؤمنى الجن الذين يكونون فى البوادى وجيرانه معه فى مسكنه يصلون بصلاته ويستمعون قراءته . وأنه يطرد بقراءته عن داره وعن الدور التى حوله فساق الجن ومردة الشياطين » . فإن قلت : فقد قال الله تعالى : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » ، فالجواب عنه من وجهين : « أحدهما » أن الراجح فى تفسيره أنه تجاوز المأمور به أو اختراع دعوة لا أصل لها فى الشرع يؤيده ما أخرجه ابن ماجه والحاكم فى مستدركه وصححه عن أبى نعامة رضى الله عنه : أن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه سمع ابنه يقول : اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة ، فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الدعاء ، وقرأ هذه الآية ، فهذا تفسير صحابى وهو أعلم بالمراد .

« الثانى » على تقدير التسليم ، فالآية فى الدعاء لا فى الذكر ، والدعاء بخصوصه الأفضل فيه الإسرار لأنه أقرب إلى الإجابة ، ولذا قال تعالى : « إذ نادى ربه نداء خفياً » .

فإن قلت : قد نقل عن ابن مسعود أنه رأى قوماً يهللون برفع الصوت فى مسجد ، فقال : ما أراكم إلا مبتدعين قلت : هذا الأثر عن ابن مسعود يحتاج إلى بيان سنده ، ومن أخرجه من الأئمة الحفاظ فى كتبهم ، وعلى تقدير ثبوته فهو معارض بالأحاديث الكثيرة الثابتة ، وهى مقدمة عليه عند التعارض ، ثم رأيت إنكار ذلك عن ابن مسعود ، قال الامام أحمد بن حنبل فى كتاب الزهد : حدثنا حسين بن محمد حدثنا المسعودى عن عامر بن شقيق عن أبى وائل رضى الله تعالى عنه قال : هؤلاء الذين يزعمون أن عبد الله — أى ابن مسعود — كان ينهى عن الذكر ما جالست عبد الله مجلساً قط إلا ذكر الله عز وجل فيه .

وأخرج أحمد فى الزهد عن ثابت البنانى رضى الله عنه قال : إن أهل ذكر الله ليجلسون إلى ذكر الله ، وإن عليهم من الآثار أثقال الجبال ، وإنهم ليقومون من ذكر الله تعالى ، وما عليهم منها شىء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . اهـ . (من كتاب نتيجة الفكر فى الجهر بالذكر للسيوطى بتصرف) .

وما رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبراً ، وقال لما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف

الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير : الله أكبر الله أكبر . لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعوا « أرفقوا » على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم » .

فاعلم أن هذا خاص بالحروب والغزوات ، وأنه كان من حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته إخفاء وجهته ، وحالة جيشه عن العدو ، فأمرهم أن يخفضوا أصواتهم فى هذه الحالة حتى لا يعلم العدو بهم ولا يعرف عددهم وقوتهم من أصواتهم ، ولم يرد أن يعلمهم الحكمة التى أرادها ، فقال لهم : إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، لأنه ليس فى هذا خلاف ، ولم يقل لهم اربعوا على أنفسكم حتى لا يعلم العدو بكم ، ويعرف عددكم وقوتكم شفقة منهم أن تأخذ بعضهم الحمية فيرفعوا أصواتهم معتزين بشجاعتهم غير مبالين بعدوهم فيقعوا فى مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتضيع عليهم حكمة إخفاء صوتهم وهى جهل العدو بهم ، وبهذا لا يكون هناك تعارض بين الأحاديث ويمكن الجمع بينها وهو أفضل والله أعلم .

الذكر صباحا ومساء

قال تعالى : « واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار » . وقال : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : عن رسول الله صلى الله عليه سلم فيما يرويه عن

ربه عز وجل : « ابن آدم أذكرنى بعد الفجر وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما » رواه مسلم وأبو نعيم .

وعن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بعض أبياته « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم ، وقال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم » (١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بعبد الله ابن رواحة وهو يذكر أصحابه ، فقال : أما أنكم الملأ الذين أمرنى الله أن أصبر نفسى معكم ، ثم تلا « واصبر نفسك » الآية . أما أنه ما جلس عدتكم إلا جلس عدتهم من الملائكة ، إن سبحوا الله سبحوه وإن حمدوا الله حمدوه ، وإن كبروا الله كبروه ثم يصعدون إلى الرب جل ثناؤه وهو أعلم بهم . . الحديث » (٢) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن أجلس مع قوم يذكرون الله بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس أحب إلى

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير وابن جرير .
(٢) رواه الطبرانى فى الصغير وابن مردويه بإسناد فيه ضعف .

مما طلعت عليه الشمس ، ولأن أجلس مع قوم يذكرون الله بعد العصر إلى أن تغيب الشمس أحب إلى من الدنيا وما فيها » (١) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى الفجر فى جماعة ، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة » (٢) .

وعن عمر رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث بعثاً قبل نجد فغنموا غنائم كثيرة ، وأسرعوا الرجعة ، فقال رجل ممن لم يخرج : ما رأينا بعثاً أسرع رجعة ولا أفضل غنيمة من هذا البعث ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلكم على قوم أفضل غنيمة وأسرع رجعة ، قوم شهدوا صلاة الصبح ثم جلسوا يذكرون الله حتى طلعت الشمس أولئك أسرع رجعة وأفضل غنيمة » (٣) .

ولما كان الناس فى زماننا قد تكالبوا على جمع الدنيا ، واجتهدوا فيما ضمن لهم من الرزق سعياً وراء العيش ، فأصبحت المدة التى بعد العصر تقضى فى هم الدنيا ، فليكن لاجتماع بعد المغرب بين العشاءين كما هى سنة الطريق .

(١) أخرجه البيهقى وابن أبى الدنيا والأصبهانى ، وفى رواية أبو يعلى وابن حبان وأبو داود « أحب إلى من أن أعتق أربعة من ولد اسماعيل » .
(٢) أخرجه الترمذى وحسنه ورواه الطبرانى بلفظ : انقلب بأجر حجة وعمرة . وقال المنذرى وإسناد الطبرانى جيد ورواه أحمد وابن جرير وصححه من حديث على كرم الله وجهه .
(٣) أخرجه الترمذى ، وأخرجه أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه والبزار من حديث أبى هريرة .

يؤيد هذا ما رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن ثوبان رضى الله عنه مرفوعا : « من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قراءة كان حقاً على الله أن يبنى له قصرين فى الجنة مسيرة كل منهما مائة عام . و يغرس له بينهما غراساً لو طافه أهل الدنيا لوسعهم » .

قال الغمارى : وهذا الحديث أورده الغزالى فى الإحياء ، وقال العراقى فى تخريجه لم أجد له أصلا من هذا الوجه ، لكن نقل السيد مرتضى الزبيدى عن الحافظ بن حجر أن الديلمى أسنده ، قال : والحديث الضعيف يصلح فى هذا المقام كما يعلم من كتب الأصول .

وما بين العشاءين وقت الغفلة كما قال ابن مسعود ، ولأن النفس تركن فى هذا الوقت إلى الدعة والاستراحة خصوصاً إذا كان ذا كسب وحرفة أو إلى الاشتغال بالأكل والشرب كما فى شرح الإحياء . اهـ

وقد ورد فى الحديث : « ذاكر الله فى الغافلين كالمقاتل بين الفارين » فإذا لم يتيسر بين العشاءين ، فليكن بعد العشاء حباً فى المصلحة ، وإحياء للشعائر . وجلباً للفائدة يؤيد ذلك ما ورد من حديث عائشة مرفوعاً : « أذيبوا طعامكم بذكر الله والصلاة ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم » (١) .

(تتمة) وأما الاجتماع على الذكر بعد صلاة الجمعة : فذلك لأفضلية يوم الجمعة يستحب زيادة أعمال البر فيه ، ولقوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » . وخير ما يبتغى من فضل الله ذكر الله ولذلك ختم الآية بقوله « واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط وابن السنى فى عمل اليوم والليلة .

فضل الصلاة على الرسول ﷺ

قال تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

والآية دالة على استمرار صلاة الله وملائكته على نبينا صلى الله عليه وسلم دائماً أبداً ، ثم أمر الله أهل العالم السفلى بالصلاة عليه والتسليم ليجتمع الثناء عليه صلى الله عليه وسلم من العالمين جميعاً .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى علىّ حين يصبح عشراً وحين يمسى عشراً أدركته شفاعتى يوم القيامة » (١) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى علىّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات ، وحط عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات » (٢) .

وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حيثما كنتم فصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى » صلى الله عليه وسلم (٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىّ صلاة » (٤) .

(١) رواه الطبرانى بإسناد جيد .
(٢) أخرجه النسائى وابن حبان فى صحيحه .
(٣) رواه الطبرانى وغيره بسند حسن .
(٤) أخرجه الترمذى وحسنه .

جميعاً لما سألوه صلى الله عليه وسلم « وكيف نصلى عليك ؟ قال : قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » الحديث .

وكان يكفى فى زمن وجوده صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، وفى زمن الصحابة والتابعين القريبى عهد بوجوده صلى الله عليه وسلم ، أن يذكر المسلم اسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيعلم من هو وما صفته وما مقامه ، وما هى درجته عند الله أزلا وأبداً فيحبه ويتبعه ويقتدى به ويتمثله فى أقواله وأفعاله وأخلاقه ، ولكن فى أزمنة غلبة الشهوة واتباع الهوى ، وحب الدنيا ، والاشتغال بها . وانطماس القلوب وانقطاعها عن حب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم — ولزمننا هذا سيد الأزمان فى هذه المميزات — فأصبح الناس لما ألفوا من الكلمة « محمد » ولما جهلوا من معناها ، لا يسمعونها إلا كما يسمعون الكلام ، ولا يذكرونها إلا كما يذكرون أى اسم كان ، بل ربما لو ذكر اسم — كنابليون أو هتلر — لاشتغلت أفكارهم بمعانى كثيرة من الصفات التى علموها من أخلاقهما وأخلاق غيرهما ممن عاصروهم أو سمعوا عنهم .

ولما كانت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تولد فى القلب محبته وبذلك يصح اتباعه فيكمل الدين ، وجب أن يذكر المسلم عند هذه الصلاة أفضل الصفات ، وأبرز المميزات ، وأعلى المقامات التى خص الله بها سيد خلقه وخاتم أنبيائه ، حتى تظهر له عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتجلى له مقامه وأخلاقه وشمائله ، والنفس تعشق كل كامل وجليل . وبتكرار هذه الصفات الدالة على ما يحمل اسمه صلى الله عليه وسلم ، وما اختص به تتولد المحبة ، وتتوثق الصلة ، ويتم الاتباع ، ويحسن الاقتداء .

وعن جابر رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم رقى المنبر ، فلما رقى الدرجة الأولى ، قال : آمين ، ثم رقى الثانية فقال : آمين ، ثم رقى الثالثة ، فقال : آمين ، فقال : يا رسول الله سمعناك تقول آمين ثلاث مرات ، قال : لما رقيت الدرجة الأولى جاءنى جبريل ، فقال : شقى عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يغفر له ، فقلت : آمين ، ثم قال : شقى عبد أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، فقلت : آمين ، ثم قال : شقى عبد ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقلت : آمين » (١) .

والأحاديث فى فضله صلى الله عليه وسلم وفضل الصلاة عليه كثيرة فمن أرادها فليبحث فى المؤلفات الكثيرة التى وضعت لهذا الغرض الشريف .

الصيغة الواردة والوظيفة الشاذلية

دلت الأحاديث المتقدمة على بعض فضائل الصلاة والتسليم على أفضل خلق الله على الإطلاق صلى الله عليه وسلم ، كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى بعظم شأن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنه سبحانه وملائكته يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، تنبيهاً لهممنا ، وإيقاظاً لعزائمنا حتى نكثر من الصلاة عليه ، فلما اختاره الله لنفسه وللملائكته وجب علينا اتباعه ، ثم أمرنا بالصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وألزمنا بها لعظيم فائدتها وما يعود من نفعها علينا ، فقال : « يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . ولم يعين لنا صيغة ولا هيأة سراً أو جهراً .

وورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه رضوان الله عليهم

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد وغيره وهو حديث حسن .

وكيف يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم صلى الله عليه وسلم خمس مرات فى الأذان كل يوم ثم حكمة ذكره فى كل صلاة ، ومخاطبته صلى الله عليه وسلم بأيها للحاضر القريب ، وما ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً ولا جزءاً من يوم ؛ كأن المسلم مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة ويسطع فى نفسه إشراق النبوة ، فيجعله مثله الأعلى وأسوته الحسنة .

ومن تأمل صيغة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم المسماة « بالوظيفة الشاذلية » التى يقرأها الإخوان صباحاً ومساء لوجد أنها اشتملت على وصف حقيقته صلى الله عليه وسلم وكمال مقامه ، وعلو صفاته ، وطهارة ذاته ، كما جمعت بعض فضل الله ونعمه على حبيبه وصفوته من خلقه ، مع الطلب من الله أن يلحق قارئها بنسبه ، ويحققه بحسبه الذى لا ينقطع لقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببى ونسبى » . كما يطلب من الله أن يحققه بالتوحيد الخالص الذى أرسل به صلى الله عليه وسلم وكل ما ورد فيها من الدعاء — فضلا عن أنه دعاء وللعبد أن يدعو بما يشاء — وما ورد فيها من آيات — فضلا عن أنها من القرآن — فقد وردت فيها عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تدل على فضائلها ، وتبين للانسان فوائدها ، وسنذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك » (١) .

ومن حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) روى مثله مسلم والطبراني والحاكم وفيه ثلاث مرات .

لرجل دخل عليه وبه ضر : « ألا أعلمك كلمات يذهب عنك الضر والسقم ؟ فقال أبو هريرة : أنا فعلمنى يا رسول الله . قال : قل يا أبا هريرة : توكلت على الحى الذى لا يموت . . الحديث » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم يضره شىء » (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم كنز من كنوز الجنة » رواه البخارى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقص الحديث — فقال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى لن يزال معك من الله حافظ لا يقربك شيطان حتى تصبح . وقال النبى صلى الله عليه وسلم: « صدقك وهو كذوب،ذاك شيطان » رواه البخارى .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » أى عن قيام الليل . رواه الشيخان .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ فاتحة الكتاب وآية الكرسى والآيتين من آل عمران (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة) الآية ، (وقل اللهم مالك الملك) إلى (وترزق من تشاء بغير حساب) معلقات ما بينهن وبين

(١) صححه الترمذى وحسنه والحاكم وابن حبان وابن أبى شيبة .

الله عز وجل حجاب ، قلنا : أتهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك ؟ فقال الله عز وجل : « بى حلفت لا يقرؤكن أحد من عبادى دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه، وإلا أسكنته حظيرة القدس ، وإلا نظرت إليه بعينى المكنونة كل يوم سبعين نظرة ، وإلا أعذته من كل عدو ونصرته عليه » (١) .

وروى الإمام النسفى فى تفسيره عند آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو » الآية . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ الآية عند منامه خلق الله تعالى منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة ، ومن قال بعدها : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة ، وهى لى عند الله وديعة ، يقول الله تعالى يوم القيامة : « إن لعبد عندى عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ فى ليلة ثلث القرآن ؟ فقالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن ؟ قال : قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » رواه الشيخان .

وفى رواية البخارى : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل « قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شىء » (٢) .

---

(١) ذكر هذا الحديث الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله فى كتاب مفتاح الفلاح .
(٢) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذى وصححه وحسنه .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط ؟ قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » وفى رواية « المعوذتين » رواه مسلم .

ومن حديث ابن عباس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته » رواه مسلم .

وقال تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم » ، فسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

لا إله إلا الله

قال تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » وإليك بعض فضائلها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل « لا إله إلا الله حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى » (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا

---

(١) رواه أبو نعيم وابن النجار وابن عساكر عن على .

لا إله إلا الله » وفى رواية « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بى وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وفى رواية البخارى « فإذا قالوها عصموا منى أموالهم ودماءهم » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد ظننت يا أباهريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه » رواه البخارى .

وفى الصحيحين عن عتبان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بها وجهه » .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « مفاتيح الجنة لا إله إلا الله » (١).

وحديث أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال موسى : يارب علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به قال : قل لا إله إلا الله ، قال : يارب كل عبادك يقولون هذا ، قال : قل لا إله إلا الله ، قال : إنما أريد شيئاً تخصنى به ، قال ياموسى « لو أن السموات والأرض السبع فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله » (٢)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا إله إلا الله والله أكبر كلمتان إحداهما

(١) رواه أحمد والبزار .
(٢) رواه ابن السنى والحاكم وابن حبان فى صحيحيهما .

ليس لها نهاية دون العرش ، والأخرى تملأ ما بين السموات والأرض » رواه الطبرانى ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جددوا إيمانكم ! » قالوا : يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : « أكثروا من قول لا إله إلا الله » (١) .

وعن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلا الله ومد بها صوته أسكنه الله دار الجلال ورزقه النظر إلى وجهه » رواه الديلمى .

الإسم المفرد

قال تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » وقال تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى » فقد قالوا فى سبب نزولها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « يا ألله يارحمن » فقالوا : أينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر معه ؟ فنزلت .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على الأرض من يقول : « الله الله » وفى رواية « حتى لا يقول أحد : الله الله » رواه مسلم .

وقال الجنيد رضى الله عنه : ذاكر هذا الإسم ذاهب عن نفسه ، متصل

(١) رواه أحمد والطبرانى .

بربه ، قائم بأداء حقه ، ناظر إليه بقلبه ، قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته . اهـ

وقال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه . ليكن ذكرك : الله الله ، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء ، وله بساط وثمرة ، فبساطه العلم ، وثمرته النور ، وليس النور مقصوداً لذاته ، بل لما يقع به من الكشف والعيان ، فينبغى الإكثار من ذكره ، واختياره على سائر الأذكار ، لتضمنه لجميع ما فى لا إله إلا الله من العقائد والعلوم والآداب والحقائق . . الخ .

وقال سيدى ابن عطاء رضى الله عنه ، وهذا الاسم أعظم التسعة والتسعين اسما لأنه دال على الذات الجامعة لجميع صفات الإلهية ، وسائر الأسماء لا تدل آحادها إلا على آحاد المعنى من علم ونحوه ، ولم يرد عن العرب قبل النبى صلى الله عليه وسلم ولا بعده أنه استعمل لفظ هذا الاسم على صيغته فضلا عن وضعه صفة لغيره ، وقبض الله تعالى بسط العقول والأرواح والقلوب فى ميدان هذا الاسم ، كما بسطهم فى ميدان الأسماء ، ولذلك لم يقع التجاسر ، ولا سنح للأفكار التسمية به مع وجود الجاحدين والقراعنة الطاغين وشدة كفرهم ، ولذلك كان كل اسم من أسمائه يصلح للتخلق إلا هذا الإسم فإنه للتعلق ؛ فينبغى أن يكون حظ العبد من هذا الإسم التأله ؛ وأعنى به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى لا يرى غيره ، ولا يلتفت إلى سواه ، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه ؛ ولا يصح التعلق بهذا الإسم إلا بعد التخلق بمجموع الأسماء : أقوالا وأفعالا وأحوالا ظاهراً وباطناً . . اهـ

والذاكر بهذا الإسم لا يكلم ولا يناجى مخلوقاً ، فلا يشترط أن يكون

ما يتفوه به كلاماً تاماً أو جملة مفيدة ، إذ المذكور أعلم بحال الذاكر من نفسه كما أن الذكر بهذا الإسم يساعد على تفرغ القلب من الاشتغال بغير المذكور ويحقق اعتقاد وحدانية مسماه ، ويثبت القلب عليها ، وهذا من الحكم التى من أجلها اختاره الكثيرون من أهل الذكر .

قال العارف المحقق شهاب الدين الغزالى : مادمت ملتفتاً إلى ما سوى الله فلا بد لك من النفى والإثبات بلا إله إلا الله ، وما دمت تعتمد على رياسة العلم والجاه ، فلا بد من النفى والإثبات بلا إله إلا الله ؛ وما دمت ترى فى الوجود سواه ، فلا بد من لا إله إلا الله ؛ فإذا غبت فى الكل عن الكل استوحشت من نفى لا إله ؛ ووقفت على إثبات إلا الله . قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون . اهـ

* * *

هذا ؛ والإسم المضمر هو الإسم المفرد ـ الله ـ وينطق بصيغة خاصة وهى إضمار اللامين وإسقاطهما فى الصدر لقرع باب القلب ، وملاصقة الذكر له وفى ذلك ما يساعد على صقل القلب وجلائه ، فلكل شىء مصقلة ، ومصقلة القلوب ذكر الله .

إسم الصـــدر (التأوه والأنين)

وسمى اسم الصدر لأنه ذكر القلب ولأن حروفه صدرية . قال تعالى : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » ، وقال « إن إبراهيم لأواه حليم » .

(الأواه)[1] هو الذى يكثر التأوه وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه ، قال الحسن وقتادة أنه الرحيم بعباد الله ، وقال ابن مسعود وعبيد بن عمير : أنه الدعاء كثير الدعاء ، وقال ابن مسعود وعطاء وعكرمة : أنه الموقن ، وقال سعيد بن المسيب والكلبي : إنه المسبح الذى يذكر الله فى الأرض الفقر الموحشة ، وقال عقبة بن عامر : إنه الكثير الذكر لله تعالى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل يقال له ذو النجادين إنه أواه وذلك إنه كان يكثر ذكر الله ، وقال عطاء : هو الراجع عما يكره الله ، الخائف من النار ، وقال أبو عبيدة : هو المتأوه شفقاً ورفقا ، المتضرع إيقاناً ولزوماً للطاعة ، وقال عبد العزيز بن يحيى : هو الشفيق ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يسمى الأواه لشفقته ورأفته ، وقال أبو ذر : هو المتأوه ، وقال الفراء : إنه الكثير التأوه من الذنوب ، وروى القرطبى وابن جرير : كان إبراهيم عليه السلام يقول : (آه من النار قبل أن لا تنفع آه) وقال أبو ذر : كان رجل يكثر الطواف بالبيت ويقول فى دعائه : ـ أوه أوه ـ بتسكين الواو ـ فشكاه أبو ذر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « دعه

(١) مراجعنا فى التفسير : الخازن ، والقرطبى ، والفخر الرازى ، والبيضاوى ، والجلالين ، وحاشية الجمل على الجلالين ، والنسفى .

فإنه أواه » ، فخرجت ذات ليلة ، فإذا النبى صلى الله عليه وسلم يدفن هذا الرجل ليلا ومعه المصباح ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأواه هو الخاشع المتضرع » .[1]

(التأوه) أن تقول : « آه » أو « أوه » بتشديد الواو ، أو « أوه » بتسكينها ، أو « أو » بتشديد الواو وحذف الهاء ، وقال الخازن والقرطبى : هو أن يسمع للصدر صوت تنفس الصعداء .

والسبب فيه : أنه عند الحزن تحمى الروح داخل القلب ويشتد حرها فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق من القلب ليخفف بعض ما فيه من الحزن والشدة .

وقد وصف الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأواه فى موضعين من القرآن مادحاً له ، والمدح للأمر حث على فعله ما فى ذلك شك ، فالتأوه اقتداء بسيدنا إبراهيم عليه السلام ممدوح مثله ، وخاصة أن الله سبحانه وتعالى قال : « وأوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا » فلم تنسخ شريعة الإسلام ملة إبراهيم عليه السلام كما نسخت شرائع غيره من الأنبياء السابقين .

ومن المعلوم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان من أولى العزم من الرسل ، والرسل جميعاً ذاكرون لله على كل أحيانهم ، فقد روى مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه ، فسيدنا إبراهيم عليه السلام كان فى تأوهه ذاكراً لله

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله ابن شداد بن الهاد ، وقال الحافظ العمارى مرسل .

لا شك فى ذلك ، يؤيد هذا ما ذكره الإمام الرافعى فى ذكر أخبار قزوين ونقله عنه سيدى جلال الدين السيوطى فى الجامع الصغير ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندنا عليل يئن ، قلنا له : اسكت فقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « دعوه يئن فإن الأنين إسم من أسماء الله تعالى يستريح إليه العليل » . ورواه الديلمى فى مسند الفردوس ، ونقله الحافظ ابن حجر العسقلانى ، فى زهر الفردوس وهذا لفظه ، عن عائشة قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى البيت مريض يئن ـ فمنعته عائشة ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياحميراء ، أما شعرت أن الأنين إسم من أسماء الله عز وجل يستريح به المريض » . قال العلامة العزيزى وشيخه : حديث حسن لغيره ، وقد فسر العلامة المناوى الأنين بآه وقصره على ذلك ووافقه العزيزى والأمير والباجورى والجنيهى والقاوقجى ومن على شاكلتهم من العلماء والأولياء .

قال العلامة الأمير فى حاشيته على جوهرة التوحيد عند قول المصنف : (حتى الأنين فى المرض كما نقل) ينبغى للمريض أن يقول « آه » لوروده إسماً من أسماء الله تعالى ، ولا يقول : « أخ » لأن « أخ » إسم من أسماء الشيطان . اهـ ، وقال الإمام الباجورى فى حاشيته (تحفة المريد على جوهرة التوحيد) : وينبغى للمريض أن يقول « آه » لأنه ورد أنه إسم من أسمائه تعالى ، ولا يقول « أخ » لأنه إسم من أسماء الشيطان . اهـ ، وقال العلامة الجنيهى فى أصدق النصائح : إن آه اسم جليل لله سبحانه ، وقال العارف بالله القاوقجى فى منظومته (سألتك يا الله والدمع دافق) .

سألتك بالإسم المعظم قدره بآه وبوه ياظهور وبدعق

وأهل الطريق لهم فى بيان أسراره وإظهار سواطع أنواره مما شاهدوه حساً ومعنى من الذكر به ، ووجداناً وذوقا ، مما لا تدركه العقول المعقولة بالغفلة ، ولا تتحمله القلوب المحجوبة بالهوى والشهوة ، واعتراض العقول على ماهو من خواص القلوب ، لا ينافى صحته عند أهل القلوب ، ولا يعول على ما يقولونه ، لأنهم فى هذا الباب فى حكم الجاهلين .

لماذا فضله أهل التربية والسلوك ؟

علمت مما ذكرناه أن التأوه من أعمال الروح ، وعلامة على وجود الخشوع والتضرع والخوف والرجاء والرحمة فى القلب ، ودليل محبة العبد لمولاه ، وتولهه فى محبته ، وشوقه إليه ، فهذه الأحوال السنية ، والمقامات العلية هى سبب حدوثه ، فإذا فقدت من القلب ، فلا ينبغى أن يقع اليأس منها ، ووجب التكلف لاجتلابها قياساً على قوله صلى الله عليه وسلم : « فإن لم تبكوا فتباكوا » فكثرة التأوه تساعد على إيجاد هذه الصفات وحصول هذه المقامات فى قلب الذاكرين ، فكما أنه من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، ومن أكثر من ذكر شيء أحبه ، كذلك من خشع وتضرع أكثر من التأوه ، ومن أكثر من التأوه تحقق بالخشوع والخضوع ، والوسائل لها حكم المقاصد ، وما لا يتوصل إلى المطلوب إلا به فهو مطلوب ، والمزية لا تقتضى الأفضلية ، لهذا ولغيره فضله السادة الشاذلية واتخذوه وسيلة لزيادة جلاء القلوب وتوسيع جنباتها ، وتعميرها بأصدق الأحوال ، وتقلبها فى أرقى المقامات ، بعد أن أكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكثروا من الذكر بكلمة التوحيد والإسم المفرد .

قراءة القرآن فى المسجد
ورفع الصوت به

عن أنس رضى الله عنه قال : بينما نحن فى المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابى . فقام يبول فى المسجد — وذكر الحديث إلى أن قال — ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه — يعنى الأعرابى — ثم قال : « إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القذر إنما هى لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن » رواه مسلم .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأ فى المسجد ، فقال : « رحمه الله ، لقد أذكرنى كذا وكذا آية أسقطتهن من سورة كذا وكذا .

وزاد عباد بن عبد الله عن عائشة : تهجد النبى صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فسمع صوت عباد يصلى فى المسجد فقال : يا عائشة أصوت عباد هذا ؟ قلت : نعم . قال : اللهم ارحم عباداً » رواه البخارى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم .

الإنشاد والسماع فى المسجد

عن سعيد بن المسيب قال : مر عمر فى المسجد وحسان ينشد ، فقال : كنت أنشد وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبى هريرة فقال : أنشدك بالله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أجب عنى اللهم أيده بروح القدس ؟ قال : نعم . رواه البخارى .

وعن البراء رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان : أهجهم أو هاجهم وجبريل معك . رواه البخارى .

وأخرج البخارى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه مرفوعاً : « إن من الشعر لحكمة » .

وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينقل اللبن مع القوم فى بناء المسجد وهم يرتجزون ويقولون :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

وعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى خيبر فسرنا ليلا ، فقال رجل من القوم لعامر : ياعامر ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ وكان عامر رجلا شاعراً ، فنزل يحدو بالقوم يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما أبقينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا السائق ؟ قالوا : عامراً بن الأكوع ، قال : يرحمه الله . . » الحديث . رواه البخارى .

وذكر القسطلانى فى المواهب أن أبا بكر بن الأنبارى روى أنه لما أنشد كعب بن زهير قصيدته المشهورة فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصل إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به . .

رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه بردة كانت عليه ، وأن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف ، فقال : ما كنت لأوثر ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً ، فلما مات كعب ، بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً فأخذها منهم .

وأخرج الشيخان من حديث أنس رضى الله عنه أن أنجشة كان يحدو بالنساء فى السفر .

وقال الإمام الغزالى فى الإحياء : لم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضى الله عنهم وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره . اهـ

مما ذكرناه يتضح أن الشعر والإنشاد إذا كان مما يشوق السامع إلى الله ، أو يخوفه منه ، أو يشوقه إلى الجنة ، أو يخوفه من النار ، أو كان مدحاً فى سيد الأكوان صلى الله عليه وسلم ، معيناً على الطاعة منفراً من المعاصى حاثاً على الاتصاف بحميد الصفات ، والابتعاد عن قبيح السادات ، فلا شىء فيه بل مستحباً لما يترتب عليه .

وقال الإمام الغزالى فى باب آثار السماع وآدابه : واعلم أن الوجد ينقسم إلى هاجم ، ومتكلف ويسمى التواجد ، وهذا التواجد منه مذموم وهو الذى يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ، ومنه ما هو محمود ؛ وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها بالحيلة ؛ فإن للكسب مدخلا فى جلب الأحوال الشريفة ، ولذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء عند قراءة القرآن أن يتباكى فى قوله صلى الله عليه وسلم : « اتلو القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » (١).

فكذلك الأحوال الشريفة لا ينبغى أن يقع اليأس منها عند فقدها بل ينبغى أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره . اهـ

وقال الغمارى : إن الذكر بالأنغام يسهل على النفس الإكثار منه بلا سآمة ولا مشقة ، فالأنغام مع الذكر وسيلة إلى خصلتين محبوبتين ، وذلك لأن الإكثار من الذكر محبوب ؛ كما أن حمل النفس على ما تطيقه من الأعمال محبوب كما ثبت فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها مرفوعاً : « وعليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا » .

وإذا كان كذلك ، فالأنغام مع الذكر مستحبة ، لأن ما ثبت المقاصد يثبت للوسائل » اهـ .

أو ما ترى الإبل التى هى ويك !! أغلظ منك طبعاً
تصغى إلى صوت الحداة وتقطع البيداء قطعاً

(١) أخرجه ابن ماجة بإسناد جيد من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .

آداب الذكر الجهرى

الذكر الجهرى له آداب ثلاثة : آداب سابقة ، وآداب مقارنة ، وآداب لاحقة ، وكل قسم من هذه الثلاثة له ظاهر وباطن .

فظاهر الآداب السابقة : أن يكون الذاكر طاهر الثوب ، طيب الرائحة متوضئاً نقياً من الحرام كسباً وغذاء .

وباطنها : أن يطهر قلبه بالتوبة الصادقة ، ويتخلى عن جميع الأمراض القلبية ويتبرأ من حوله وقوته ، ويدخل الحضرة متحققاً بذله وفقره واحتياجه إلى نفحات الله وفضله .

وأما ظاهر الآداب المقارنة : أن يجلس حيث انتهى به المجلس إذا كان الإخوان جلوساً ثم ينتظم فى صفهم عند قيامهم ، وإذا كانوا وقوفاً ذكر خلفهم بذكرهم حتى يتنبه له أقربهم ويفسحوا له ليدخل بينهم ، فإذا أراد أن يخرج لعذر طارىء وصل بين من على جانبيه بلطف ، وخرج حتى لا يقطع عليهما اشتغالهما بالمذكور ، وأن يكون متحداً معهم فى اهتزازهم فلا يشذ عنهم بمخالفة أو نقص أو زيادة ، وأن يجتهد فى إخفاء صوته فى أصواتهم حتى لا يكون مميزاً بينهم .

وباطنها : أن يجاهد فى طرد وساوس الشيطان وهواجس النفس ، وعدم الاشتغال بأمور الدنيا ، ويجتهد فى الحضور بقلبه وهمته فيما هو فيه من الذكر ، وما يرد عليه من واردات وأحوال منتهزاً لما يمن الله به عليه من تجليات أفضاله .

وأما ظاهر الآداب اللاحقة : أن يستمع بعد الذكر المذاكرة العلمية إن كان بعد الذكر درس ، وإلا فيصمت عن الكلام فى مختلف الأمور الدنيوية مادام فى مكان الذكر ، ويمتنع عن الأعمال المنافية للآداب ليعود جوارحه السكون .

وباطنها : أن يصمت بقلبه عن الخواطر والالتفاتات الظلمانية منتظراً عطاء مولاه من أجر ونور ، ثم يخرج عاقداً همته جامعاً نيته على أن يعود إلى أول مجلس من مجالس الذكر بلى هذا الاجتماع :

المحافظة على الحضرتين

وسمى مجلس الذكر بالحضرة إشعاراً لقلب الذاكر أنه فى حضرة مولاه القائل « أنا جليس من ذكرنى » حديث قدسى .

وأول فائدة للحضرة تفضيل العبد لمجلس الله على مجالس مخلوقاته ، وخاصة مجالس الغيبة والنميمة واللهو واللعب والحظوظ النفسية ؛ فيأمن معصية مولاه ، والمحافظة على حضرتى الصباح والمساء تساعد على المحافظة على أوقات الصلاة ، وإتمام إقامتها « فما كل مصل مقيم » .

وذلك بأن العبد لا يحضر حضرة الصباح إلا بعد صلاة الصبح ؛ ولا يحضر حضرة المساء إلا بعد صلاة المغرب ، ويجلس لسماع العلم حتى يصلى العشاء ، هذا إذا تهيأت الأسباب لإقامة الحضرة بعد المغرب ، كما هى سنة الطريق ، وإلا فبعد صلاة العشاء ، ومن حافظ على صلوات الصبح والمغرب

والعشاء ، لا يعدمه أن يواظب على صلاتى الظهر والعصر فى وسع النهار .

وأما إتمام إقامة الصلاة : فذلك بأن من تحقق بالآداب السابقة ، فقد جاهد الشيطان ووساوسه ، والنفس وهواجسها مدة الحضرة ، وهذه المدة قد تزيد على نصف ساعة فى بعض الأوقات ، ومن تمكن من الحضور مع الله فى هذه المدة مع استغراق قلبه بنور الذكر ساعده ذلك على : السكون ، والحضور فى الصلاة ، وعدم الالتفات والسهو ، فتتم صلاته ، وتكون بذلك أرجى للقبول . وما أتم الفرض فهو فرض من باب لا يتم الفرض إلا به ، فافهم .

وذكر حضرة الصباح يترك فى القلب أثراً مدة من النهار ، وذكر حضرة المساء يترك فى القلب أثراً مدة من الليل ، وبالمداومة تطول مدة أثر كل منهما ، ويقوى تأثيره حتى يتصل أثر الصباح بذكر المساء ، وأثر المساء بذكر الصباح ، وبذلك يدوم الذكر فى القلب ، ويستمر الحضور ، ويتشرف العبد بدوام مجالسة الله .

كما أن المحافظ على الحضرتين حائز لفضل المتحابين فى الله : الذين اجتمعوا عليه وتفرقوا عليه ، المتزاورين فيه ، المتباذلين فيه ، الذى أوجب الله على نفسه محبتهم ، ومحبة الله أغلى شىء يحرص عليه المخلصون .

حكمة اختيار الذكر وترتيبه

ترتيب الذكر فى الحضرة كالآتى : قراءة الوظيفة ، والذكر بكلمة التوحيد قعوداً ، والذكر بالأسماء : المفرد ، والمضمر ، واسم الصدر قياماً ، ثم يجلسون لسماع القرآن ، ويختمون الذكر بكلمة التوحيد ثانياً ، وذلك ليتحقق للحاضرين فضل الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً .

فالوظيفة وقد سبق بيان حكمتها ، تقرأ فى بدء الذكر لتعدد معانيها ، واختلاف دعواتها ، وما فيها من تعوذ بالله . وتحصن به جل شأنه ، وتبرى الذاكر من حوله وقوته ، ورجوعه إلى حول الله وقوته ، والاكتفاء به تعالى وطلب رحمته ، وتفويض الأمر ، وتسليمه إلى مولاه ، مع إثبات الكمال له والإقرار بذلك ، والعلم مع اليقين بأن ما يجرى فى الكون من شؤون فالله فاعله ، ورؤية فضل الله على رسوله وصفوته من خلقه صلى الله عليه وسلم ، وما أفاض عليه من كمال ، ومعرفة فضائل الأوقات والعمل على إحيائها بالطاعات ، كل هذا وغيره ينتقل بالعقل فى أودية العلوم ، ويطهر الفكر من شواغل الأغيار ، ويهيىء القلب لتلقى الأنوار المنطوية فيما يأتى بعد ذلك من الأذكار .

ولاختيار الأسماء وترتيبها فوائد تتعلق :

بالعقل ، ثم بالقلب ، ثم بالروح .

الفائدة العقلية

فالذكر بكلمة التوحيد مع مدها لاستحضار جميع الأغيار والنقائص فى النفس بلا إله مع تنزيه الله عن النقائص ، واستحضار جميع الكمالات فى الإثبات بالا الله ، ثم بعد ذلك ينقطع النفى ويستمر الإثبات بذكر اسم الله مفرداً لفظاً ، وموصوفاً بما يناسب حال كل ذاكر عقلا ، فتتسع مدارك العقل وتمتلىء بحقائق التوحيد .

ثم ينتقل الذاكر إلى الإسم المضمر فتقرع اللام المضمرة فى الصدر قلبه ، فيتنبه ويستعد لتلقى الأنوار التى تسرى فى جوانب القلب سرياناً لطيفاً ، وتشتد مسرعة شيئاً فشيئاً بالانتقال من الذكر الممدود إلى المقصور ، حتى يصقل القلب ، ويتخلى من الأوزار والأغيار ، ويتهيأ للأنوار الصافية القوية الناشئة من الذكر باسم الصدر فيمتلىء القلب خشوعاً وخضوعاً ، ويتهيأ للتفكر الكامل ، ويصير أهلا لفهم قوله تعالى : « ما وسعنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » .

الفائدة القلبية

قال الإمام البونى فى كتاب شمس المعارف الكبرى ، فى علم طبائع الحروف : إن من الحروف ما هو مائى ، ومنها ما هو نارى ، ومنها ما هو من الطبيعتين الأخريين ، ويختلف تأثير الأسماء على قدر اختلاف طبائع الحروف المكونة لها ، فإذا كانت الحروف النارية والمائية متساويتين فى

الإسم مثلا كانت درجة تأثيره معتدلة ، وإذا كانت الحروف النارية أكثر زادت حرارة تأثير الإسم بقدر هذه الزيادة وهكذا .

وأسماء الله سبحانه وتعالى يختلف تأثيرها فى القلب تهييجاً وتلطيفاً باختلاف طبائع الحروف المتكونة منها ويتحقق ذلك عملا .

فلا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

فاسم الجلالة « الله » يتكون من أربعة أحرف « ا . ل . ل . ه » الألف والهاء من الأحرف النارية ، واللامان من الأحرف المائية ، فتأثيره فى القلب معتدل ، فيذكر الإخوان به مع مد اللامين فتكون الرطوبة أزيد من الحرارة على قدر المد ، ثم يسرعون فى الذكر فتتعادل الحرارة والرطوبة ، ثم ينتقلون إلى الإسم المضمر ، وفيه تسقط اللامان فى الصدر ، فيصيرا لاما فى الصورة ويكون تأثير حرارة الإسم ضعف الرطوبة ، وبالتكرار مع الإسراع تشتد الحرارة ، فتحرق ظلمات الحرام والشهوات والأغيار ، ويزداد جلاء القلب ، ثم ينتقلون إلى الذكر باسم الصدر وحرفاه من الحروف النارية ، فتشتد حرارة الذكر ، وتقضى على البقية الباقية من الأغيار ، ويتولد من استمرارها نور يملأ القلب ، ويسرى فى البدن ، ويجرى فى جسم الذاكر مجرى الدم ، فيمنع الشيطان ، ويمتزج بالدم واللحم والعظم « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » وهذا من الفوائد الملموسة من التدرج بهذه الأذكار « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى » (١) .

قال سيدى ابن عطاء الله : والذكر مذهب من الجسد الأجزاء الزائدة الحاصلة من الإسراف فى الأكل ومن تناول اللقم الحرام ، وأما الحاصلة من الحلال فلا يد له عليها ، فإذا احترقت الأجزاء الخبيثة ، وبقيت الأجزاء الطيبة سمعت من كل جزء ذكراً . . . إلى أن قال . . : ومن سمع منه شىء من هذه الأصوات ، فقد سبح الله وقدسه بكل لسان ، وذلك نتيجة ذكر اللسان بقوة الاستغراق ، وربما صار العبد إلى حالة إذا سكت عن الذكر يتحرك القلب فى الصدر حركة الولد فى بطن أمه يطلب الذكر . . . إلى أن قال . . وذكر القلب شبه زنة النحل لا صوت رفيع مشوش ، ولا خفى شديد الخفاء ، وإذا استمكن المذكور من القلب ، وانمحى الذكر وخفى ، فلا يلتفت الذاكر إلى الذكر ، ولا إلى القلب ، فإن ظهر له فى أثناء ذلك التفات إلى الذكر أو إلى القلب ، فذلك حجاب شاغل وذلك هو الفناء » اهـ إلى آخر ما قال من العلوم السنية والأسرار الخفية .

فالذكر الخفى ثمرة امتزاج الدم واللحم والعظم بأنوار الطاعات والأذكار فتتحرك ذرات الجسم بالذكر والتسبيح تحقيقاً لقوله تعالى « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » .

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقى والعسكرى من حديث سعد بن أبى وقاص وأخرجه أبو يعلى وابن حبان وصححاه .

ذكر القرطبى فى تفسيره : وكان إبراهيم عليه السلام ، إذا قام يصلى سمع وجيب قلبه على ميلين » . وجيب القلب : خفقانه واضطرابه .

وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل . رواه القاضى عياض فى الشفاء .

حققنا الله بهذه الحالات ، وأكرمنا بهذه المقامات بفضله ومنه ، إنه على ما يشاء قدير .

ويجعل لكم نوراً تمشون به

قال تعالى : والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » .

فارتفعت همة الشاذلية عن أن يعبدوا الله خوفاً من ناره وطمعاً فى جنته ، ولكن اعترافاً بالعبودية ، وإقراراً بالربوبية ، ولم يقنعوا من الجزاء بالأجر فقط ، بل طمعوا فى مزيد النور والمعرفة « يهدى الله لنوره من يشاء » .

وذلك لأن الأجر يكتب فى الصحائف ، والنور يودع فى القلوب ؛ والصحائف تسلم يوم الحساب ، ولكن النور يلازم صاحبه فى الدنيا وفى القبر ، ويدخله فى ظل عرش الله يوم التناد ؛ وإذا ملأ النور القلب وامتزج بالجسم ، قوى العبد على الطاعة وحجزه عن المعصية ، فيعمل الطاعات من غير مشقة ، ويترك المعاصى من غير تكلف ، وساعده على القيام فى الأسحار لأن نور السحر إذا مس الجسم النورانى أنعشه وأيقظه ، فيجفوا مضجعه ،

الفائدة الروحية

سبق بأن الذكر بلا إله إلا الله لنفى النقائص وإثبات الكمالات لله ، والذكر بالاسم المفرد لإثبات التفريد الحق لله ، فالانتقال بعد هذا إلى الذكر باسم الصدر هو لحقيقة التوجه إلى الله بالقلب ، فتقوى الروح بواردات الأذكار وثمراتها وتحن إلى أصلها النورانى ، فتصفو وتتهيأ لسماع القرآن من أحد الإخوان عند الجلوس ، فيزداد تأثير القرآن فيها ويتم نفع العبد به ثم يرجعون إلى الذكر بلا إله إلا الله ثانياً ليتحقق العبد بالتوحيد الكامل .

فكأن العبد بانتقاله فى مدارج أنوار الذكر فى الحضرة يقطع مقامات : التوحيد ، والتفريد ، والتجريد ، فيحثه ذلك إلى التحقق بها ، فيشتد عزمه ، وتنهض همته للسير والوصول ، وبدوام هذه الحال . وتكرارها صباحا ومساء يتحقق العبد بقول مولاه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

الذكر السرى

وهذا الذكر تزداد فائدته ، وتكثر ثمراته لمن قويت همته ، وصفت سريرته ، ولان قلبه بالمداومة على الذكر الجهرى ؛ ويتدرج الإخوان فيه شيئاً فشيئاً على هذا الترتيب : الاستغفار ، الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا إله إلا الله ، قراءة القرآن فى الأسحار وجميع الأوقات للحافظين المجودين « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » فيبتدئون بالاستغفار ، ويكثرون منه ليل نهار ، فإذا ما تحققوا بالتوبة الصادقة ، وطهرت قلوبهم أكثروا من الصلاة

على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا ما ظهرت عليهم آثارها ، وعمتهم أنوارها ؛ وتغلغلت فى قلوبهم محبة المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ وتشرفوا باحسان الاقتداء به ؛ وإكمال تبعيته : حالا وخلقاً ، ينتقلون إلى الذكر بلا إله إلا الله فتعمر قلوبهم بأنوارها ، ويتحققون بالتوحيد الكامل ؛ ومنهم من يتهيأ لتلقى الذكر الخاص من حضرة الشيخ ، فيديم الذكر به ليساعده على التحقق بمقامات الواصلين العارفين .

ويستحب أن يكون الذاكر فى خلوة بعيداً عن الناس ، متوضئاً ، متطيباً ، مستقبلا القبلة ، متحققاً بآداب الذكر الجهرى السابق ، مراعياً قلبه فقد يدخل الرياء إليه فى خلوته ، وذلك بأن يتشوق لاطلاع الخلق عليه ، ومعرفة حاله غير قانع بعلم الله فيه ، وقد تكون الخلوة بالقلب ، وذلك بإسقاط الخلق فيكون معهم بجسمه غائباً عنهم بقلبه »

« فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. » الآية .

الذكر الخفى

إعلم يا أخى — وفقنى الله وإياك وهدانا إلى منابع العلم الصافية — أن هناك سراً ، وهناك أخفى من السر ، لقوله تعالى : « يعلم السر وأخفى » . وقيل : الخفى هو ما كان من دائرة خاصة لا يطلع عليه شيطان فيفسده ، ولا ملك فيكتبه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى » (١) .

قال سيدى ابن عطاء الله : والذكر مذهب من الجسد الأجزاء الزائدة الحاصلة من الإسراف فى الأكل ومن تناول اللقم الحرام ، وأما الحاصلة من الحلال فلا يد له عليها ، فإذا احترقت الأجزاء الخبيثة ، وبقيت الأجزاء الطيبة سمعت من كل جزء ذكراً . . . إلى أن قال . . : ومن سمع منه شىء من هذه الأصوات ، فقد سبح الله وقدسه بكل لسان ، وذلك نتيجة ذكر اللسان بقوة الاستغراق ، وربما صار العبد إلى حالة إذا سكت عن الذكر يتحرك القلب فى الصدر حركة الولد فى بطن أمه يطلب الذكر . . . إلى أن قال . . وذكر القلب شبه زنة النحل لا صوت رفيع مشوش ، ولا خفى شديد الخفاء ، وإذا استمكن المذكور من القلب ، وامحى الذكر وخفى ، فلا يلتفت الذاكر إلى الذكر ، ولا إلى القلب ، فإن ظهر له فى أثناء ذلك التفات إلى الذكر أو إلى القلب ، فذلك حجاب شاغل وذلك هو الفناء » اهـ إلى آخر ما قال من العلوم السنية والأسرار الخفية .

فالذكر الخفى ثمرة امتزاج الدم واللحم والعظم بأنوار الطاعات والأذكار فتتحرك ذرات الجسم بالذكر والتسبيح تحقيقاً لقوله تعالى « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » .

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقى والعسكرى من حديث سعد بن أبى وقاص وأخرجه أبو يعلى وابن حبان وصححاه .

ذكر القرطبى فى تفسيره : وكان إبراهيم عليه السلام ، إذا قام يصلى سمع وجيب قلبه على ميلين » . وجيب القلب : خفقانه واضطرابه .

وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل . رواه القاضى عياض فى الشفاء .

حققنا الله بهذه الحالات ، وأكرمنا بهذه المقامات بفضله ومنه ، إنه على ما يشاء قدير .

ويجعل لكم نوراً تمشون به

قال تعالى : والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » .

فارتفعت همة الشاذلية عن أن يعبدوا الله خوفاً من ناره وطمعاً فى جنته ، ولكن اعترافاً بالعبودية ، وإقراراً بالربوبية ، ولم يقنعوا من الجزاء بالأجر فقط ، بل طمعوا فى مزيد النور والمعرفة « يهدى الله لنوره من يشاء » .

وذلك لأن الأجر يكتب فى الصحائف ، والنور يودع فى القلوب ؛ والصحائف تسلم يوم الحساب ، ولكن النور يلازم صاحبه فى الدنيا وفى القبر ، ويدخله فى ظل عرش الله يوم التناد ؛ وإذا ملأ النور القلب وامتزج بالجسم ، قوى العبد على الطاعة وحجزه عن المعصية ، فيعمل الطاعات من غير مشقة ، ويترك المعاصى من غير تكلف ، وساعده على القيام فى الأسحار لأن نور السحر إذا مس الجسم النورانى أنعشه وأيقظه ، فيجفوا مضجعه ،

ويقف مع المحبين يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، والنور فى القلب لا يترك للشيطان مكاناً ، ولا يبقى فى النفس شهوة ، ولا للهوى من ميول إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتخلص العبادة ، ويحل فى القلب دوام المراقبة ، فيعبد الله كأنه يراه ، وهذه أرقى مراتب الإحسان ، وبهذا النور يطهر الجسم فلا يتطرق إليه البلى ، ويحرم على الأرض أن تأكله بعد الفناء .

عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه : « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوقى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

وقال كريب : لقيت رجلا من ولد العباس ، فحدثنى بهن فذكر : عصبى ولحمى ودمى وشعرى وبشرى وذكر خصلتين » رواه البخارى .

فوائد الذكر إجمالا

قال سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

من رام فوائده فليتبع النصوص الواردة بفوائده ، وليست بالقليل وليس إلى حصرها من سبيل ، وذكر الأئمة له فوائد جمة ، فلنذكر الخاطر على الخاطر فنقول : الذكر يطرد الشيطان ويمنعه ويكسره ، ويرضى الرحمن ويسخط الشيطان ، ويزيل الهم عن القلب والغم ، ويجلب الفرح والسرور ، ويذهب الترح والشرور ، ويقوى القلب والبدن ، ويصلح السر والعلن ،

ويبهج القلب والوجه وينوره ، ويجلب الرزق وييسره ، ويكسو الذاكر مهابة ، ويلهم به فى كل أمر صوابه ، ودوامه للمحبة سبب من الأسباب ، وهو لها من أعظم الأبواب ، ويورث المراقبة الموصلة لمقام الإحسان ، الذى فيه يعبد الله العبد كأنه بالعيان ، ويورث الإنابة ، فمن أكثر الرجوع بذكره أورثه الرجوع إليه فى سائر أمره ، ويورث القرب من الرب ، ويفتح باب المعرفة فى القلب ، ويورث العبد إجلالا وهيبة لربه ، والغافل حجاب الهيبة رقيق على قلبه ، ويورث ذكر الله للعبد ، وهو أعز شرف وأعلى مجد ، وبه يحيا قلب البشر ، كما يحيى الزرع بوابل المطر ، وهو قوت الأرواح ، كما أن الغذاء قوت الأشباح ، وجلاء القلب من صداه ، الذى هو الغفلة واتباع هواه وهو للفكر كالسراج الهادى فى الظلمة إلى المنهاج ، ويحط الذنوب والخطيئات ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ويزيل الاستيحاش الحاصل بين الرب وبين العبد الغافل ؛ وما يذكره العبد من نحو تسبيح وتكبير وتهليل وتمجيد ، يذكرن بصاحبهن حول العرش المجيد ، والعبادات كلها فى يوم الحشر تزول عن العبد ، إلا ذكر الله والتوحيد والحمد ، ومن تعرف إلى الله فى الرخاء بذكره ، تقرب إليه فى الشدة ببره .

وفى الأثر : إن العبد المطيع الذاكر لله تعالى إذا أصابته شدة أو سأل الله حاجة قالت الملائكة : يا رب صوت معروف من عبد معروف ، والغافل المعرض عن الله إذا دعاه أو سأله قالت الملائكة : يا رب صوت منكر من عبد منكر ، ولا عمل من الأعمال ، أنجى منه من عذاب الله ذى الجلال ، وهو للعبد سبب لنزول السكينة عليه ، وحفوف الملائكة به

ونزولها لديه ، وغشيان الرحمة ، وما أجل ذلك من نعمة ، وهو للسان شاغل عن الغيبة والكذب وكل باطل ، والذاكر لا يشقى به جليسه ، ويسعد به أنيسه ، ومجلسه لا يكون عليه حسرة يوم القيامة ، ولا يكون عليه ترة ولا ندامة ؛ والذكر مع البكاء والعويل ، سبب لنيل ظل العرش الظليل ؛ يوم الجزاء الأكبر والوقوف الطويل .

ومن كان ذكر الله له عن المسألة شاغلا ، أعطى أفضل ما أعطى سائل ، ويتيسر على العبد فى عموم الأوقات وأكثر الحالات ، وحركة الذكر على اللسان، أيسر حركة على الإنسان ، وهو غراس الجنان ، والجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، كما جاء فى الأحاديث الحسان . وهو سبب للعتق من النيران ، والأمان من النسيان ،فى الدنيا ودار الهوان ، وشاهده فاذكرونى أذكركم كما جاء فى القرآن، نسيان العباد لله ينسيهم أنفسهم وذلك غاية الفساد ، وهو نور للعبد فى دنياه وقبره ونشره وحشره ، وهو رأس الأصول ، وباب الوصول . ومنشور الولاية الذى به على النفس والهوى يصول ، وإذا رسخ فى القلب ووقع ، وصار اللسان له كالتبع ؛ استغنى الذاكر وارتقى وارتفع.

والغافل وإن كان ذا مال فهو فقير ، أو ذا سلطان فهو حقير ، ويجمع على الذاكر قلبه المتفرق ؛ وشمل إرادته وعزمه المتمزق ، ويفرق حزنة وذنبه ، وجند الشيطان وحزبه ؛ ويقرب من قلبه الآخرة ، ويبعد عن قلبه الدنيا وإن كانت حاضرة ؛ وينبه القلب الغافل ؛ بترك اللهو والباطل ، ويستدرك مافات ، ويستعد لما هو آت ، وهو شجرة ثمرتها المعارف ؛ ورأس

مال كل عارف ؛ والله مع الذاكرين بالقرب والولاية ؛ والمحبة والتوفيق والحماية ؛ ويعدل عتق الرقاب ، والجهاد ومشقاته الصعاب ، والقتل فى سبيل الله والعطب ، وإنفاق الورق والذهب ، وهو من الشكر رأسه وأصله وأساسه ومن لم يزل لسانه رطبا بذكره ، واتقى الله فى نهيه وأمره ، أوجب له دخول جنة الأحباب ، والاقتراب من رب الأرباب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ويدخل الجنة وهو يضحك ويتبسم ، ويتقلب فيها ويتنعم ، ويذهب من القلب القساوة ، ويورثه اللين والطراوة .

والغفلة للقلب داء ومرض ، والذكر شفاء له من كل داء وغرض ، كما قيل :

إذا مرضنا تداوينا بذكركموا وتترك الذكر أحياناً فننتكس

وهو أصل موالاة الله وأسها . والغفلة أصل معاداته ورأسها ، وإذا استولت الغفلة على العبد ، ردته إلى معاداته الله أقبح رد ، وهو رافع للنقم ودافع ، وجالب للنعم وكل نافع ، وموجب لصلاة الله عليه والملائكة الكرام فيخرج من الظلمات إلى النور ويدخل دار السلام ، ومجالس الذكر رياض الجنات والرتع فيها يرضى الرحمن .

والله تعالى يباهى بالذاكرين ملائكة السماء ، فمنزلته من العبادات أرفع وأسمى ، وأفضل الأعمال أكثرهم لله ذكراً فى سائر الأعمال . وهو ينوب عن سائر الأعمال ، سواء كانت متعلقة بمال أو بغير مال ، ويقوى الجوارح ، ويسهل العمل الصالح ، وييسر الأمور الصعاب ، ويفتح مغلق الأبواب ،ويخفف المشقة ، ويقصر الشقة ، وهو أمن للخائف ونجاة من المتالف .

والذاكر من العمال فى ميدان السباق إلى حيازة قصب السبق سباق ؛

وسوف نرى إذا انجلى الغبار. أفرساً ركبت أم حماراً، وهو سبب لتصديق الرب لعبده، لأنه مخبر عن جلاله وجماله وحمده .

ودور الجنة بالذكر تبنى، فالغافل لا يبنى له فى الجنه مغنى . والأذكار سد بين العبد وبين النار، فإن كان الذكر مستمراً دائماً كان السد جيداً محكماً، وإلا كان واهياً منخرماً .

الذكر نار لا تبقى ولا تذر ، فإذا دخل بيتاً لا يترك فيه عيناً ولا أثر ، ويذهب الأجزاء النابتة من الطعام ، الزائدة على الشبع والحرام ، ويذهب الظلمات وينبت الأنوار الساطعات ، والملائكة تستغفر للعبد إذا لازم الذكر والحمد ، والبقاع والجبال تباهى بمن يذكر الله عليها من الرجال ، وهو سمة المؤمن الشاكر ، والمنافق قليلا ما يوجد ذاكرا ، ومن ألهاه ماله وولده عن الذكر فهو خاسر .

وللذكر لذات أحلى من لذات المطعومات والمشروبات ، ووجه الذاكر وقلبه يكسى فى الدنيا نضرة وسروراً ، وفى الآخرة وجهه أشد بياضاً من القمر ونوراً ، وتشهد له البقاع ، كما تشهد لكل عامل عصى وأطاع ؛ وهو يرفع العامل إلى أعلى الدرجات ، ويوصله إلى أعلى المقامات .

والذاكر حى وإن مات ، والغافل وإن كان حياً فهو من جملة الأموات

ويورث الرى من العطش عند الموت ، والأمن من المخاوف عند خوف الفوت ، والذاكر فى الغافلين كبيت مظلم فيه مصباح ، والغافلون كليل مظلم ليس له مصباح ، والذاكر إن شغله عن الذكر شاغل فقد تعرض للعقوبة،

وإن كان عن ذلك غافل ، فمن جلس مع الملك بغير أدب ، أسلمه ذلك إلى العطب ، والحضور فى الذكر ساعة حمية عن تخليك المعاصى بالطاعة ، والحمية وإن كانت قليلة فلها منفعة جليلة » اهـ .

وما تنفقوا من شىء فهو يخلفه

قال تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً » .

علمت مما تقدم أن عوالم الإنسان : الجسم والقلب والروح ، وعلمت أن الله جلت قدرته جعل لكل عالم من هذه العوالم رزقاً يناسبه : فرزق الجسم المال والصحة . ورزق القلب العلم والحكمة ، ورزق الروح النور والمعرفة ، وفى كل نوع من أنواع هذه الأرزاق : أغنياء وفقراء . قال تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » .

ولما كان الإنفاق من الأرزاق فيما يرضى الله سبباً فى الاخلاف ومضاعفته وشكر النعم يستوجب مزيدها لقوله تعالى : « ولئن شكرتم لأزيدنكم » فقد وجب الشكر على كل غنى من أغنياء هذه الأرزاق ، فشكر المال إنفاقه فيما أمر الله به من أوجه الخير .

وشكر العلم والحكمة تنفيذ ميثاق الله سبحانه وتعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا فى إثنتين : رجل آتاه

الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق » . أخرجه الشيخان والترمذى .

وورد : « لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ، ولا تعطوها لغير أهلها فتظلموها » .

وورد أيضاً : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » وعن سيدنا على كرم الله وجهه : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله :

وأغنياء الأنوار : هم الرسل والأنبياء وورثتهم من بعدهم من الصديقين والشهداء الذين لهم أجرهم ونورهم قال الله تعالى : « ويجعل لكم نوراً تمشون به » وقال : « وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » .

وعليهم شكراً لهذه النعم الجليلة ، أن يعطوا الطالبين المستحقين ، والراغبين المحتاجين ، من الذين شهدوا عجزهم ودوام اضطرارهم لله ، المنكسرة قلوبهم من أجله .

ويندرج عطاؤهم فى إشارة باليد ، أو من القلب إلى القلب ، أو بغير ذلك مما يدركه أهل هذا العالم ، ولهم فى ذلك قدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلت يارسول الله إنى أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه قال : « أبسط ردائك » فبسطته ، فغرف بيديه ثم قال : « ضمه » فضممته فما نسيت شيئاً بعد ذلك .

وروى البخارى أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « اللهم علمه الكتاب » فتحقق له ذلك ،

فكان بحر العلم ، وحبر الأمة ، ورئيس المفسرين ، وترجمان القرآن .

وممن يستحقون الإمداد والمساعدة : المريد الصادق المخلص الذى سلك الطريق على يد شيخ ضعيف الخبرة بأسرار التربية ، فظهرت على المريد لوائح ثمار الأعمال ، وخصائص الأحوال ، وكادت أنوار طاعاته وأذكاره وفتوحاته ، تدك جبال عقله ، فتخرجه من ديوان العقلاء ، وتقطعه عن إتمام السفر فى طريق الكمال ، فهذا يعطونه ما يحتاج إليه مما أعطاهم الله : ما يقويه ويثبته بحكم إقامتهم فى الدعوة إلى الله ببصيرتهم على قدر وراثتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعندهم أن من أدركوه فى مثل هذا الحال إلى أهله ردوه ، ومن انتسب إليهم بحكم التربية احتفظوا به وكملوه « وفوق كل ذى علم عليم » والله أعلم .

* * *

فيا من فاتتك المنة فى نفسك لا يصح أن يفوتك التصديق بها فى غيرك فتحرم الخير كله .

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

قال تعالى : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

نظرة عامة فيما عليه الشاذليون

قال تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما » .

بعد ما أثبتنا من الأدلة الصحيحة القوية ما فيه الكفاية لإقامة الأدلة على صحة ما يعمله السادة الشاذليون ، وما أوردنا من الأحكام ما فيه غنية وكفاية على رد افتراءات أهل الضلال ، وإرغام أنوف المبتدعين من الجهلة الجهال ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ، نذكر طرفاً مما هم عليه من الهداية لعل فيه هدى لمن يريدون اتباع سبيل الرشاد ، فنقول : إنهم يعبدون الله بأجسامهم وقلوبهم وأرواحهم لتتحقق لهم مقامات الدين من : إسلام ، وإيمان ، وإحسان .

ويتحرون الحلال ، ويتورعون عن الحرام قليله وكثيره ، عظيمه وحقيره في مأكلهم وملبسهم ، ليتقبل الله طاعاتهم ودعاءهم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يطيل الرجل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يقول : يارب ! يا رب ! ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وقد غذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك » .

ويتمسكون بالشريعة ، ويستقيمون على الطريقة ، ليصلوا إلى أسرار الحقيقة التي عناها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي رجلا يقال له حارثة . فقال كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال : إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة

إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أسمع عواء أهل النار ، فقال : عرفت فالزم » أخرجه البزار والبيهقي في الشعب ، يجاهدون نفوسهم ويجتهدون في تطهير قلوبهم من كل ما يباعدهم عن الله ، يقيمون الفرائض ، ويتقربون إلى الله بجميع النوافل ليحققهم الله بقوله « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » . الحديث يجاهدون في التخلق ، ويجتهدون للتحقق بما في الحديث القدسي عن الله عز وجل « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي ، وكف نفسه عن الشهوات ابتغاء مرضاتي ، فقطع نهاره في ذكري ، ولم يبت مصراً على خطيئة ، يطعم الجائع ويكسو العاري ، ويرحم الضعيف ويؤوي الغريب ، فذلك الذي يضيء وجهه كما يضيء نور الشمس ، يدعوني فألبي ويسألني فأعطي ، ويقسم علي فأبر قسمه ، أجعل له في الجهالة علماً وفي الظلمة نوراً ، أكلأه بقوتي وأستحفظه ملائكتي » (١) .

يشتغلون بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس لقوله صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ويحاسبون نفوسهم قبل أن يحاسبهم ربهم ، ويراقبون الله في حركاتهم وسكناتهم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (٢) . دان نفسه = حاسبها ويتهمون نفوسهم ولا يأمنونها

(١) رواه أبو نعيم في الحلية والبزار عن ابن عباس .
(٢) أخرجه الترمذي وحسنه عن شداد بن أوس رضي الله عنه .

على الدوام لقوله تعالى « وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها » يتأدبون مع الله ، ويخافون مكره ، ويرجون رحمته ، فلا يرون أنفسهم أفضل من غيرهم ؛ لأن ختام الأمر عنهم مغيب ، ولا يرمون المسلمين بالكفر ؛ لأن فى ذلك إساءة أدب كبيرة مع الله ، ولأن من حكم بالكفر على عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فكأنما حكم عليه بغضب الله ، وعدم مغفرة الله له ، وبخلوده فى النار ، وفى هذه الإساءة من الهلاك ما دل عليه حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان رجلان فى بنى إسرائيل متواخيان ، وكان أحدهما مذنب والآخر مجتهد فى العبادة ، وكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب ، فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب ، فقال له : أقصر . فقال خلنى وربى أبعثت على رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ، أو لا يدخلك الله الجنة ، فقبض روحهما فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بى عالماً ؟ أو كنت على ما فى يدى قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار(١) » .

وعن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث « أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ؟ ! ! ، وأن الله تعالى قال : من ذا الذى يتألى على أن لا أغفر لفلان ؟ ! ! فإنى قد غفرت لفلان وأحبطت عملك أو كما قال » رواه مسلم .

يحافظون على سلامة صدورهم وسخاوة أنفسهم ، ولا يلعنون شيئاً

(١) أخرجه أحمد وأبو داود .

أبداً ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن دخلوها برحمة الله وسلامة الصدور ، وسخاوة الأنفس ، والرحمة بجميع المسلمين » (١) . وقوله صلى الله عليه وسلم « علامة أبدال أمتى أنهم لا يلعنون شيئاً أبداً » (٢) ينقطعون إلى الله وينقطعون عن الدنيا ـ وكل ما شغل عن الله فهو دنيا ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله مؤنه ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها » (٣) يجالسون الفقراء المخلصين ، ويؤاخون الذين على ربهم مقبلون ، ويبتعدون عن أهل الدنيا ، المخدوعين المنافقين ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « أحبوا الفقراء وجالسوهم » (٤) ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بخير جلسائكم ؟ من ذكركم الله رؤيته ، وزادكم فى علمكم منطقه ، وذكركم بالآخرة عمله » (٥) لا يعبدون المال بحبهم له خوفاً من أن تلحق بهم دعوة رسول الله صلى الله عليه : « تعس عبد الدنيا وعبد الدرهم » ، ولا تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله ، لقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » . يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويعرفون للعلماء والأولياء حقوقهم لقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » يحبون لإخوانهم ما يحبونه لنفوسهم

(١) رواه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن الحسن البصرى .
(٢) رواه ابن أبى الدنيا عن بكر بن خنيس يرفعه .
(٣) أخرجه أبو الشيخ ابن حيان والبيهقى عن عمران بن الحصين رضى الله عنه .
(٤) أخرجه الحاكم وصححه ، وأقره عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٥) رواه ابن أبى الدنيا عن ابن عباس مرفوعاً .

لقوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم ؛ حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

يجاهدون ويجتهدون ليكونوا مع الذين ذكرهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » يتحابون فى الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، ولا علل دنيئة من علل الدنيا الملعونة ، ليكونوا ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله ، قالوا : يارسول الله فخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ؛ فوالله إن وجوههم لنور ؛ وإنهم لعلى نور ؛ لا يخافون إذا خاف الناس ؛ ولا يحزنون إذا حزن الناس — وقرأ هذه الآية : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) لا يذكرون فى الموالد ولا فى الطرقات ؛ وإنما مجالس ذكرهم فى المساجد والزوايا والبيوت ؛ ويحيون الليالى ذات الفضائل ، بالذكر وقراءة القرآن وسماع العلوم ؛ إلى غير ذلك من الفضائل والمحاسن التى لا تحصى بالعد ؛ ولا تعرف إلا بدوام المعاشرة .

هذه هى بعض الأدلة القاطعة على صحة ما يقومون به من أعمال

(١) رواه أبو داود فى سننه عن عمر رضى الله عنه . والنسائى عن أبى هريرة .

ونوافل ؛ فإليك بعض الأدلة استيفاء للردود على أشياء لا ينتقدها إلا كل جاهل وغافل ، فقيامهم احتراماً لأهل الفضل من العلماء والأولياء ، فذلك لمعرفتهم لحقوقهم ، وتعظيما لظهور فضل الله عليهم .

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : « أن أناساً نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل إليه ، فجاء على حمارة ، فلما بلغ قريباً من المسجد ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم ، فقال يا سعد : إن هؤلاء نزلوا على حكمك » الحديث .

وأما القيام المنهى عنه فهو الشبيه بقيام الأعاجم ؛ وذلك أن السيد أو الكبير فيهم كان يجلس ؛ ويقف الجميع طول المدة التى يقضونها بين يديه . .

وأما اهتزازهم عند التلاوة والأذكار ، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفعلونه إذا ذكروا ، قال ابن أبي الدنيا : حدثنا على بن الجعد ، أخبرنا عمرو بن ثمر ، حدثنى إسماعيل السدى ، سمعت أبا أراكه يقول : صليت مع على صلاة الفجر ، فلما انفتل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة ، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح ؛ صلى ركعتين ، ثم قلب يده فقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم !! لقد كانوا يصبحون حضراً شعثاً غبراً بين أعينهم كأمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله يتراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا فذكروا الله ، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم » .

فانظر قوله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح تجده صريحاً فى الاهتزاز .

وأما مسح الوجه باليدين بعد الدعاء ، فدليله ما أخرجه الترمذى عن عمر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه .

وأما المصافحة فدليلها ما أخرجه الشيخان عن كعب بن مالك فى قصة توبته ، قال : وانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى . . الحديث .

وروى البخارى عن قتادة قال : قلت لأنس : أكانت المصافحة فى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم .

وأما تقبيلهم ليد العلماء والوالدين وأصحاب الفضل ومن ترجى بركتهم ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : كنت فى سرية من سرايا النبى صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة ، فكنت فيمن حاص ، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان لنا توبة ، وإلا ذهبنا ، فأتيناه صلاة الغداة ، فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا نحن الفرارون ، فقال بل أنتم العكارون ، أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين ، قال : فأتيناه حتى قبلنا يده »[1] .

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه . العكارون : الكرارون .

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال . أرنى آية ؟ قال : إذهب إلى تلك الشجرة فادعها ، فذهب إليها ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك ، فمالت من كل جانب منها حتى قلعت عروقها ، ثم أقبلت حتى جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمرها أن ترجع ، فقام الرجل فقبل يديه ورجليه وأسلم .

رواه البزار من طريق صالح بن حيان ، ورواه ابن الأعرابى فى جزء القبل من هذا الطريق ، وقال فى آخره فقال الرجل : ائذن لى أن أقبل رأسك ورجليك ، فأذن له فقبل رأسه ورجليه ، ثم قال : ائذن لى أن أسجد لك ، قال : لا يسجد أحد لأحد ، وعزاه الحافظ العراقى فى المغنى إلى الحاكم وقال : قال صحيح الإسناد .

وعن أسامة بن شريك قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أصحابه على رؤوسهم الطير ، فجاء الأعراب فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قام وقام الناس ، فجعلوا يقبلون يده ، فأخذتها فوضعتها على وجهى ، فإذا هى أطيب من ريح المسك وأبرد من الثلج »[1] .

وعن ابن جدعان قال : قال ثابت لأنس أمسست بيدك النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، فقبلها . أخرجه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد .

وهكذا تجد أن كل حركاتهم وسكناتهم على هدى الكتاب والسنة ، كما تجد أن لهم فى أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة .

(١) رواه ابن الأعرابى فى جزء القبل وقال الحافظ الهيثمى إسناده قوى .

تمسك بحب الشاذلية تلق ما ... تروم وحقق ذاك منهم وحصل
ولا تعدون عيناك عنهم فإنهم ... نجوم الهدى فى أعين المتأمل
ولا تحتجب عنهم بلبس لباسهم ... فأنوارهم فى السر تعلو وتنجلى
وجاهد تشاهد كى تراهم حقيقة ... فما فقدوا كلا ولكن بمعزل

« والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً ؛ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً » صدق الله العظيم .

حياة الأرواح وحفظ بعض الأجساد

قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

عناصر الموضوع :

(١) حياة جميع الأرواح حتى أرواح الكافرين .
(٢) فائدة الأنبياء والأولياء وتسببهم فى نفع الأحياء .
(٣) حفظ بعض الأجساد من البلى بعد الموت .

أولا — حياة جميع الأرواح : قال تعالى فى آل فرعون : « النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد

العذاب » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بحائط من حيطان المدينة ، فسمع صوت إنسانين يعذبان فى قبورهما ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يعذبان وما يعذبان فى كبير ، ثم قال : بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله ، وكان الآخر يمشى بالنميمة ، ثم دعا بجريدة رطبة فكسرها كسرتين ، فوضع على كل قبر منهما كسرة ، فقيل : يا رسول الله لما فعلت هذا ؟ فقال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا » رواه البخارى .

فجميع الأموات مجزيون بأعمالهم فى قبورهم . إما مستروحون بنسيم الجنان ، أو تسعر بهم حفرة من حفر النار .

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى حديث القليب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن سمى قتلى القليب بأسمائهم قال : « فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قال عمر : يارسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » .

وقال تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » . وقال : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

وأجمع المسلمون على أن حياة النبيين أرفع من حياة الشهداء ، قال تعالى : « فأولئك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » بترتيب الأفضلية

قال الإمام ابن حزم فى المحلى : ولا خلاف بين مسلمين — بتسكين الياء — فى أن الأنبياء عليهم السلام أرفع قدراً ودرجة ، وأتم فضيلة عند الله عز وجل ، وأعلى كرامة من كل من دونهم ومن خالف فى هذا فليس مسلماً . . اهـ .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : ضرب بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول إنى ضربت خبائى على قبر ، وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هى المانعة ، هى المنجية تنجيه من عذاب القبر » (١) .

وعن سعيد ابن المسيب رضى الله عنه قال : « لقد رأيتنى ليالى الحرة وما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرى ، وما يأتى وقت صلاة إلا سمعت الأذان من القبر ، ثم أتقدم فأقيم وأصلى ، وإن أهل الشام ليدخلون المسجد زمراً فيقولون : أنظروا إلى الشيخ المجنون » (٢) .

وفى صحيح مسلم عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مررت بموسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره » .

(١) رواه الترمذى فى سننه ونقله عنه ابن القيم فى كتاب الروح وقال إنه قال هذا حديث حسن غريب ، ورواه ابن عدى فى الكامل . ورواه البيهقى فى دلائل النبوة من طريق ابن عدى .

(٢) رواه أبو نعيم فى الدلائل ، وروى سعيد ابن منصور فى سننه وأخرج ابن سعد فى الطبقات ما يؤيده .

وفى صحيح مسلم أيضاً عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى » الحديث .

وفيه : « وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء ، فإذا موسى قائم يصلى ، فإذا رجل ضرب جعد كأنه رجل من أزدشنوءة ، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم فحانت الصلاة فأممتهم » الحديث .

وعن أنس رضى الله عنه : « الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون » . صححه البيهقى وغيره .

مما ذكرناه تثبت الحياة للأرواح ، لأن السماع ، والأسماع ، والإحساس والحركة من مستلزمات الحياة .

(هذا وما الأولياء والصالحون إلا صرعى فى ميدان الجهاد ، جهاد النفس الذى أخبر عنه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم بأنه الجهاد الأكبر ، فهم كإخوانهم المستشهدين تحت ظلال السيوف ، أحياء فى الدار الآخرة ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) .

جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن شهدت أنه لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وصليت الصلاة الخمس ، وصمت رمضان وقمته ، فممن أنا ؟ قال : « من الصديقين والشهداء » (١) .

وأما حديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله » فمعناه إذا مات هذا

(١) رواه ابن حبان وابن خزيمة فى صحيحيهما .

الهيكل المخصوص أى الجسم الذى هو عبارة عن اللحم والعظم ، وتلاشت قواه البدنية بانتقال روحه من دار إلى دار أخرى ، وهـذا لا ينافى حياة الأرواح وأعمالها فى البرازخ ، لأن الموت منصب كما فى الحـديث ، على ابن آدم . ومن المسلم به أن الروح من أمر الله لا ابن آدم ، فتعين حمل الموت على الجسم ، وتكون أعمال الأرواح كعمل أرواح النائمين والملائكة المطهرين .

وعلى معنى الموت هـذا يحمل كل ما ورد بصدده ، كقوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » . وقوله : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون » . وقوله : « إنك لا تسمع الموتى » . « وما أنت بمسمع من فى القبور » .

فالمراد بالموتى وبمن فى القبور الجثث التى تلاشت قواها وفسدت حواسها والمقصود التشبيه فى هذه الآيات الكفار لأنهم لما لم يعوا ما يسمعون ، ولا به ينتفعون ، شبهوا وهم أحياء صحاح الحواس بهـذه الأبدان الهامدة التى لا تحس ولا تسمع .

قال الحافظ ابن رجب : إن حياة الروح ليست تامة مستقلة كحياة الدنيا وكحياة الآخرة بعـد البعث ، وإنما فيها نوع من اتصـال البدن بالروح ، بحيث يحصل بذلك شعور البدن وإحساس بالنعيم والعـذاب وغيرهما ، وليس هو حياة تامة حتى يكون انفصال الروح به موتاً تاماً ، وإنما هو شبيه بانفصال روح النائم عنه ورجوعها إليه ، فإن ذلك يسمى موتاً وحياة ، كما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ : «الحمدلله الذىأحيانا بعد ماأماتنا وإليه النشور » وسماه الله وفاة بقوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها »

ومع هذا فلا ينافى ذلك أن يكون النائم حياً ، وكذلك اتصال روح الميت ببدنه وانفصالها لا يوجب أن يصير حياً حياة مطلقة اهـ .

والأرواح فى البرازخ أسمع منها فى حياتها الدنيوية وأبصر ، لأن سماعها وإبصارها فى الدنيا بالآلات ، وسماعها وإبصارها بعد الموت بالذات ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم بأسمع منهم » .

« ثانياً » نفع الأنبياء والأولياء بعد موتهم للأحياء .

روى البخارى فى حـــديث الإسراء عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ثم فرضت على خمسون صلاة ، فأقبلت حتى جئت موسى فقال : ما صنعت ؟ قلت : فرضت على خمسون صلاة قال : أنا أعلم بالناس منك عالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة وإن أمتك لا تطيق ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فرجعت فسألته فجعلها أربعين ، ثم مثله فجعلها ثلاثين ، ثم مثله فجعلها عشرين ، ثم مثله فجعله عشراً ، فأتيت موسى فقال : مثله ، فجعلها خمساً ، فأتيت موسى فقال : ما صنعت ؟ قلت جعلها خمساً ، فقال : مثله ، فقلت : سلمت ، فنودى أنى قد أمضيت فريضتى ، وخففت عن عبادى وأجزى الحسنة عشراً » .

فانظر كيف كان موسى عليه السلام سبباً فى نفع خير أمة أخرجت للناس بأن راجع سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم حتى صارت الصلاة خمساً بعد خمسين .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : « يا جابر مالى أراك مهتما ؟ قال : قلت يارسول الله استشهد أبى وترك عليه ديناً وعيالا ، قال : ألا أخبرك ، ما كلم الله أحداً قط إلا

من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحا ، قال : سلنى أعطك ، قال أسأل أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب عز وجل : إنه سبق منى أنهم إليها لا يرجعون ، قال : أى رب فابلغ من ورائى ، فأنزل الله عز وجل : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » (١) .

فانظر كيف كان عبد الله رضى الله عنه سببا فى إظهار حالة الشهداء للأمة ، حتى يكون لأفرادها فيمن قتلوا شهداء أسوة وقدوة ليصلوا إلى ما وصلوا إليه .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « حياتى خير لكم : تحدثون ويحدث لكم ، ووفاتى خير لكم تعرض على أعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم » .

وقد سبق ذكر طرق الحديث وإثبات صحته ، كما ذكرنا بأنه لا تعارض البتة بينه وبين حديث الحوض ، بأن الارتداد يخرج المرتد عن الإسلام ، والمصطفى صلى الله عليه وسلم لا تعرض عليه إلا أعمال المسلمين ، فيستغفر لذنبهم ، وأنه لا يستغفر للمشركين لأن الله نهاه عن الاستغفار لهم .

قال الله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » .

أخبر الله سبحانه وتعالى بأن النبى صلى الله عليه وسلم يأتى يوم القيامة شهيداً

(١) رواه ابن مردويه ، وذكره البدر العينى بإسناده فى باب قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً » .

على أمته ، وذلك يقتضى أن تعرض أعمالهم عليه ليشهد بما رأى وعلم .

قال ابن المبارك : أخبرنا رجل من الأنصار عن المنهال بن عمرو أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ليس من يوم إلا يعرض فيه على النبى صلى الله عليه وسلم أمته غدوة وعشيا فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم ، فلذلك يشهد عليهم .

يقول الله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد . . » الآية .

وأما شهادة المسلمين على من سبقهم من الأمم ، فهى كما ورد فى الحديث الصحيح : « أن هذه الأمة إنما تشهد على إخبار نبيها وما جاء به فى القرآن ، وذلك أنها إذا شهدت بأن الرسل بلغوا أممهم ، فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون أخبرنا نبينا فيما جاء به من كتاب ربنا أن الرسل قد بلغوا فآمنا به وصدقنا فيزكيهم الرسول ويصدق قولهم :

هذا وأحاديث عرض الصلاة عليه وإبلاغها له صلى الله عليه وسلم كثيرة فمن أرادها فليتتبعها فى كتابى : الرد المحكم ، ونهاية الآمال للغمارى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعرض الأعمال يوم الإثنين ويوم الجمعة على الله تعالى ، وتعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة ، فيفرحون بحسناتهم ، وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً ، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم » (١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم فى قبورهم ، فإن كان خيراً استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » (٢) .

(١) رواه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول .
(٢) رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم فإن كان خيراً استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » (١) .

قال ابن القيم فى كتاب الروح : وصح عن عمرو بن دينار أنه قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون فى أهله بعده ، وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم .

وصح عن مجاهد أنه قال : إن الرجل ليبشر فى قبره بصلاح ولده من بعده . . اهـ

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة ، وقال : إن للروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه فى التصرف والقوة ما ليس للروح المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه ، وقد تواردت الرؤى على فعل الأرواح بعد الموت أفعالا لا تقدر على مثلها حال اتصالها بالبدن — فى هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والفيالق بالعدد القليل جداً —

وقد رؤى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فى النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم ، فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وضعف المؤمنين وقلتهم اهـ .

وقال الفخر الرازى فى تفسيره : إن الأرواح البشرية الخالية عن العلائق الجسمانية المشتاقة إلى الاتصال بالعالم العلوى بعد خروجها من ظلمة

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن منده والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول .

الأجساد تذهب إلى عالم الملائكة ومنازل القدس ويظهر منها آثار فى أحوال هذا العالم فهى المدبرات أمراً ، أليس الإنسان قد يرى أستاذه ويسأله عن مسألة فيرشده إليها » اهـ .

من الأحاديث التى ذكرناها والآثار وغيرها يتضح أن للأرواح بعد خروجها من البدن أعمالا مختلفة ، وأن أخبارنا لم تنقطع عنهم وأن كلا منها ينفع الأحياء على قدر ما أعطاه الله من الفضل والخصوصية .

« ثالثاً » حفظ بعض الأجساد من البلى بعد قبض أرواحها .

قال تعالى فى وصف أهل الكهف ، بعد أن لبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً : « ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » وتحسبهم أيقاظاً لعدم تطرق البلى إليهم .

وقال تعالى : « فلما قضينا عليه » على سليمان « الموت » أى مات ومكث قائماً على عصاه حولا ميتاً والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة على عادتها لا تشعر بموته « ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » .

يؤخذ من هذه الآية أن سليمان عليه السلام بعد أن قبضت روحه استمر جسده كما كان عليه قبل خروجها لم يتآكل ولم تتفكك أوصاله ، فاستمر على ما هو عليه والجن لما تراه من ظاهر هيئته لا تظن موته فاستمرت فى أعمالها .

ومتى مضت المدة المعتادة لتعفن الجسم وتآكله ولم يظهر عليه أثر البلى

كأن مضى عليه شهراً أو سنة استمر فضل الله عليه بالحفظ إلى يوم القيامة ، يؤيد ذلك ما ثبت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وقد ورد من ثلاث طرق عند عبد الرازق والطبرانى فى معجمه عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص ومجاهد : أن المؤذن المحتسب كالشهيد المتشحط فى دمه ، وإذا مات لم يدود فى قبره .

وورد من ثلاث طرق أيضاً من حديث جابر بن عبد الله وأبى هريرة وعبد الله بن مسعود : أن حامل القرآن العامل به لا تأكل الأرض لحمه . أخرج جميعها ابن منده .

وأخرج المروزى عن قتادة قال « بلغنى أن الأرض لا تسلط على جسد الذى لم يعمل خطيئة » .

وقد سبق أن قلنا أن من جعل الله له أجراً ونوراً بمجاهدته وسرى نور طاعاته وأذكاره وتلاوته فى جسده ، فطهره من الحرام والمعصية أكرم بحفظ جسده من البلى وكان فى قبره حياً يرزق ، لقوله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » . وقوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

وهناك من يتكرم الله عليه فيشرفه بمقام الشهادة خصوصية واجتباء من غير جهاد أو مجاهدة فى تغاغل الأنوار فى جسمه . ومنهم المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشهداء خمسة : المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد فى سبيل الله عز وجل » رواه مسلم .

وهذا ربما يتطرق إليه البلى ، وإن كان عند الله من الشهداء . . ربما ! !

وقال الحافظ ابن رجب فى كتاب أهوال القبور ما نصه : وأما من شوهد بدنه طرياً صحيحاً وأكفانه عليه صحيحة بعد تطاول المدة من غير الأنبياء عليهم السلام فكثيراً جداً . . ونحن نذكر من أعيانهم جماعة :

قال عمر بن شيبة : حدثنى محمد بن يحيى ، حدثنا هشام ، عن عبد الله بن عكرمة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : لما سقط جدار بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وعمر بن عبد العزيز على المدينة ، انكشفت قدم من القبور التى فى البيت ، فأصابها شىء فدميت ، ففزع من ذلك ابن عبد العزيز فزعا شديداً فدخل عروة البيت فإذا القدم قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال لعمر : لا ترع هى قدم عمر بن الخطاب فأمر بالجدار فبنى ورد على حاله .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا عبد الأعلى بن حماد ، حدثنا عبد الجبار ابن الورد ، سمعت أبا الزبير يقول : سمعت جابر بن عبد الله يقول : كتب معاوية إلى عامله أن يجرى عيناً إلى أحد ، فكتب إليه عامله أنها لا تجرى إلا على قبور الشهداء ، فكتب إليه أن أنفذها ، قال : سمعت جابرا يقول : فرأيتهم يخرجون على رقاب الرجال كأنهم رجال نوم ، حتى أصابت المسحاة قدم حمزة فانبعث دماً .

وروى مالك عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة أنه بلغه أن عمرو بن

الجموح وعبد الله ابن عمرو الأنصارى كانا فى قبر واحد ، وهما ممن استشهد يوم أحد فحفر السيل قبرهما ، فحفر عليهما ليغيرا من مكانهما ، فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس ، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو هكذا ، فأشيلت يده عن جرحه ، ثم أرسلت فرجعت كما كانت (وكان بين أحد وبين ماحفر عليهما ست وأربعون سنة) .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أحمد بن عاصم ، حدثنا سعيد بن عامر عن المثنى بن سعيد قال : لما قدمت عائشة بنت طلحة البصرة أتاها رجل ، فقال : إنى رأيت طلحة بن عبيد الله فى المنام ، فقال : قل لعائشة تحولى من هذا المكان فان البز — أى رشح الماء — آذانى ، فركبت فى مواليها وحشمها فضربوا عليها واستثاروه ، فلم يتغير منه إلا شعرات فى إحدى شقى لحيته ، أو قال رأسه حتى حول إلى موضعه (وكان بينهما بضع وثمانون سنة) اهـ .

ونذكر باختصار بعض من أورد ذكرهم : ففى كتاب الأولياء منهم : إسحق ابن أبى نبهانه ، وكان يؤذن ، ويعلم الغلمان ، ولا يأخذ الأجر ، نقل من قبره بعد ثلاثين سنة ، فوجد كما دفن إلا أن الكفن قد جف عليه وييس والحنوط محطوط عليه ، فأخبر بذلك أبو جعفر المنصور ، فركب فى الليل حتى رآه فأمر به فدفن فى الليل لئلا يفتتن الناس .

وفى الترمذى : أن الغلام الذى ذكر فى قصة أصحاب الأخدود ، وقتله الملك ، وآمن الناس كلهم ، وقالوا : آمنا برب الغلام ، وجد فى زمان عمر بن الخطاب ويده على جرحه كهيئته حين مات ، وذكر أبو الفرج ابن

الجوزى هذه الكرامة للإمام أحمد ، قال ولما كشف قبر البربهارى فاحت ببغداد رائحة طيبة حتى ملأت المدينة . اهـ

* * *

وقد شاهدت بنفسى مع بعض الإخوان سيدى رضوان حسن شيخ الطريق الشاذلى أثناء نقله من المقبرة العامة إلى لحد خاص بعد وفاته بثلاث سنوات تقريباً ، فكان على هيئته يوم دفن رضى الله عنه . والأخبار فى ذلك كثيرة متواترة ، والآثار متعددة .

* * *

(وخلاصة القول أن الموت الظاهر الذى يصيب الناس حين مفارقتهم لهذه الدنيا تعقبه حياة تفيض بالإحساس وأن هذه الحياة تتفاوت قوة وضعفا بتفاوت أرواح أصحابها ، فأقوى العالمين حياة فى قبره هو سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ويليه فى ذلك المرسلون والأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء الذين أثبت القرآن صراحة أنهم أحياء عند ربهم يرزقون) .

الوسيلة والتوسل

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » .

فابتغاء الوسيلة وطلبها واستعمالها مأمور به ، والأخذ بالوسائل والأسباب غير الاعتماد عليها ، وقد أمرنا بالأخذ بها ، ونهينا عن الاعتماد عليها .

وقبل التكلم فى أنواع الوسيلة نسوق تعريفات المسميات التى يكثر ذكرها فى هذا الموضوع فنقول :

النبوة : صفة لمعلوم علم الله سبحانه وتعالى بذات النبى إسماً ، وروحاً وجسداً ، فى حال عدمه ووجوده ، وجميع أحواله .

الولاية : صفة لمعلوم علم الله سبحانه وتعالى بذات الولى إسماً ، وروحاً ، وجسداً ، فى حال عدمه ووجوده وجميع أحواله .

وليس للعباد حقوق على الله ما أوجبه الله على نفسه . قال تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . وفى الحديث القدسى : (حقت محبتى للمتحابين فى) ، (وجبت محبتى للمتحابين فى) ، (لست بناظر فى حق عبدى حتى ينظر عبدى فى حقى) . وفى الحديث النبوى : والخطاب لمعاذ ابن جبل (أتدرى ما حق العباد على الله إن فعلوا ذلك ؟ فإن حقهم عليه ألا يعذبهم) .

واسم النبى أو الولى ، وحقه وجاهه ، وبركته كلها مسميات راجعة لأصل واحد هو صفة فضل الله على النبى أو الولى ، فالمتوسل بهم متوسل

بصفة الله إلى الله ، ومكانة النبى أو الولى ومنزلته عند الله لا تتغير بالحياة والموت ، بل يزيد رقياً وقرباً بما يضاف إليه من ثواب تسبب فيه بسعيه وقت حياته التكليفية ، والأنبياء والأولياء جعلهم الله سبباً لإكرام من شاء من عباده .

الإشراك : معناه اعتقاد شريك مع الله فى الألوهية وهو كفر — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — ولهذا فسر كثير من أهل اللغة الإشراك بالكفر ، لأنه كفر بالله وجحد لوحدانيته ، والإشراك الذى حصل من المشركين الذى ذمهم القرآن : هو عبادتهم للأنبياء والملائكة والأصنام بناء على اعتقادهم فيهم أنهم شاركوا الله فى الألوهية ، وأن لهم تأثيراً فى إيجاد الأشياء ، ولذلك ترى القرآن فى معرض الرد عليهم ، يقرر دلائل وحدانية الله وانفراده بالألوهية ، وأنه ليس له شريك ، وأنه المنفرد بالإيجاد والإبداع .

الدعاء : معناه النداء وطلب الإقبال يقال : دعا فلانا إذا ناداه طالباً إقباله عليه ، ومنه (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) ودعا الله إذا ناداه بابتهال وخضوع ، ومنه « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » ودعاء الله هو عبادته لحديث (الدعاء هو العبادة) إذ لا فرق بينهما بالنسبة إلى الله ، حيث أن الداعى لله متذلل خاضع ، والعابد بصلاة وصوم وحج متذلل خاضع أيضاً ، وموطن العبودية الذل ، والعز للربوبية .

التوسل : هو التقرب إلى الغير ، يقال : توسل إلى فلان بكذا إذا

تقرب إليه بشيء ، والتوسل بمعنى التقرب إلى الله ، والتسبب فى حصول المطلوب ليس من الشرك فى شيء ، لأن المشركين قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا » وقال تعالى : « قل ادعو الذين زعمتم (أنهم آلهه) من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم » خلقاً وإيجاداً ، والمتوسل لا يعبد من يتقرب به ، ولا يعتقد فيه أنه قادر على الخلق والإيجاد .

الوسيلة : ولها معانى كثيرة ذكرت فى كتب التفسير عند قوله تعالى : « وابتغوا إليه الوسيلة » فمنها الحاجة كما فسر ابن عباس وأنشد قول عنتره كما رواه ابن الأنبارى :

إن الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تكحلى وتخضبى

ومنها المحبة ، وبه فسر ابن زيد رواه ابن جرير . ومنها المنزلة والدرجة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة » الحديث .

ومنها أنها كل شيء يوصل إلى المقصود : أى بمعنى استعمال كل شيء فيما أوجده الله من أجله ، فمثلا : أثبت الله قدرته على الخلق من غير وسيلة وسبب ، فخلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من غير أم ، وخلق عيسى من غير أب ، ثم جعل سنة الخلق بحكمته عن طريق الوالدين ، والله هو الرازق ، وجعل السعى وسيلة حصول الرزق ، والله هو المشبع ، وجعل الطعام وسيلة الشبع ، والله هو خالق الرى ، والماء وسيلته ، والله هو الهادى وجعل الرسل والعلماء وسيلة الهداية ، والله هو الرحيم ، وجعل الأنبياء والأولياء والصالحين من أسباب رحمته ، ووسائل حصولها ، قال

تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » وقال : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، ولو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » .

وقال فى الحديث القدسى : « إنى لأهم بأهل الأرض عذاباً ، فإذا نظرت إلى عمار بيوتى والمستغفرين بالأسحار صرفت عذابى عنهم » رواه البيهقى عن أنس .

وعلى هذا يكون التوسل بالأنبياء والأولياء ، وهم من نعم الله على الناس ما هو إلا استعمال لنعم الله فيما خلقها من أجله ، أى بمعنى الشكر لله ، وقد أمرنا الله بشكر من أجرى نعمه علينا بسببهم فقال : « اشكر لى ولوالديك » .

ومن معانى الوسيلة : المسألة والقربة ، كما رواه بن جرير عن السدى . وما التوسل والتقرب إلى الله بالعمل الصالح لقضاء الحوائج وإجابة المطالب مثلا ما هو إلا توسل إلى نعم الله بنعم الله ، فالعمل نعمة ، وكذلك التوسل إلى الله بالعبد الصالح ، فالعبد الصالح نعمة من نعم الله ، والتوسل بالعمل الصالح كالتوسل بالعبد الصالح لكنهما من خلق الله تعالى ، ولكون المتوسل بالعبد الصالح ، متوسلا بعمل هذا العبد الصالح الذى نال به مقام القرب من ربه ، واستوى فى ذلك علم المتوسل به أو عدمه ، لأن الفاعل فى الحالتين هو الله وحده .

أما وقد اتضح لك مما قدمناه معنى كل من الإشراك والدعاء والتوسل والوسيلة ، فلا يصح إرادتها فى لفظ واحد ، كما يعبر الجاهلون عنها جميعاً

بلفظ الإشراك ، كما لا يصح رمى المسلمين بالكفر لتوسلهم إلى الله بالأنبياء والأولياء ، لأن المسلمين لم يعبدوا من توسلوا بهم ولا اتخذوهم آلهة مع الله ، فلا علاقة البتة بين عبادة المشركين لآلهتهم من أصنام وغيرها ، وبين توسل المسلمين إلى الله بأنبيائه وأوليائه ؛ إذ لو كان التوسل إشراكا لما فعله النبى صلى الله عليه وسلم كما ثبت من توسله بنفسه ، وبالأنبياء من قبله ، فى قصة وفاة فاطمة بنت أسد رضى الله عنها - كما سيأتى - ولما أمر أحداً من أمته أن يتوسل به كما فى حديث الأعمى - وقد مر ذكره - ولما توسل عمر بن الخطاب بالعباس رضى رضى الله عنهما ، ولا توسل معاوية بيزيد بن الأسود ، ولما استجاب الله دعاء آدم عليه السلام حين توسل بالنبى صلى الله عليه وسلم ، كما حكاه المصطفى صلى الله عليه وسلم وأقره ، ولما نصر أهل الكتاب على المشركين عندما استفتحوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، كما أقره القرآن وذكره . هذا وما جاء من الدعاء فى عهد آدم والأمم السابقة ، دل على جوازه فى سائر العهود ، إذ الدعاء لا يختلف باختلاف الشرائع والأديان .

أنواع الوسيلة

الوسيلة بمعنى التقرب إلى الله لحصول رضاه أنواع منها :

الوسيلة بالمكان : وهى زيادة أجر الصلاة فى المساجد الثلاثة : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتخصيص فريضة الحج وأعمالها بمكة المكرمة ، فهى وسيلة لزيادة الثواب والقرب من الله .

الوسيلة بالزمان : وهى أن ليلة القدر خير من ألف شهر ، والليالى ذات

الفضل ، وساعة يوم الجمعة التى يقبل فيها الدعاء ، ووقت السحر ، وغير ذلك من الأوقات التى ثبت فضلها ، فهى وسيلة للثواب والقرب من الله .

الوسيلة بالعمل الصالح : كما ثبت من حديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار ، فانطبق عليهم ، فتوسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة ، ففرج الله عنهم فخرجوا .

الوسيلة بالعبد الصالح : وقد ثبت فى باب : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » كثير من الأدلة ، وإليك بعض الأدلة التى لم نذكرها :

قال تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ». قيل أيهم أقرب يبتغى الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه .

وقال البغوى فى تفسيره : قوله « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » يعنى الذين يدعونهم المشركون أنهم آلهة يعبدونهم . قال ابن عباس ومجاهد : وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم « يبتغون » أى يطلبون « إلى ربهم الوسيلة » ، أى القربة ، وقيل الوسيلة : الدرجة أى يطلبون « إلى ربهم الوسيلة » ، أى القربة ، وقيل الوسيلة : الدرجة أى يتضرعون إلى الله فى طلب الدرجة العليا .

وقيل : الوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله تعالى ، وقوله « أيهم أقرب » معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به . اهـ . وفى هذا دليل التوسل بالعباد المقربين .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد أم على رضى الله عنهما ، دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس عند رأسها ،

فقال : رحمك الله يا أمى ، كنت أمى بعد أمى ؛ تجوعين وتشبعينى ، وتعرين وتكسينى ، وتمنعين نفسك طيباً وتطعمينى ، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة ؛ ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً . فلما بلغ الماء الذى فيه الكافور سكبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، ثم خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه ، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصارى وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون ، فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه وقال : « الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمه بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين » وكبر عليها أربعاً وأدخلها هو والعباس وأبو بكر الصديق رضى الله عنهما ، فانظر قوله صلى الله عليه وسلم « بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى » (١) .

وفى سنن ابن ماجه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر فى دعاء الخارج للصلاة أن يقول : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاى هذا ؛ فإنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ؛ خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » . والتوسل بحق السائلين فيه عموم المسلمين .

وفى سنن أبى داود وغيره أن أعرابياً قال للنبى صلى الله عليه وسلم : جهدت

(١) رواه الطبرانى فى معجميه الكبير والأوسط ، ورواه أبو نعيم فى المعرفة والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس بإسناد حسن .

وجاع العيال ، وهلك المال ؛ فادع الله لنا ؛ فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ؛ فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، وقال : « ويحك ! ! إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك » وذكر تمام الحديث ، فأنكر قوله نستشفع بالله عليك ، ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله بل أقره عليه ، فعلم جوازه .

وفى البخارى عن أنس أن عمر رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب رضى الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا ؛ وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال فيسقون .

وفى رواية البخارى ، وروايات المحدثين لحديث الاستسقاء فوائد : منها : أن عمر رضى الله عنه بتوسله بالعباس رضى الله عنه سن استحباب الاستشفاع بأهل الصلاح والخير وأهل بيت النبوة ، ومنها أن توسل عمر بالعباس رضى الله عنهما هو فى الحقيقة توسل بالنبى صلى الله عليه وسلم لأنه إنما توسل بالعباس لكونه عم النبى صلى الله عليه وسلم ولمكانته منه .

ومنها أن عمر عدل عن الاستشفاع بالنبى صلى الله عليه وسلم خوفاً من تأخر الإجابة فيفتن الناس ويتخذ اليهود ذلك باباً للفتنة ، يؤيد ذلك ما رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب ما نصه : « روينا من وجوه عن عمر أنه خرج يستسقى وخرج معه بالعباس فقال : اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه وسلم ، ونستشفع به فاحفظ فيه لنبيك صلى الله عليه وسلم كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما .. ثم ذكر بقية الخبر » . وفى آخره فوالله ما برحوا حتى اعتلقوا الجدر ، وقلصوا المآزر ، وطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون : هنيئاً لك ساقى الحرمين اهـ .

وأخرج الزبير بن بكار فى الأنساب بإسناده : أن العباس لما استسقى به عمر قال : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث ، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس » ذكره الحافظ فى الفتح .

وهذه النصوص صريحة فى أن توسل عمر وغيره من الصحابة بالعباس كان لمكانته من النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو توسل به فى الحقيقة ، وكذلك كل متوسل بولى من الأولياء ، فهو متوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الولى لم ينل ما ناله من كرامة الله إلا بمتابعته للنبى صلى الله عليه وسلم ومكانته منه ، وكل كرامة لولى من الأولياء فهى معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم .

ويؤخذ من عدول عمر رضى الله عنه عن التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى العباس أن السنة فى الاستسقاء : أن يخرج الإمام والناس إلى المصلى بظاهر البلد ، ويصلون هناك صلاة الاستسقاء ، ويخطب فيهم الإمام ، ويدعو بنفسه كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم ، أو يأمر من يدعو كما فعل عمر مع العباس ، ومعاوية مع يزيد بن الأسود ، فقد أخرج أبو زرعة الدمشقى ويعقوب بن سفيان فى تاريخيهما بسند صحيح ، كما قال الحافظ عن سليم بن عامر : أن الناس قحطوا بدمشق فخرج معاوية يستسقى بيزيد بن الأسود ، فسقوا ، ويزيد هذا كان عابداً خشناً كما قال ابن حبان .

وأما فى غير الاستسقاء ، فيجوز التوسل فيه بالأحياء والأموات ولا فرق بين الحياة والموت لما ثبت من توسل النبى صلى الله عليه وسلم بالأنبياء الذين من

قبله ، ولما فعله عثمان بن حنيف وبلال المزنى وعائشة رضى الله عنهم ، ومن بلغه فعل هؤلاء من الصحابة والتابعين ، فلم ينكره عليهم .

وكذلك قال الحافظ أبو بكر بن المقرى فى مسند أصبهان : كنت وأنا والطبرانى وأبو الشيخ فى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، فضاق بنا الوقت ، فواصلنا ذلك اليوم ، فلما كان وقت العشاء أتيت إلى القبر الشريف وقلت : يارسول الله الجوع ، فقال لى الطبرانى اجلس ، فإما أن يكون الرزق أو الموت ، فقمت أنا وأبو الشيخ ، فحضر الباب علوى ففتحنا له ، فإذا معه غلامان بزنبيلين فيهما شىء كثير ، فقال : يا قوم شكيتم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فإنى رأيته فأمرنى بحمل شىء إليكم .

هذا وقد سبق فى حياة الأرواح إثبات سماعهم وتسببهم فى قضاء مصالح الأحياء ومنفعتهم . ومن ثبتت كرامته فى الدنيا فلا ينقطع إكرام الله له ، لأن ما حصل لهم من كرامات فى الدنيا إنما حصل بفضل الله وفضل الله لا ينقطع (وما دام العبد لا يعتقد تأثيراً ولا خلقاً ولا إعداماً ولا نفعاً ولا ضراً إلا لله وحده لا شريك له ، لا لحى من ذلك شىء ولا لميت ، فلا فرق بين حالتى الحياة والممات ، وأما الذين يفرقون بين الحالتين فهم إلى الشرك أقرب ومذهبهم يوهم التأثير للحى ، فقد أخذوا من حيث لا يشعرون ، ودخل الشرك فى توحيدهم شاءوا أم أبوا ، فكيف يدعون أنهم محافظون على التوحيد ، وينسبون غيرهم إلى الإشراك سبحانك هذا بهتان عظيم) .

والتوسل بالعبد الصالح يحصل بنوعين : أولا : أن تتوجه إلى الله سائلا إياه فى قضاء حاجتك واستجابة دعائك بمن تريد أن تتوسل به .

ثانياً : أن تتوجه إلى الوسيلة مباشرة طالباً منه أن يباشر طلب قضاء حاجتك بما يقدر عليه مما أعطاه الله من فضل وخصوصية ، كما فعل الطبرانى وأبو الشيخ وأبو بكر بن المقرى .

وقال القسطلانى فى المواهب اللدنية : ولقد كان حصل لى داء أعيى دواؤه الأطباء ، وأقمت به سنين ، فاستغثت به صلى الله عليه وسلم ليلة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٨٩٣ بمكة زادها الله شرفاً ، فبينما أنا نائم ، إذ جاء رجل معه قرطاس يكتب فيه : هذا دواء داء أحمد بن القسطلانى من الحضرة الشريفة بعد الإذن الشريف ، ثم استيقظت فلم أجد بى والله شيئاً مما كنت أجد ، وحصل الشفاء ببركة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقص حكاية مثلها وقعت لخادمته الحبشية ، والآثار فى ذلك كثيرة .

وقال الشوكانى : قال شيخ الإسلام ابن تيمية من بعض فتواه « ولاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيه مسلم ، ومن نازع فى هذا المعنى فهو إما كافر وإما مخطىء ضال » .

ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم والأولياء ، قادرون على أن يدعو لنا وهم فى البرازخ كما ثبت فى باب حياة الأرواح .

وقال ابن القيم فى الفوائد : « أرباب الحوائج على باب الملك يسألون قضاء حوائجهم ، وأولياؤه المحبون له الذين هو همهم ومرادهم جلساؤه وخواصه فإذا أراد قضاء حاجة واحد من أولئك ، أذن لبعض جلسائه وخاصته أن يشفع فيه رحمة له وكرامة للشافع ، وسائر الناس مطرودون عن الباب ، مضروبون بسياط البعد » اهـ .

ونختم هذا الباب بذكر التبرك بآثار الأنبياء والصالحين والتبرك بذكر أسمائهم . فعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه أنها أخرجت جبة وقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى يستشفون بها وكانوا يفعلون ذلك فيشفون » (١) .

وأخرج القاضى عياض فى الشفا بسنده عن عبد القاسم بن المأمون أنه كانت عنده قصعة من قصاع النبى صلى الله عليه وسلم يحملون الماء فيها للمرضى فيشفون بها . وأخرج البخارى فى صحيحه وغيره : أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أبا طلحة أن يفرق شعره صلى الله عليه وسلم بين أصحابه . وذكر أن خالد بن الوليد رضى الله عنه كان فى قلنسوته شعرات من شعره صلى الله عليه وسلم فلذلك كان لا يقدم على وجه إلا فتح له .

والسنة مملوءة بذكر التبرك بآثاره صلى الله عليه وسلم ، ومثل آثاره صلى الله عليه وسلم قميص يوسف عليه السلام الذى أرسله ليلقى على وجه أبيه ، ارتد بصيراً ، وكما يتبرك بآثاره صلى الله عليه وسلم يتبرك بذكر اسمه ، فمن حديث البراء بن عازب كما فى صحيح مسلم وفيه : أنه عند قدومه صلى الله عليه من هجرته إلى المدينة صعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان والخدم فى الطرق ينادون : يا محمد رسول الله ، يا محمد رسول الله ، وقد أقرهم النبى صلى الله عليه وسلم ولا يقصدون بذلك إلا التبرك باسمه ، وتنزل الرحمات بذكره ، ومن هنا أخذ التبرك بذكر أسماء أهل بدر وغيرهم من عباد الله الصالحين المشهود لهم بالفضل والكرامة وجلائل الأعمال .

وأخرج ابن السنى فى كتاب عمل اليوم والليلة فى باب ما يقول الرجل

(١) رواه مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه والنسائى وابن ماجه .

إذا خدرت رجله : أن ابن عمر رضى الله عنهما لما خدرت رجله قال : يا محمداه فقام ومشى . وفيه أيضاً عن عبد الرحمن بن سعد قال : كنت عند ابن عمر رضى الله عنهما ، فخدرت رجله فقلت : يا أبا عبد الرحمن ما لرجلك ؟ قال قد اجتمع عصبها من هاهنا ، قلت : ادع أحسن الناس إليك فقال : يا محمد فانبسطت . وفى الأذكار للنووى راوياً عن كتاب ابن السنى عن مجاهد قال : خدرت رجل رجل عند ابن عباس فقال ابن عباس رضى الله عنهما : اذكر أحب الناس إليك ، فقال : محمد صلى الله عليه وسلم فذهب خدره ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة . (هذا والمدار فى الشفاعة على وجود ما يدعو لقبولها لا على التساوى فى الكرامة ، ولذا صح الانتقال منه صلى الله عليه وسلم إلى العباس رضى الله عنه ، ومن العباس إلى غيره فى الاستسقاء مما يدل على أن التشريع منسحب على الزمان كله ، مع علمه صلى الله عليه وسلم بالتفاوت والتنازل فى الخيرية ، كما يشهد له حديث « خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » وقد وعد الله تعالى كثيراً من عباده المؤمنين بقبول دعوتهم ، وإجابة طلبهم ، فقد ورد أن دعوة الصائم ، والإمام العادل ، والمظلوم ، والوالد ، والمسافر لا ترد ،

وليس معنى هذا أننا نقول إن الدعاء بغير وسيلة ممنوع ، ولكنا نود أن نبين أن الدعاء بالوسيلة مأذون فيه شرعاً ، فقد تبين بما علم أن التوسل بالأنبياء والصالحين سبب من أسباب رحمة الله تعالى ، وبما ثبت من هذه النقول أن التوسل بالذوات الفاضلة أحياء وأمواتاً لا يتعارض مع عقيدة التوحيد مطلقاً ، وأنه يجوز التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل بروزه لهذا العالم وبعده وفى حياته وبعد وفاته ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بشفاعته صلى الله عليه وسلم وأن يرضى عنا ببركته وبركة أوليائه إنه سميع مجيب) .

الاستغاثة

قال تعالى : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » .

وقبل أن نتكلم على أنواع الاستغاثة نوضح بعض الأوجه فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » فمنها : أن الحديث لا يمنع من التوسل والاستغاثة ، ويكون على هذا المعنى إذا سألت فاسأل الله أى بمقرب من خلقه وبدونه ، ولأن المتوسل بأهل القرب من الله سائل لله ، والحديث نهى عن سؤال غير الله ، ومنها أن المراد به منع سؤال غير الله فى الأمور العظام التى لا تليق إلا بالله ولا يقدر عليها إلا هو سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً ، وأما الأشياء التى فى مقدور العباد أن يفعلوها بما أعطاهم الله من قوة فلا نهى عنه أيضاً ، فقد قال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى (يا محمد) فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » والسؤال هنا لرسول الله لا لله وكذلك ماورد فى البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « وإنه أتانى وفد جن نصيبين ، ونعم الجن فسألونى الزاد ، فدعوت الله لهم . . . » الحديث سبق ذكره بتمامه .

فانظر قوله صلى الله عليه وسلم « فسألونى الزاد » أى الرزق مع أن الله هو الرازق وكذلك قول سيدنا سليمان عليه السلام موجهاً الخطاب للجن والإنس « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » ، فقد سألهم إتيان العرش ، وإتيانه على هذه الصورة ليس من فعل البشر عادة ولذلك « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ، فانظر إلى قول الذى

إذا خدرت رجله : أن ابن عمر رضى الله عنهما لما خدرت رجله قال : يا محمد اه فقام ومشى . وفيه أيضاً عن عبد الرحمن بن سعد قال : كنت عند ابن عمر رضى الله عنهما ، فخدرت رجله فقلت : يا أبا عبد الرحمن ما لرجلك ؟ قال قد اجتمع عصبها من هاهنا ، قلت : ادع أحسن الناس إليك فقال : يا محمد فانبسطت . وفى الأذكار للنووى راوياً عن كتاب ابن السنى عن مجاهد قال : خدرت رجل رجل عند ابن عباس فقال ابن عباس رضى الله عنهما : اذكر أحب الناس إليك ، فقال : محمد صلى الله عليه وسلم فذهب خدره ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة . (هذا والمدار فى الشفاعة على وجود ما يدعو لقبولها لا على التساوى فى الكرامة ، ولذا صح الانتقال منه صلى الله عليه وسلم إلى العباس رضى الله عنه ، ومن العباس إلى غيره فى الاستسقاء مما يدل على أن التشريع منسحب على الزمان كله ، مع علمه صلى الله عليه وسلم بالتفاوت والتنازل فى الخيرية ، كما يشهد له حديث « خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » وقد وعد الله تعالى كثيراً من عباده المؤمنين بقبول دعوتهم ، وإجابة طلبهم ، فقد ورد أن دعوة الصائم ، والإمام العادل ، والمظلوم ، والوالد ، والمسافر لا ترد .

وليس معنى هذا أننا نقول إن الدعاء بغير وسيلة ممنوع ، ولكنا نود أن نبين أن الدعاء بالوسيلة مأذون فيه شرعاً ، فقد تبين بما علم أن التوسل بالأنبياء والصالحين سبب من أسباب رحمة الله تعالى ، ومما ثبت من هذه النقول أن التوسل بالذوات الفاضلة أحياء وأمواتاً لا يتعارض مع عقيدة التوحيد مطلقاً ، وأنه يجوز التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل بروزه لهذا العالم وبعده وفى حياته وبعد وفاته ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بشفاعته صلى الله عليه وسلم وأن يرضى عنا ببركته وبركة أوليائه إنه سميع مجيب) .

الاستغاثة

قال تعالى : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » .

وقبل أن نتكلم على أنواع الاستغاثة نوضح بعض الأوجه فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » فمنها : أن الحديث لا يمنع من التوسل والاستغاثة ، ويكون على هذا المعنى إذا سألت فاسأل الله أى بمقرب من خلقه وبدونه ، ولأن المتوسل بأهل القرب من الله سائل لله ، والحديث نهى عن سؤال غير الله ، ومنها أن المراد به منع سؤال غير الله فى الأمور العظام التى لا تليق إلا بالله ولا يقدر عليها إلا هو سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً ، وأما الأشياء التى فى مقدور العباد أن يفعلوها بما أعطاهم الله من قوة فلا نهى عنه أيضاً . فقد قال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى (يا محمد) فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » والسؤال هنا لرسول الله لا لله وكذلك ماورد فى البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « وإنه أتانى وفد جن نصيبين ، ونعم الجن فسألونى الزاد ، فدعوت الله لهم . . . » الحديث سبق ذكره بتمامه .

فانظر قوله صلى الله عليه وسلم « فسألونى الزاد » أى الرزق مع أن الله هو الرازق وكذلك قول سيدنا سليمان عليه السلام موجهاً الخطاب للجن والإنس « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » ، فقد سألهم إتيان العرش ، وإتيانه على هذه الصورة ليس من فعل البشر عادة ولذلك « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ، فانظر إلى قول الذى

عنده علم من الكتاب أنا آتيك به ، ونسب الإتيان لنفسه ، وقد أتى به فعلا ، ولم يقل أحد بأن سليمان عليه السلام ، وآصف بن برخيا مشركان لسؤال سليمان للخلق ، ونسبة آصف الإتيان لنفسه ، لأن المستعين بقدرة العباد التي أوجدها الله فيهم هو في الحقيقة مستعين بقدرة الله عز وجل .

ومنها أن الحديث يدل بمفهومه على منع سؤال غير الله مطلقاً ، حتى في الأمور الضئيلة التي جرت العادة فيها بسؤال الناس بعضهم بعضاً ، مع أن الإجماع منعقد كما يجري الآن على جواز السؤال فيها ، كما لو سأل شخص آخر أن يناوله شربة ماء ، أو يعطيه شيئاً مما أعطاه الله ، أو يتوسط له عند كبير في تحصيل مصلحة ، أو دفع مظلمة وهكذا ، ولم يقل أحد بمنعه بل قال تعالى « وأما السائل فلا تنهر » وكما في الحديث « إن المسألة لاتصلح إلا لثلاث : إلا لذي فقر مدقع ، أو لذي غرم مفظع ، أو لذي دم موجع » رواه أبو داود والبيهقي عن أنس وكحديث « للسائل حق وإن جاء على فرس » ورد من حديث علي وفاطمة وغيرهما ، وكل ذلك سؤال لغير الله جزما .

ومنها أن منع سؤال غير الله في الحديث ليس من باب الواجب المحتم بل هو من باب الندب والإرشاد إلى ما هو الأولى ، واستنهاض النفوس إلى تحصيل الكمال ، وذلك برفع الهمة عن الخلق ، والالتجاء إلى الخالق ، ورد الأمور كلها إليه سبحانه وتعالى ، كما يفعله بعض الصوفية المتجردين المتحققين بمقام الفناء صدقاً لا ادعاء ، فيمتنعون عن سؤال الخلق إطلاقاً في صغير الأمور وكبيرها وفي هذه الحالة يتولى الله قضاء مصالحهم : إما بتسخير الخلق في خدمتهم ، أو بقضائها على سبيل خرق العادة إكراماً وبذلك ينقطع تطلعهم

لما عند الناس وترتفع همتهم عما في أيديهم ، فعن عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تبايعوني ؟ وكنا حديثي عهد ببيعة ، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ثم قال : ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يارسول الله فعلام نبايعك ؟ قال « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا ، وأسر كلمة خفية . ولا تسألوا الناس » فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله . رواه مسلم ؛ وعن ابن أبي مليكة قال : ربما يسقط الخطام من يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فيضرب بذراع ناقته فيناخها ، فيأخذه . قال : فقالوا له ألا أمرتنا فنناولكه ؟ قال : إن حبي صلى الله عليه وسلم أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً (١) .

هذا ، وإن كان الكمال في إسقاط الأسباب وعدم الاعتماد عليها كما فعل سيدنا ابراهيم عليه السلام حينما زج به في النار ، ونزل إليه جبريل عليه السلام قائلا له : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى . فقال : سله يعطك ، فقال الخليل عليه السلام : كفى سؤالي علمه بحالي ، فامتنع عن السؤال ، وهو من أسباب الإجابة ، إلا أن الأكمل هو استعمال الأسباب والوسائط فيما خلقها الله وأوجدها من أجله مع رؤية الله في كل شيء وهو ما فعله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلم يمتنع عن الدعاء في مثل موقف سيدنا ابراهيم عليه السلام كما قال تعالى « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين

(١) رواه أحمد كما روى بنحوه وأبو داود والنسائي وابن ماجه باسناد صحيح عن ثوبان رضي الله عنه .

آمنوا معه متى نصر الله ؟ » . كما أنه أعد الجيوش وقادها لنصرة الدين مع يقينه صلى الله عليه وسلم بقول الله عز وجل « وما النصر إلا من عند الله » ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق وأكمل المرسلين . وبعد ذلك نعود إلى الاستغاثة فنقول :

الاستغاثة بغير الله فى الاعتقاد بأن للمستغاث به قدرة على خلق الغوث وإيجاده شرك صريح ، وأما الاستغاثة بغير الله على سبيل التسبب والكسب فأمر نطقت به اللغة وجوزه الشرع .

وذلك بأن يستغيث العبد بمن ترى صورته ، أو بمن يسمع صوته ، أو بمن لا ترى صورته ولا يسمع صوته ، وهو معتقد أن المستغاث به سبب فى حصول الغوث له : بأن أعطاه الله قدرة عليه إما بقضائه مباشرة ، وإما بالعمل على قضائه بالدعاء والاستشفاع مثلا ، واستوى فى ذلك الحى والميت حيث ثبتت حياة الأرواح وتسببها فى منفعة الأحياء ، وعلى شرط أن يكون المستغاث به فى الحالين جميعاً مسلماً ، إذ لا فرق بينهما ما دام الله سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لما تسببا فى حصوله بما أعطاهم الله من خصوصية وفضائل ، وإليك الدليل :

أولا : الاستغاثة بالمخلوق المرئى الحاضر

قال تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه » قال الإمام الرازى فى تفسيره : فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، أى سأله أن يخلصه منه ، واستنصره عليه فوكزه موسى عليه السلام ، وقال العلامة أبو السعود العمادى فى تفسيره :

فاستغاثه الذى من شيعته أى سأله أن يغيثه بالإعانة كما ينبىء عنه تعديته بعلى وقرىء فاستعانه . اهـ

ثانياً : الاستغاثة بالغائب الذى لا ترى صورته ولكن يسمع صوته

أخرج البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة سيدتنا هاجر قال النبى صلى الله عليه وسلم : فذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فقالت : صه !! تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء .

وكذلك روى البخارى فى صحيحه من رواية ابن عباس أيضاً فى نفس القصة قال الحديث وفيه « فإذا هى بصوت ، فقالت : أغث إن كان عندك خير فإذا جبريل » وقد نقل البدر العينى فى شرح هذه القصة عن السدى قال « ثم سمعت صوتاً فجعلت تدعو أسمع أبل يعنى أسمع يا أله ، هلكت وهلك من معى ، فإذا هى بجبريل عليه السلام فقال لها من أنت ؟ قالت سرية ابراهيم تركنى وإبنى ههنا قال . إلى من وكلكما ؟ قالت : إلى الله تعالى ، قال : وكلكما إلى كاف » القصة .

أى أنها أرادت بقولها « أسمع إيل » يا أله اجعل لى من صاحب هذا الصوت غوثاً . لأنه لا يمكن افتراض أنها ظنت الصوت كلاماً من الله . فإن كلام الله ليس بصوت ، وإلا شابه خلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثالثاً : نداء الغائب الذى لا يسمع صوته ولا ترى صورته والاستغاثة به :

أخرج الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ؛

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله ملائكة فى الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر ، فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة ، أعينوا عباد الله » (١) .

وأخرج ابن السنى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : ياعباد الله احبسو ياعباد الله احبسوا ، فإن لله عز وجل فى الأرض حاضراً سيحبسه » ذكره الإمام النووى فى الأذكار وقال : حكى لى بعض شيوخنا الكبار فى العلم أن انفلتت دابة أظنها بغلة ، وكان يعرف هذا الحديث فقاله فحبسها الله عليهم فى الحال ، وكنت أنا مرة فى جماعة ، فانفلتت منها بهيمة وعجزوا عنها فقلته فوقفت فى الحال بغير سبب سوى هذا الكلام » اهـ :

وأخرج الطبرانى عن عتبة بن غزوان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا أضل أحدكم شيئاً ، وأراد عونا وهو بأرض ليس بها أنيس ، فليقل ياعباد الله أعينونى ، وفى لفظ أغيثونى ، فإن لله عباداً لا نراهم » (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد ياعباد الله احبسوا ياعباد الله احبسوا فإن لله حاضراً سيحبسه عليهم » (٣) .

وأما ما رواه الطبرانى عن عبادة قال : كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين ، فقال أبو بكر الصديق قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنه

(١) قال الهيثمى رجاله ثقات كما قال الحافظ الهيثمى .
(٢) ذكره النووى فى الأذكار وابن القيم فى الكلم الطيب وابن مفلح فى الآداب .
(٣) رواه الحاكم وأبو عوانة والبزار بسند صحيح ورواه أبو يعلى فى مسنده والطبرانى فى المعجم الكبير .

لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » وهذا الحديث ينفى الاستغاثة حتى بالحى المرئى ، ولكن الحافظ الهيثمى وغيره كذبوا الحديث وضعفوه لوجود ابن لهيعة فى سنده ، وعلى فرض صحة هذا الحديث فليس سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دون سيدنا موسى عليه السلام الذى ثبتت إغاثته فى كتاب الله ، وقد جاء فى وصف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : كان إذا مات مسلم وعليه دين قضى عنه دينه ، وإذا أتاه ملهوف أغاثه ، وإذا قحط الناس أتوه مستشفعين مستغيثين ، وقال أعرابى عند ماجاء مستشفعاً به صلى الله عليه وسلم :

أتيناك والعذراء يدمى لبانها ... وقد شغلت أم الصبى عن الطفل
وليس لنا إلا إليك فرارنا ... وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فدعا فسقى لهم ... هذا ، وبما أن القائل قوموا بنا نستغيث هو سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه فيلزم تأويل الحديث بأنه لايستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه خالق الغوث وموجده ولكن يستغاث به على أنه سبب فيه والله أعلم .

(فائدة) أثبت ابن تيمية فى كتابه الفرقان من كرامات سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما أثبتها غيره « لما أرسل عمر بن الخطاب جيشاً أمر عليهم رجلا يسمى سارية ، فبينما عمر يخطب ، فجعل يصيح على المنبر : ياسارية الجبل ! ياسارية الجبل ! فقدم رسول الجيش فسأله ، فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدواً فهزمونا فإذا بصائح : ياسارية الجبل ! ياسارية الجبل ! فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله » ومنها يؤخذ أنه يجوز حدوث مثلها لمن ثبتت ولايته عند الله وكرامته ، كأن يرى هذا الولى على سبيل الكرامة أحد أحبابه ممن تعلقت أرواحهم به محبة فى الله ، ومن يهمه مصلحتهم كأن كان أخاه فى الله وأحبه وتابعه ، أقول لايمتنع أن يرى هذا الولى تابعه كما رأى سيدنا عمر سارية وجيشه ،

ويسمعه كما أسمع سيدنا عمر سارية ، ويتسبب الولى بذلك فى غوث تابعه ومعونته ، كما تسبب سيدنا عمر رضى الله عنه فى غوث الجيش ونصرته بفضل الله كما شهدت بذلك الآثار الكثيرة ولا عبرة فى ذلك بإنكار المعاندين المحجوبين ، فما ذنبنا فى حجابهم ، فلو زال حجابهم لأثبتوا مايرى المبصرون . والله يختص برحمته من يشاء

وأن ليس للإنسان إلا ماسعى

سعى الإنسان ينقسم قسمين : (١) ما يعمله بنفسه فى حياته . (٢) وما يترتب على هذا العمل فى حياته وبعد مماته ، فأما عمله الذى يباشره بنفسه فينقطع بانقطاع حياته الدنيوية ، وأما ما يترتب على هذا العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات بن آدم انقطع عمله — أى ما يباشره بنفسه — إلا من ثلاث : صدقة جارية . أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

فما ترتب على الصدقة من جريان مستمر ، وما ترتب على العلم من انتفاع دائم ، وما يترتب على الإبن الصالح من دوام الدعاء . فهذه الثلاثة وما يماثلها مستثناة من الانقطاع كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » . وقوله تعالى : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس ، أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

وإيمان العبد من سعيه ، فما ترتب على الايمان من دعاء المسلمين له واستغفار الملائكة وغير ذلك فهو لا ينقطع أيضاً ، قال تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » . وقال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ،

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » . وقال تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء » وفى هذه الآية رأيان ، الأول : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان » ، وقرأ ابن عامر ويعقوب ذرياتهم للمبالغة فى كثرتهم ، ويؤخذ منه كل ما خرج من ذرياتهم واتبعهم بإيمان إلى يوم القيامة « ألحقنا بهم ذريتهم » فى دخول الجنة أو الدرجة ، لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يرفع ذرية المؤمن فى درجته ، وإن كانوا دونه لتقر بهم عينه » ثم تلا هذه الآية « وما ألتناهم » وما أنقصناهم يعنى الآباء « من عملهم من شىء » بهذا الإلحاق تفضلا منا عليهم ، والثانى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم » ثواب « ذريتهم وما ألتناهم » أى الأبناء « من عملهم من شىء » بإلحاق ثواب أعمالهم لآبائهم وعلى كلا الحالتين ، فالإيمان نفع الإبن بأبيه المؤمن ، ونفع الأب بابنه المؤمن ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال الحسين بن الفضل : وأن ليس للانسان إلا ما سعى من طريق العدل ، وأما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله تعالى ما شاء ، وقيل إن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء ، وأولد الأولاد ، ونكح الأزواج ، وأسدى الخير ، وتودد إلى الناس ، فترحموا عليه ، وأهدوا له العبادات ، وكان ذلك أثر سعيه كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه » .

قال ابن القيم : وهذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام ؛ فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى فى انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله ، كما ينتفع بعملهم فى الحياة مع عمله ، فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض

، الأعمال التى يشتركون فيها كالصلاة فى جماعة ، فإن كل واحد منهم تضاعف
لاته إلى سبعة وعشرين ضعفاً لمشاركة غيره له فى الصلاة ، فعمل غيره كان سبباً
يادة أجر الآخر ، بل قيل : إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المصلين ، وكذلك
تراكهم فى الجهاد ، والحج ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والتعاون
ى البر والتقوى وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن
لبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك أصابعه . ومعلوم أن هذا بأمور الدين أولى
ه بأمور الدنيا ، فدخول المسلم مع جماعة المسلمين فى عقد الإسلام من أعظم
سباب فى وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه فى حياته وبعد مماته ، ودعوة
سلمين تحيط من ورائهم ، وقد أخبر الله عن حملة العرش ومن حوله أنهم
تغفرون للمؤمنين ويدعون لهم ، وأخبر عن دعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين
نوح وإبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول
ا الدعاء إليه فكأنه من سعيه — إلى أن قال — وقد دل على ذلك قول النبى
ى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص إن أباك لو كان أقر بالتوحيد فصمته ذلك ،
ى العتق الذى فعل عنه بعد موته ، فلو أتى بالسبب لكان قد سعى فى عمل
صل إليه ثواب العتق ، وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً » اهـ .

والحديث الذى أشار إليه رواه أحمد وغيره عن عبدالله : أن عمرو بن العاص
، وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة ، وأن هشام بن العاص نحر خمسة
فسين وأن عمراً سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال أما أبوك فلو أقر
وحيد . فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك » فالحديث يفيد أن سبب انتفاع
ت بما يهدى إليه من الأعمال إيمانه وتوحيده ، هذا والآية لم تنف انتفاع الرجل
ى غيره ، وإنما نفت ملكه لغير سعيه ، وبين الأمرين فرق لا يخفى ، فأخبر
تعالى أن الإنسان لا يملك إلا سعيه أما سعى غيره فهو ملك لساعيه ، فإن شاء

أن يبذله لغيره ، وإن شاء أن يبقيه لنفسه ، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع
إلا بما سعى . قال ابن القيم : وكان شيخنا — يعنى ابن تيمية — يختار هذه الطريقة
ويرجحها اهـ . ومعنى هذا أن الإنسان إذا عمل عملا من الطاعات والقراءة
والذكر فله بذلك ثواب ، فإذا طلب من الله أن يهب ثوابه فى ذلك إلى غيره من
المسلمين ، فإن الله يزيد ذلك فى حسنات الموهوب له ، ويعطى الواهب مثله من
فضله ويكون ذلك فى معنى الدعاء بظهر الغيب أيضاً .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب
لغائب » رواه الترمذى وأبو داوود وأخرج مسلم عن أبى الدرداء قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه
ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل : آمين ولك بمثله » واستوت
الهبة للحى والميت ، وثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رجلا أتى النبى صلى الله
عليه وسلم فقال يا رسول الله : إن أمى افتلتت نفسها ، ولم توص ، وأظنها
لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال نعم ، وروى البخارى
عن ابن عباس أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فقال يارسول الله :
إن أمى توفيت وأنا غائب عنها أينفعها شىء إن تصدقت عنها ؟ قال نعم ،
قال : فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها .

وروى البخارى عن ابن عباس أن امرأة قالت يا رسول الله : إن فريضة
الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة ، أفأحج
عنه ؟ قال نعم ، وذلك فى حجة الوداع ، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة
أن رجلا قال : يا رسول الله إن أبى مات وترك مالا ولم يوص ، فهل يكفى
عنه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم ، وفى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » وفى الصحيحين

عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها ؟ قال : « نعم ، فدين الله أحق أن يقضى » وفى صحيح مسلم عن بريدة قال : بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتته امرأة ، فقالت : إنى تصدقت على أمى بجارية ، وأنها ماتت ، فقال : وجب أجرك وردها عليك الميراث ، قالت يارسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها ؟ قال : صومى عنها ، قالت إنها لم تحج قط أفأحج عنها قال : حجى عنها ؟ وعن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال قال أبى اللجلاج أبو خالد : يا بنى إذا أنا مت فألحدنى ، فإذا وضعتنى فى لحدى ، فقل : بسم الله ، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم شن على التراب شناً ، ثم اقرأ عند رأسى بفاتحة البقرة ، وخاتمتها ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك (١) وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » رواه مسلم .

وذكر الخلال عن الشعبى قال : كانت الأنصار إذا مات لهم ميت اختلفوا إلى قبره يقرأون عنده القرآن ، وقال الحسن الزعفرانى سألت الشافعى عن القراءة عند القبر ، فقال لا بأس بها .

وقال القرطبى فى التذكار : وذكر الثعلبى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات » وقال محمد بن أحمد المروزى سمعت أحمد ابن حنبل يقول : إذا دخلتم المقابر فاقرأوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد ، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم .

(١) رواه الطبرانى فى معجمه وقال الهيثمى رجال السند موثقون كما قال الهيثمى . وروى البيهقى فى الشعب مثله عن ابن عمر غير أن فيه فاتحة الكتاب .

وخلاصة القول أن الميت كما ينتفع بالحج والصوم والصدقة ينتفع بالدعاء والاستغفار إجماعاً ، وبالقراءة كما عليه الجمهور ، وخالف فيها الشافعى ما لم تكن خارجة مخرج الدعاء . كأن يقول : اللهم اجعل ثواب قراءتى لفلان . وإلا وصل ثوابها له إجماعاً ، ومثل القراءة الذكر والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وكما يحصل الثواب للميت يحصل للحى أيضاً إذا نواه والله ذو الفضل العظيم .

الرقية

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : انطلق نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب ، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحى فسعوا له بكل شىء لا ينفعه ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شىء ؟ فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شىء لا ينفعه ، فهل عند أحد منكم من شىء ؟ فقال بعضهم : نعم ، إى والله لأرقى ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق وجعل يتفل عليه ويقرأ : الحمد لله رب العالمين ، فكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشى وما به قلبة ، قال : فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه ، فقال بعضهم : اقسموا ، فقال الذى رقى لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له الذى كان ، فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول الله عليه وسلم ، فذكروا له فقال : وما يدريك إنها رقية ! ثم قال : أصبتم ، واضربوا لى معكم سهماً فضحك النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

يا محمد : اشتكيت ؟ فقال . نعم ، قال : « باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك » رواه مسلم .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال : أذهب الباس رب الناس ، واشف أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك ، لا يغادر سقما » رواه الشيخان .

وعن خارجة بن الصلت التيمى عن عمه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، ثم أقبل راجعاً من عنده ، فمر على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد ، فقال أهله : إنا حدثنا أن صاحبكم هذا قد جاء بخير فهل عندك شيء تداويه ؟ فرقيته بفاتحة الكتاب ، فبرأ ، وأعطونى مائة شاة ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : هل قلت غير هذا ؟ قلت : لا ، قال : خذها فلعمرى لمن أكل برقية باطل ، لقد أكلت برقية حق (١) .

وعن عبد الملك بن عمير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاتحة الكتاب شفاء من كل داء (٢) .

وقال تعالى : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » قال الفخر الرازى وغيره لفظة (من) ليست للتبعيض بل للجنس ، والمعنى وننزل من هذا الجنس الذى هو القرآن ما هو شفاء للأمراض الروحانية والأمراض الجسمانية . وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن (٣) .

وقد ورد الإذن فى كل رقية ليس فيها شرك ، ولا ما يؤدى إليه ، فى

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم وصححه .
(٢) رواه الدارمى والبيهقى بسند رجاله ثقات .
(٣) رواه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعى قال : كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : « أعرضوا على رقاكم لا بأس بالرقى مالم يكن فيه شرك » وفى الصحيح عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرقى ، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله إنه كانت عندنا رقية نرقى بها العقرب ، وأنك نهيت عن الرقى . قال : فعرضوها عليه فقال . « ما أرى بأساً من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه » .

وعن جابر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأسماء بنت عميس مالى أرى أجسام بنى أخى ـ يعنى جعفر رضى الله عنه ـ ضارعة (نحيفة) تصيبهم الحاجة ، قالت : لا ، ولكن العين تسرع إليهم . قال : أرقيهم . قالت : فعرضت عليه فقال : أرقيهم » (١) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، وهى تفيد القطع بجواز الرقى ، والتعوذ بما ليس فيه شرك ، ولا يؤدى إليه وعليه انعقد إجماع العلماء بشروط ثلاثة الأول : أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته ، الثانى : أن تكون باللسان العربى أو بما يعرف معناه من غيره ، الثالث : أن يعتقد أن الرقى لا تؤثر بذاتها بل بقدرة الله تعالى ، كما نقل الحافظ وقال القرطبى : يجوز الرقية بكلام الله تعالى وبأسمائه ، فإن كان مأثوراً استحب وقال الربيع سألت الشافعى عن الرقية ، فقال : لا بأس أن يرقى بكتاب الله تعالى ، وقال ابن القيم : « إذا ثبت أن لبعض الكلام خواص ومنافع فما الظن بكلام رب العالمين ، ثم بالفاتحة التى لم ينزل فى القرآن ولا غيره من الكتب مثلها ؟ » وقد سئل عز الدين بن عبد السلام عن الحروف المقطعة

(١) رواه مسلم وأحمد بإسناد صحيح .

ـ أى التى تكتب فى الرق ونحوها ـ فمنع منها ما لا يعرف ، لئلا يكون فيه كفر . اهـ . وروى البخارى : قال أبو موسى : ولد لى غلام، ودعا له النبى صلى الله عليه وسلم بالبركة . وروى البخارى أيضاً عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يؤتى بالصبيان ، فيدعو لهم ، فأتى بصبي فبال عليه ـ أى الصبى ـ الحديث .

وروى البخارى أيضاً عن الجعد بن عبد الرحمن قال : سمعت السائب ابن يزيد يقول : ذهبت بى خالتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن ابن أختى وجع ، فمسح رأسى ، ودعا لى بالبركة ، ثم توضأ فشربت من وضوئه . . » الحديث .

فلا بأس من التماس البركة فى الصالحين ، ولا بد من معاشرة المخلصين وطلب الدعاء من المقربين ، فإنما يتقبل الله من المتقين .

زيارة القبور

زيارة القبور مشروعة بنص قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها » . وحديث السيدة عائشة رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام زار بقيع الغرقد واستغفر فيه لموتى المسلمين ، وتختلف الزيارة باختلاف الغرض منها :

فإن كانت للاتعاظ والاعتبار فلا فرق فى جوازها بين قبور المسلمين والكفار ، وإن كانت للترحم والاستغفار من الزائر ، فلا منع فيها إلا فى حق الكافر ، وعليه حمل قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » . وإن كانت الزيارة لاستمداد الزائر من المزور والدعاء عند قبره ، والتوسل به فهى مندوبة مرغب فيها ، وتختلف المزارات فى الدرجات بحسب ما لأصحابها من الكرامات عند الله .

قال ابن الحاج فى المدخل فى باب زيارة القبور بعد أن ذكر الزيارة المشروعة وهذه صفة زيارة القبور عموماً ، فإن كان الميت المزار ممن ترجى بركته فيتوسل به إلى الله تعالى ، وكذلك يتوسل الزائر بالنبى صلى الله عليه وسلم ، بل يبدأ بالتوسل إلى الله تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم إذ هو العمدة فى التوسل، والأصل فى هذا كله ، والمشرع له فيتوسل به صلى الله عليه وسلم ، وبمن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ، وقد روى البخارى عن أنس أن عمر رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ـ وذكر الحديث ـ ثم يتوسل بأهل تلك المقابر، أعنى بالصالحين منهم فى قضاء حوائجه ، ومغفرة ذنوبه ، ثم يدعو لنفسه ولوالديه ولمشايخه ولأقاربه ، ولأهل تلك المقابر ، ولأموات المسلمين ، ولأحيائهم وذريتهم إلى يوم الدين ، ولمن غاب عنه من إخوانه ، ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم ، ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى ، لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم وشرفهم وكرمهم ، فكما نفع بهم فى الدنيا ، ففى الآخرة أكثر ، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم ، وليتوسل بهم ، فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه ، وقد تقرر فى الشرع وعلم ما لله تعالى بهم من الاعتناء ، وذلك كثير مشهور ، وما زال الناس من العلماء والأكابر : كابراً عن كابر مشرقاً ومغرباً ، يتبركون بزيارة قبورهم ، ويجدون بركة ذلك حساً ومعنى ، ثم قال : وقد قال الإمام الجليل أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى كتاب آداب السفر من كتاب الأحياء له ما هذا نصه القسم الثانى : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لجهاد ، أو حج إلى أن قال : ويدخل فى جملته زيارة قبور الأنبياء وقبور الصحابة والتابعين ، وسائر العلماء والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته فى حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته . ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ، ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى ، والمسجد الأقصى ، لأن ذلك فى المساجد ، لأنها

متماثلة بعد هذه المساجد ؛ وإلا فلا فرق بين زيارة الأنبياء والعلماء والأولياء فى أصل الفضل وإن كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله عز وجل ، والله تعالى أعلم . ثم تكلم على حكم من نذر المشى إلى المسجد أو إلى زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : وأما عظيم جناب الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فيأتى إليهم الزائر ، ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة ، فإذا جاء إليهم فليتصف : بالذل والانكسار والمسكنة والفاقه والحاجة والاضطرار والخضوع ؛ ويحضر قلبه وخاطره إليهم ، وإلى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره ، لأنهم لا يبلون ولا يتغيرون ، ثم يثنى على الله بما هو أهله ، ثم يصلى عليهم ، ويترضى عن أصحابهم ، ثم يترحم عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، ثم يتوسل إلى الله تعالى بهم فى قضاء مآربه ، ومغفرة ذنوبه ، وبستغيث بهم ، ويطلب حوائجه منهم ، ويجزم بالإجابة ببركتهم ، ويقوى حسن ظنه فى ذلك فإنهم باب الله المفتوح ، وجرت سنته سبحانه وتعالى فى قضاء الحوائج على أيديهم ، وبسببهم ، ومن عجز عن الوصول إليهم فليرسل بالسلام عليهم ، ويذكر ما يحتاج إليه من حوائجه ، ومغفرة ذنوبه ، وستر عيوبه إلى غير ذلك ، فإنهم السادة الكرام ، والكرام لا يردون من سألهم ، ولا من توسل بهم ، ولا من قصدهم ولا من لجأ إليهم . اهـ

هذا كلام ابن الحاج وهو مالكى ، ومن أشد الناس محاربة للبدع ، فلا ينبغى رمى المسلمين بالكفر والإشراك لزيارتهم للصالحين وتوسلهم بهم ، وإن كان يصح إرشادهم ، ويجب تعليمهم آداب الزيارة وكيفية التوسل بالحد المشروع فلا ينطقون بألفاظ يوهم ظاهرها الإشراك مع اعتقادهم التأثير لله وحده ، كما يجب منعهم من الذهاب إلى مقابر الكفار والمشركين للزيارة فضلا عن التوسل بهم ، وطلب الحوائج منهم فى كنائسهم وأديرتهم ، فهذا وما يشبهه يحرمه الإسلام ويقع

على فاعله غضب الله وعذابه « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » .

ولا يصح بحال من الأحوال سب الأولياء فضلا عن الأنبياء ، والولوغ فى أعراضهم ، والتحقير من شأنهم بحجة أن هذا يمنع الناس من التقرب إلى الله بهم ، فهذه هى الطامة الكبرى على من هذا نهجه ، فقد أخذ من حيث لا يدرى ، واستحوذ عليه الشيطان من حيث لا يشعر ، فقد أوقعه اللعين فى الغيبة ، وما ترتب عليها ؛ ومعاداة الله بمعاداة أوليائه .

وإذا قلت له هذا القول أوحى إليه شيطانه « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » قائلا له وعلى لسانه : وما أعلمنى بولايته ؟ يا هذا !! وما الذى حملك على سوء الظن بعباد الله ، وأنت يوم القيامة لا تسأل عن حسن الظن بل تثاب عليه ولكن يسألك ربك لم أسأت الظن ؟ ولم خالفت ما عليه إجماع المسلمين ؟ ياهذا ! ! أما علمت أنك بتهجمك على من أجمع المسلمون على ولايته ، وتواردت الأخبار بكرامته ـ وأنت لا تبنى حكمك إلا عن ظن سىء وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ـ قد انتهكت حرمات الصالحين ، وحقرت حرمات الله « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » أما علمت يا هذا ! ! أن حرمة المؤمن عظيمة عند الله فلا ينتهك عرضه ، ولا ينتهب ماله ، ولا يظن به ظن السوء . فعن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن النبى صلى الله عليه وسلم نظر إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ؛ وللمسلم أعظم حرمة منك حرم الله دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء » (١) .

قال الإمام الفخر الرازى فى المطالب العالية بعد مقدمة أثبت فيها أن حياة النفوس البشرية فى البرزخ أقوى منها أثناء حياتها الدنيوية لتخلصها من إسار البدن ؛ وأثبت فيها أيضاً أن تعلق النفوس بأبدانها تعلق يشبه العشق الشديد

(١) رواه البيهقى وابن أبى شيبة وروى ابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر .

والحب التام ، فإذا مات الإنسان وفارقت النفس هـذا البدن فذلك الميل يبقى ، وذلك العشق لا يزول . . إذا عرفت هـذه المقدمات فنقول : إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوى النفس كامل الجوهر شديد التأثير ووقف هناك ساعة ، وتأثرت نفسه من تلك التربة ـ وقد عرفت أن لنفس ذلك الميت تعلقاً بتلك التربة أيضاً ـ فحينئذ يحصل لنفس هذا الزائر الحى ، ولنفس ذلك الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة ؛ فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى ، فكل ماحصل فى نفس هذا الزائر الحى من المعارف البرهانية ، والعلوم الكسبية ، والأخلاق الفاضلة من الخضوع لله ، والرضا بقضاء الله ، ينعكس منه نور إلى روح ذلك الميت ، وكل ما حصل فى نفس ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرفة الكاملة فإنه ينعكس منه نور إلى روح هذا الزائر الحى ، و بهذا الطريق تكون تلك الزيارة سبباً لحصول المنعة الكبرى ، والبهجة العظمى لروح الزائر ولروح المزور ، وهذا هو السبب الأصلى فى شرعية الزيارة ، ولا يبعد أن تحصل فيها أسرار أخرى أدق وأغمض مما ذكرناه ، وتمام العلم بحقائق الأشياء ليس إلا عند الله . اه

وقال ابن القيم فى كتاب الروح : للروح شأن آخر غير شأن البدن ، فتكون فى الرفيق الأعلى وهى متصلة ببدن الميت بحيث إذا سلم على صاحبها ردت السلام ، وهى فى مكانها هناك ، وهذا جبريل رآه النبى صلى الله عليه وسلم وله ستمائة جناح منها جناحان سد الأفق بهما ، وكان يدنو من النبى صلى الله عليه وسلم حتى يضع ركبتيه على ركبتيه ويديه على فخذيه ، وقلوب المخلصين تتسع للايمان بأن من الممكن أنه كان يدنو هذا الدنو وهى فى مستقرها من السموات اه .

ولا شك أن أولياء الله ما نالوا ولايته إلا بمحبتهم له ، ودوام ذكره وطاعته ، فهو معهم ، وعلى الدوام جليسهم . وما تقربوا إليه إلا بالإحسان

فى كل ما أمرهم ، ورحمة الله دائمة لا تنقطع ، وقد قال جل جلاله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

الخـــاتمة

وما خاتمة هذا الكتاب إلا نداء أوجهه إلى جميع المسلمين ، فإليـك يامن تحزبت فى وجهتك ، وتعصبت لرأيك ، إعلم أن طالب الحقيقة ـ وأظنك تطلبها ـ وطالب الحقيقة لا غضاضة عنده أن يأخذها من كل شىء مهما كان ، ويبحث عنها فى كل زمان ومكان ، فيسمع آراء غيره وحججهم مهما عارضته ، ويقرأ فى كتبهم مهما خالفته ؛ ثم يقارن الحجة بالحجة ، والرأى بما عارضه ، ويبحث العقل الذى أنعم الله به عليه ، ويطابق بينهما مهتدياً بأصح ما أتت به الشرائع إليه ؛ والحقيقة بنت البحث ، والهداية إلى الحق بالصدق فى طلبه ، والإخلاص فى البحث عنه ، مع التخلى عن الهوى والتعصب ، فإذا ما ظهر الحق ـ ولا بد أن يظهر للمخلصين ـ وجب عليك اتباع ما ترى فيه مصلحتك ، وما فيه حفظ دينك وسعادتك فى الدنيا والآخرة ، وإياك إياك أن ترضى هواك ، وتخالف مولاك ، فيستحوذ عليك الشيطان ويستجنك فيما زينه لك من آراء وميول ، مانعاً لك من الاطلاع على كتب معارضيك وآرائهم محدثاً لك أن فيها ضلالك ، فقد تكون فيها الهداية .

فقد أضل بهذا الباب من قبلك ومن أمثالك خلقاً كثيرين ، ولا تكن كالدابة عقلها فى لجامها ، ولجامها فى يد غيرها ، فربما يقودها للهلاك ، ولماذا تمتنع عن استعراض مالك وما عليك ، وتحكم عقلك ـ وأظنه سليما كما تدعى ـ وما ثبت من الحق فاتبعه إن كنت من الصادقين .

وإليـك يامن منعك الحياء من مخالطة الصـالحين ، فإنهم إن صغروا فى

عينك فهم عند الله أجلاء ، وإن قلوا فى نظرك فهم فى الحقيقة كثيرون ، واعلم أنه لا حياء فى الدين ، ومن منعه حياؤه عن اتباع ما فيه رضاء الله فهو من المتكبرين ، وأوهمه الشيطان بأن هذا حياء ، وهو والله أساس الفساد ورأس كل بلاء .

وأنت أيها المتكبر المغرور يا من قتلك حب الظهور فأعماك هواك ، إن كنت تدعى أن لك كرامة فكرامتك عند الله أولى ، وإن كنت تظن أنك نفسك رحيم ، وعليها من المشفقين ، فقد أهنتها أشد الإهانة ببعدك عن الله استكبارك فى الأرض بغير الحق ، فتواضع لله فى عباده ، وحط رأسك أدباً مع ربك . واسمع قول العزيز الحكيم « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » فارفع همتك عن معاملة الخلق ، وعامل مولاك ، ولا تظهر بين الناس بما لا يحبه الله منك لئلا تكون من الهالكين ، واعلم أنه لابد من يوم تفارق فيه تلك الدنيا التى استعبدتك ، والفائز من كان فى الآخرة عند ربه من المقبولين ، قال عز من قائل « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

وأنت أيها الأخ فى الله ، والمحب له إليك حديث حبيبى وحبيبك وحبيب كل المخلصين مولانا وملاذنا وسيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « الناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم » وها أنت قد علمت أقوى الأدلة وأنصعها من الكتاب والسنة لتأييد ما أنت عليه من العمل ، فثق بأن هذا العلم لا ينفعك إذا لم تعمل ، وإذا عملت فلا تعتمد على عملك واطمع فى رحمة ربك وكن من المخلصين ، وجاهد نفسك كل معنى محجب « ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

وأتوجه إليك يا إلهى مقراً بتقصيرى وعجزى ، باسطاً كف ذلى وضعفى ، طامعاً فى رحمتك التى وسعت كل شىء فاجعلنى ممن كتبتها لهم من عبادك المقربين ، وأسألك يا مولاى أن تنصر الإسلام وتجمع شمل المسلمين ، وتوحد راية الإسلام ، وتزيل البغضاء والشحناء من القلوب ، وتعلى بالوحدة منار الدين .

إلهى وأنت العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب ذو الطول لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، أسألك — مضطراً — يا من تجيب المضطر إذا دعاه وتكشف السوء ، أن تجعلنى من الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

تم بعون الله وحده فى أواخر شهر رمضان المبارك سنة ١٣٦٩ .
وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .
كتبه حامد إبراهيم محمد صقر من المناى مركز شبين الكوم .
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وإخوانه المسلمين . آمين .

أهم مصادر الكتاب ومراجعه

مذكرات سيدى وأستاذى الشيخ عبد العليم إبراهيم القناوى صقر شيخ الطريقة الشاذلية وما حصل لى من بركات دعواته .

صحيح البخارى . صحيح مسلم . الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية للحدادى . تيسير الوصول إلى جامع الأصول لابن الديبع على الشيبانى . تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية لسيدى جلال الدين السيوطى . نتيجة الفكر فى الجهر بالذكر للسيوطى أيضاً لطائف المنن لسيدى تاج الدين ابن عطاء الله السكندرى ، ومفتاح الفلاح ومصباح الأرواح لابن عطاء الله أيضاً . الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض . الرد المحكم المتين على القول المبين للحافظ المحدث السيد عبد الله الغمارى . الأحاديث المنتقاه فى فضائل سيدنا رسول الله للغمارى أيضاً . الانتصار لطريق الصوفية الأخيار للشيخ الزمزمى الغمارى . الصواعق الإلهية فى الرد على الوهابية للشيخ سليمان ابن عبد الوهاب النجدى . حكم التوسل بالأنبياء والأولياء للشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى (وكيل الجامع الأزهر سابقاً) محق التقول فى مسألة التوسل للحافظ الكبير الشيخ محمد زاهد الكوثرى (وكيل المشيخة الدينية فى دولة الخلافة العثمانية سابقاً) شرح حكم ابن عطاء الله لسيدى ابن عباد . بعض مقالات نشرت فى مجلتى : الإسلام ، والنذير .

(وإنى أنصح كل مسلم باقتناء هذه الكتب ، ففيها حقيقة العلم الذى ينجو به العبد من الفتن التى انتشرت فى هذه الأزمنة الفاسدة » .

القول الحق فى الصحة والنطق

باسم الصدر السادة الشاذلية رضى الله عنهم

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الحسينى الظواهرى من علماء الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبى العربى الأمين ، الذى جعله الله هداية للخلق أجمعين ، وأفاض على قلبه من التنزلات الرحمانية مالا يعلم كنهه سواه وعلى آله وأصحابه الذين شمروا عن ساعد الجد فى العمل بما جاء به صلى الله عليه وسلم فكانوا بهذا الاتباع نجوم الهداية . جعلنا الله من المنتفعين لهديهم . وأدام علينا نعمة التخلق والتحلى بأخلاقهم إنه ولى ذلك .

(أما بعد) فقد كنت أعرف طريقة السادة الشاذلية ، وأجلس كثيراً فى مجالسهم وأسمع ذكرهم ، وكثيراً ما كنت أتمنى أن يوفقنى الله إلى شىء ترتاح إليه نفسى فى ذكر هؤلاء السادة ، فأكثرت المراجعة وبحثت المسألة وأحببت أن أكتب ما وفقت إليه وأجعله رسالة صغيرة فى ذكر السادة الشاذلية . وسميتها (القول الحق فى الصحة والنطق باسم الصدر) للسادة الشاذلية رضى الله عنهم . فأسأله سبحانه وتعالى أن يجعلها مقبولة ابتغاء وجه الله الكريم ولعلها تقع موقعاً حسناً فى نفوس الذين رموا هؤلاء السادة فى ذكرهم وسهروا بهم . وإنى قبل التكلم على الذكر أذكر مقدمات ثلاث فأقول :

المقدمة الأولى : قال المحققون من العلماء : أسماء الله سبحانه وتعالى توقيفية : أى يتوقف إطلاقها عليه سبحانه وتعالى وذكره بها على إذن من الشارع ، أو غير توقيفية : أى لا يتوقف إطلاقها عليه على إذن من الشارع بل يجوز تسميته وإطلاق أى اسم عليه وذكره به وإن لم يأذن الشارع ولم

يرد عنه ، ولكن بشرط أن لا يوهم نقصاً ، وجعلوا موضوع هذا الخلاف بينهم الأسماء المشتقة من الصفات والأفعال كالرامى والراعى والداعى والمستهزىء والمنفق وغيرها ، وليس الخلاف فى الأسماء والأعلام ، فالأعلام يجوز لأهل كل لغة أن يسموه بما شاءوا بشرط أن لا يوهم نقصاً كما بين فى الكتب التى هى المراجع وعليها التأويل والتعويل . وعبارة إمام المحققين العضد فى المواقف وشرحها للسيد الشريف رضى الله عنهما وحاشية عبد الحكيم عليها فى المقصد الثالث : تسمية الله تعالى توقيفية : أى يتوقف إطلاقها على الإذن فيه ، وليس الكلام فى أسمائه الأعلام الموضوعة فى اللغات إنما النزاع فى الأسماء المأخوذة من الصفات والأفعال ، فذهب المعتزلة والكرامية إلى أنه إذا دل العقل على اتصافه سبحانه وتعالى بصفة وجودية أو سلبية ، جاز أن يطلق عليه اسم يدل على اتصافه بها سواء ورد بذلك إذن شرعى أو لم يرد ، وكذا الحال فى الأفعال ، وقال القاضى أبو بكر من أصحابنا : كل لفظ دل على معنى ثابت لله تعالى جاز إطلاقه عليه بلا توقيف إذا لم يكن إطلاقه عليه موهما بما لا يليق بكبريائه ، وكتب العلامة الإمام عبد الحكيم رضى الله عنه على قول السيد الشريف : « وليس الكلام فى الأعلام » قوله : وليس الكلام فى الأعلام ، فإن أهل كل لغة يسمونه بلغتهم نحو (خداى وتنكرى) وشاع ذلك بلا نكير فكان إجماعاً على الإذن فيها وعبارة غيره : ويجوز بالإجماع لغير أهل هذه اللغة إذا علموا ذلك اللفظ فى تلك اللغة ودلالته على معناه إطلاقه ، والتكلم به ، وأن يدخلوه فى لغتهم كما هو مدون فى الكتب وفى اللغة العربية ألفاظ كثيرة غير عربية استعملها العرب فى كلامهم بعد علم معناها .

المقدمة الثانية : قال المحققون من المفسرين فى قوله تعالى : « إن إبراهيم لأواه حليم » امتدح الله سبحانه وتعالى ابراهيم فى التنزيل فى سورة التوبة

بما تقدم وفى سورة هود بقوله « إن ابرهيم لحليم أواه منيب » امتدحه بأنه أواه أى كثير التأوه ، وذكروا عدة معان للتأوه فقالوا : الأواه : الخاشع المتضرع وقالوا : الأواه : الذى يكثر التأوه ، وقد كان ابراهيم عليه الصلاة والسلام يكثر من قول أوه من النار ـ بتشديد الواو ـ وقالوا : الأواه المتأوه شفقاً وحباً وفرقاً وخوفاً : شفقاً وحباً للكمال والقيام بواجب العبودية وفرقاً وخوفاً من عدم القيام بواجب العبودية الذى يثيقن ابراهيم لزومه وتحتيمه عليه أداء للطاعة التى يتفانى فيها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وقالوا : إن الأواه معناه الرحيم لأنه كان يكثر من قول (آه) أو (أوه) ـ بتشديد الواو ـ وهى بلغة الحبشة رحيم ، وهذه المعانى التى ذكرت للفظ أواه كلها متلازمة إذ الخشوع والتضرع ، وحب القيام بواجب العبودية ، والخوف من عدم القيام به كل يستلزم الرحمة ، كما أن الرحمة تستلزم ذلك فتكون آه أو أوه بلغة الحبشة معناها ـ يارحيم كما نقل ، وماذكر من التفاوت فى العبارة فى بيان معناها لا يخرج عنه ، وقد قلنا فى المقدمة الأولى : كم من لفظ وضع فى لغة واستعمل فى لغة أخرى ، والمعربات كثيرة ونقل المفسرون أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان عند قوله أوه أو آه يتذكر ما يتعلق به مع مولاه ، فيذكر بقلبه ، ويتأوه بلسانه ، فقلبه متعلق بالله ، ولفظه ونطقه يطلب الرحمة منه سبحانه وتعالى ، فهو ذاكر بقلبه ولسانه ، وهذا هو اللائق بمقامه صلوات الله وسلامه عليه .

المقدمة الثالثة : عن عائشة رضى الله عنها قالت : « دخل النبى صلى الله عليه وسلم علينا وعندنا مريض يئن ، فقلنا له : اسكت ، فقال : دعوه يئن فإن الأنين اسم من أسمائه تعالى يستريح إليه العليل » ووجه استراحة العليل عند ذكره هذا اللفظ أنه يطلب من الله رحمته بشفائه ، وهذا كأنه صار أمراً طبيعياً ، فلله ما أحلى ، وأعلا ما ورد عن إبراهيم صلاة الله وسلامه عليه مما هو موافق

للطبائع والعادات وهو عبادة صرفة قال العلماء : هـذا الحديث حسن لغيره ، ومعنى هذا عدم إنكاره وعدم وضعه . وقالوا فى شرحه : يئن أى يتأوه أى يقول أوه بتشديد الواو أو آه فإن لفظ آه الذى ينطق به اسم من أسمائه تعالى ، وهذا هو الذى نقله كبار العلماء فيما كتبوه بقولهم إنه ورد إسماً فهم يعنون بوروده وروده بهذا الحديث ، ومما ذكره فى تفسير الآية وهو أنه اسم بلغة الحبشة معناه رحيم ، فأنت ترى بعد ما قدمناه لك من أن أسماء الله تعالى الأعلام ليست بتوقيفية بالإجماع ، وإنه يجوز أن يطلق أهل لغة لفظاً لأهل لغة أخرى، ويدخلونه فى كلامهم كما فى الألفاظ المعربة التى هى فى الأصل غير عربية ، وأدخلها العرب فى كلامهم بالإجماع ، ومن أن المفسرين قالوا فى معنى أواه أنه رحيم بلغة الحبشة لأنه يكثر من قول : (أوه) أو (آه) فأواه بلغة الحبشة رحيم ، فإبراهيم رحيم لأنه يكثر من ذكر الرحيم .

وفى الفخر الرازى ما نصه فى تفسير قوله تعالى : « إن إبراهيم لأواه حليم » واعلم أن اشتقاق الأواه قول الرجل عند شدة حزنه (أوه) أو (آه) والسبب فيه : أنه عند الحزن يختنق الروح القلبى فى داخل القلب بسبب احتراق الدم ، فالإنسان يخرج هذا النفس المحترق من قلبه ليخفف بعض ما به هذا هو الأصل فى اشتقاق هذا اللفظ ، وللمفسرين فيه عبارات ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الأواه الخاشع المتضرع ، وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأواه الخاشع فقال : الدعاء ، ويروى أن زينب تكلمت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يغير لونه ، فأنكر عمر ، فقال عليه الصلاة والسلام ، دعها فإنها أواهة ، قيل يارسول الله : وما الأواهة ؟ قال : الداعية الخاشعة المتضرعة ، والخشوع والتضرع بذكر الله تعالى فيكون معنى الآية : إن إبراهيم لأواه أى لكثير قول (أوه) أو (آه) أى كثير النطق بها ، والنطق

بها تضرع ، وذكر لله ، وشرحه وبينه قوله صلى الله عليه وسلم دعوه يئن فإن الأنين اسم من أسمائه تعالى إلخ ، فيكون الحديث كاشفاً عن معنى الآية ، ومعنى هذا الإسم الشريف رحيم كما قدمنا ، فمن هـذا كله تعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم فسر التأوه بالتضرع ، ولا تضرع إلا بذكر الله ، والذكر بالإسم ، وفسره الحديث بقوله الأنين اسم من أسمائه تعالى وقد ثبت بالحديث الحسن من أن (آه) أو (أوه) اسم من أسمائه تعالى تعلم من هذا كله : أن ذكر السادة الشاذلية بهذا الإسم ذكر صحيح له أصل حقيقة فى الدين ، لأن الحديث الحسن معمول به فى التكاليف الشرعية كما هو مقرر فى كتب الأصول ، والحديث كأنه شرح للآية الكريمة ، لأنه يبين أن الأنين أى لفظ (آه) أو (أوه) اسم من أسمائه تعالى ، وهو الذى كان إبراهيم يقوله ، وثبت أن معناه بلغة الحبشة رحيم ، وثبت بالإجماع أنه يجوز أن يطلق الإسم العلم فى لغة أخرى ، حيث يعلم معناه ، ونص العلماء على الإجماع على جواز ذكر الله سبحانه وتعالى بأى لغة كانت بعد علم المعنى ليحصل الاستحضار الذى هو فرع إدراك المعنى ، فليس بعد الذى قدمناه لك فى المقدمات الثلاث شك وارتياب فى ذكر هؤلاء السادة ، وذكر شراح الحديث ومفسروا الآية أن السادة الصوفية رضى الله عنهم يتداولون الذكر بهذا الإسم الكريم لأن له مزايا وخواصا ، وفيه من المعانى الإشارية التى يراعونها رضى الله عنهم دائماً شىء كثير ، وكأنهم رضى الله عنهم يرون أن كل متأوه يعتقد تقصيره ، وأنه شغوف بالقيام بواجب العبودية ، ويخشى عدم القيام به ، ويطلب من الله الرحمة به وتوفيقه إلى ذلك المطلب الذى يقصده الأنبياء ، وهذا هو معنى الإسم الشريف كما قدمنا ، وطريق القوم مبنية على القيام بواجب العبودية ، وهو المقام الذى اختاره الله لسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، وقد أثنى الله فى أشرف المواضع فى التنزيل

على أنبيائه بلفظ العبد قال تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » « نعم العبد » وكثيراً ما تغنى القوم فى مكان العبودية بما لو عددناه لطال بنا المقام .

بقى أن هذا الإسم ليس من التسعة والتسعين التى وردت فى الحديث ، ونقول جواباً على هذا : إن الذى فى الحديث هو المشهور من الأسماء ، وهناك أسماء وردت فى أحاديث أخرى مذكورة فى كتب الحديث كالحنان والمنان والرفيق التى وردت فى حديث عائشة ، فعدم ذكره فى المشهور لا يدل على عدم وروده ، ولا يلزم من أن فيه مزية نراعى لهم فى مقام السلوك ، وإرجاع النفوس إلى الله تعالى ، أن يكون أفضل من غيره ، فالمزية لا تقتضى الأفضلية ، كما نص عليه العلماء ، فقد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل ، وقد يكون الشىء أفضل من جهة ومفضولا من أخرى ، وأما تحقيق النطق بهذا الاسم هل هو (أوه) بهمزة غير ممدودة وواو مشددة أو هو (آه) بهمزة ممدودة وهاء ساكنة أو هو (أه) بهمزة غير ممدودة وهاء ساكنة أو هو ألف قريبة من الهمز والمد وهاء يخرجان من القلب من غير مراعاة لحركة أو سكون ، فمرجعه وسنده التلقى ، ولهذا اختلف نطق السادة الشاذلية به ، فكل ينطق بحسب ما تلقى ، والنفس إلى الأخير أميل ، وهذا هو الذى نقل عن الشاذلى رضى الله عنه سيد هذه الطائفة ، وهو الذى يشبه كرير السباع ، فقد روى عن الإمام أبى العباس المرسى رضى الله تعالى عنه : أنه كان يأخذ أصحابه إلى ناحية فى الجبل فيذكرون بذكر كأنه عند سماعه كرير السباع ، وذلك هو التأوه الذى قدمناه ، وقد قالوا أن السبع يتأوه حزناً على فوات مرغوبه وحباً فى تحصيل ما يتمناه ، وهو منتهى الشجاعة ، وذلك مقصود السادة رضى الله عنهم ، هذا تحقيق ذكر السادة الشاذلية باسم الصدر ، ولهم فى هذه الإضافة إشارة لطيفة وهى أن هذا الذكر فائدته تصحيح القلب الذى هو فى الصدر ، ولا يكون

الذاكر ذاكراً حتى الفؤاد إلا إذا استحضر بقلبه مهابة من يذكره ، ابتغاء إقباله عليه ، وخضوعه بين يديه ، فوصوله إلى أعلى المقامات إنما يكون من طريق الذكر القلبى الذى ينطوى فيه التفكر ، وقالوا فى الذكر التفكرى والاستحضارى : ما هو مسطور فى كتبهم وأشهر من نار على علم .

هذه عقيدتى فى إسم الصدر ، وهذا هو الذى رأيته منصوصاً فى كتب التفسير والحديث ، وكتب القوم ، رأيت أن أذكره ليعلم الناس أن ذكر الشاذلية فى مدينة الاسكندرية فى مسجد سيدى العارف بالله السيد يوسف على إمام الشاذلية بمدينة الاسكندرية وبقية المساجد المنتمية إليه رضى الله عنه ذكر صحيح أقره السلف والخلف لموافقته للوارد فى الكتاب والسنة حسبما قررنا ، ومن لطائف أذواقهم أنهم يقولون للمريد عند ذكره بهذا الاسم (إسم الصدر) اعتقد أن صدرك مكتوب فيه بقلم من نور الألف واللام فى الجهة اليمنى ، والهاء مدورة فى الجهة اليسرى ، ومركز الدائرة القلب ليكون الصدر كله نوراً ، ويكون النور معقوداً على القلب ، فلا يجد الشيطان له سبيلا إلى الدخول فيه . هذه هى أحوالهم ، وكلها لطائف ومعان ذوقية روحانية ، فهم يرون فى الأشياء معانى وجدانية ترجعهم إلى الله سبحانه وتعالى ويفرون بها من أنفسهم وحظوظها ، ومن تسلط الشيطان عليهم . وليس أجمع لهذا الغرض من العمل القلبى ، قال ابن عطاء الله رضى الله عنه فى حكمه : « ذرة من عمل القلوب تعدل مثاقيل الجبال من عمل الجوارح » وما حاول الصوفية بالذكر والخشوع ، والعزلة ، والزهد إلا الإخلاص فى العمل ، وخلو القلب من كل ما يبعد عن الله أسأل الله أن يحشرنا معهم وأن ينفعنا بهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد الحسينى الظواهرى
من علماء الأزهر الشريف

الفهرس

الموضوع	ص
مقدمة الطبعة الثانية	٣
مقدمة الطبعة الأولى	٥
ليس كمثله شيء وهو السميع	٧
البصير	
التوحيد	٨
إن الدين عند الله الاسلام	٩
وإن هذه أمتكم أمة واحده	١٢
وكان فضل الله عليك عظيما :	١٦
(وبه إثبات أن سيدنا محمد ﷺ	
أول الخلق وإثبات عموم	
رسالته ودوامها وفضائل	
أخرى)	
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين:	٢٤
(وبه إثبات رحمة الله للعالمين	
بنورانيته وبروحانيته	
وببشريته)	
ورفعنا لك ذكرك	٣٥
لاتجعلو دعاء الرسول بينكم	٣٦
كدعاء بعضكم بعضاً	

الموضوع	ص
والذين يؤذون رسول الله لهم	٤٢
عذاب أليم	
وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا	٤٥
منيراً	
زيارة قبره الشريف	٤٧
أصول الدين	٥٢
العلماء ورثة الأنبياء	٥٧
فاسألوا أهل الذكر إن كنتم	٥٩
لاتعلمون	
كل بدعة ضلالة	٦١
الفرقة الناجية	٦٣
الخوارج وأشياعهم	٦٥
لايصح تكفير أهل القبلة	٧١
بذنب أو بدعة	
مقامات الدين الإسلامى ..	٧٣
اختلاف الخطاب باختلاف	٧٥
درجات المخاطبين	
عوالم الإنسان : الجسم ،	٧٩
العقل، القلب ، الروح ، السر	

الموضوع	ص
تعين الفوائض وتعدد النوافل	٨٤
الإخلاص	٨٦
الأدب	٩٠
مجلسا العلم والذكر	٩٣
ما يتعلق بالعبد المتوجه إلى	٩٤
مولاه	
التصوف والصوفية	٩٧
المتشبهة بالصوفية	١٠٢
الطريق	١٠٧
أصول الطريق	١١٦
الدعوة إلى الله	١٣٠
المبايعة	١٤٣
الورد	١٤٦
التصحية	١٤٨
الذكر	١٥٠
مشروعيته من الكتاب والسنة	١٥٤
التحذير من ترك الذكر ..	٥٧
فضائل الذكر والاجتماع عليه	١٥٨
الجهر بالذكر	١٦٠
الذكر صباحاً ومساء	١٦٧

الموضوع	ص
فضل الصلاة على الرسول ..	١٧١
الصيغة الواردة والوظيفة	١٧٢
الشاذلية	
لا إله إلا الله	١٧٧
الاسم المفرد والمضمر ..	١٧٩
اسم الصدر (التأوه والأنين)	١٨٢
لماذا فضله أهل التربية والسلوك	١٨٥
قراءة القرآن فى المسجد ..	١٨٦
الانشاد والسماع فى المسجد	١٨٧
آداب الذكر الجهرى .. .	١٩٠
المحافظة على الحضرتين	١٩١
حكمة اختيار الذكر وترتيبه	١٩٣
الفائدة العقلية، الفائدة القلبية	١٩٤
الفائدة الروحية، الذكر السرى	١٩٦
الذكر الخفى	١٩٧
ويجعل لكم نوراً تمشون به	١٩٩
فوائد الذكر إجمالا	٢٠٠
وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه	٢٠٥
نظرة عامة فيما عليه الشاذليون	٢٠٨
حياة الأرواح وحفظ بعض	٢١٦
الأجساد	

الموضوع	ص	الموضوع	ص
الوسيلة والتوسل	٢٣٠	الرقية	٢٥٥
أنواع الوسيلة	٢٣٤	زيارة القبور	٢٥٨
الاستغاثة	٢٤٣	خاتمه الكتاب	٢٦٣
وأن ليس للإنسان إلا ماسعى	٢٥٠	الفهرس	٢٧٤

مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب بالمالية بمصر
تليفون ٢١٨٢٥

رقم الايداع ٢٨٩٥ / ١٩٧٠